دفتر قضايا دكتور ثورندايك

آر أوستن فريمان



دفتر قضايا الدكتور ثورندايك

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
أحمد سمير درويش

مراجعة
الزهراء سامي



دفتر قضايا الدكتور ثورندايك

آر أوستن فريمان

Dr. Thorndyke’s Casebook

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٧٠ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٣
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

الفصل الأول

قضية آثار الأقدام البيضاء

قال صديقي فوكستون مُواصِلًا الحديث في موضوعٍ مألوف يبدو أنه لا يَنضب أبدًا: «حسنًا، كنتُ أُحبِّذ أن أَحظى بوظيفتك بدلًا من وظيفتي.»

فأجبته بلا تعاطُف: «لا أشكُّ في أنك كنت تُحبِّذ ذلك. فأنا لم أقابل في حياتي رجلًا لا يُحبِّذ ذلك. فجميعُنا يَميل إلى النظر إلى وظائف الآخرين من منظور مزاياها، والنظر إلى وظائفنا من منظور مساوئها: تلك هي الطبيعة البشرية.»

ردَّ فوكستون قائلًا: «آه، من السهل عليك أن تكون فيلسوفًا شديد الفظاظة، لكنك ما كنت لتكون كذلك لو كنت مكاني. فهُنا، في مارجيت، لا نرى سوى الحَصبة والجُدري والحُمَّى القِرمزية طوال الصيف، والْتهاب الشُّعب الهوائية ونزلات البرد والروماتيزم طوال الشتاء. هذه رتابةٌ مُهلِكة. أما أنت وثورندايك فتجلسان هناك في مكتبَيكما، بينما يُشبعكما زبائنكما رومانسيةً خالصة. عَجبًا! إن حياتكما أشبه بدراما أبدية كالتي تُعرَض على مسرح أديلفي.»

قلت له: «إنك تُبالغ يا فوكستون؛ فنحن أيضًا نواجه بعض الرتابة في عملنا مِثلك تمامًا، لكنها لا تظهر أبدًا خارج قاعات المحاكم، ولا بد أنك، كأي طبيب آخر، تُعايش بعض الغموض والرومانسية في عملك من حين إلى آخر.»

هزَّ فوكستون رأسه بينما يُقدِّم إليَّ الفنجان بيده، وقال: «كلَّا، أنا لا أحصد من مهنتي سوى رتابةٍ مُملَّة لا تنتهي.»

فور أن انتهى من قوله هذا، دخلت الخادمة إلى الغرفة مندفعةً باهتياجٍ عجزت عن إخفائه، وكأنما جاء دخولها بهذه الطريقة تعقيبًا على جملته الأخيرة، وصاحت قائلةً:

«إذا سمحتَ يا سيدي، خادم نُزُل السيدة بيدينجفيلد يقول إنهم وجدوا سيدةً ميتة في فراشها، ويطلب منك الذهاب إلى هناك فورًا.»

فقال فوكستون: «حسنًا يا جين.» وبينما خرجت الخادمة، غرف لنفسه بيضةً مقليةً أخرى وراح يتناولها بتمهُّل، وصاح مُحدِّقًا إليَّ عبر الطاولة: «أليس هذا ما يحدث دائمًا؟ تعالَ فورًا — الآن — حالًا، مع أن المريض ربما يظلُّ يُفكِّر طوال يوم أو يومين فيما إذا كان سيُرسل في طلبك أم لا، لكنَّه يُقرِّر فورًا أنك يجب أن تَثِب من الفراش، أو تهبَّ تاركًا فُطورك، وتركض إليه.»

وافقته الرأي قائلًا: «هذا صحيح جدًّا، لكن هذه تبدو حالةً عاجلة حقًّا.»

فسأل فوكستون: «وما وجه العجلة؟ لقد ماتت المرأة بالفعل. قد يظنُّ من يسمع ذلك أنها مهدَّدة بخطرٍ وشيك سيُعيدها إلى الحياة مجددًا، وأن وُصولي الفوري هو الشيء الوحيد الذي سيمنع هذه الكارثة.»

فقلت له: «ليس لديك سوى معلومة من طرَفٍ ثالث بأنها ماتت. من الممكن ببساطةٍ ألَّا تكون قد ماتت، وحتى إذا ماتت حقًّا فسوف تضطرُّ إلى الإدلاء بأقوالك في التحقيق، ولا أظنُّ أنك تريد أن تصل الشرطة إلى هناك أولًا وتقلب الغرفة رأسًا على عقب قبل أن تفحص الجثة بنفسك.»

فصاح فوكستون: «سُحقًا! لم أُفكِّر في ذلك. نعم. أنت مُحِق. سأهبُّ إلى هناك حالًا.»

ابتلع ما تبقَّى من البيضة بلعةً واحدة وهو ينهض من أمام المائدة، ثم توقَّف وراح ينظر إليَّ بتردُّد لبضع ثوانٍ.

تحدَّث بعد ذلك قائلًا: «أتساءل يا جِرفيس عمَّا إذا كان بوسعك القدوم معي؛ فأنت أدرى مني بشِعاب الطب الشرعي. ما رأيك؟»

وافقت فورًا؛ إذ إنني كنت سأقترح ذلك بنفسي في واقع الأمر، وما منعني سوى التأدب. أحضرتُ من غرفتي كاميرا الجيب والحامل الثلاثي القوائم، وانطلقنا معًا دون مَزيد من التأخير.

لم يكُن نُزُل السيدة بيدينجفيلد يَبعد عن مَسكن فوكستون سوى بضع دقائق سيرًا على الأقدام؛ إذ كان يقع بالقرب من منتصَف شارع «إثيلريد رود» الهادئ الشبيه بالضَّواحي،

والذي يقع في منطقة كليفتونفيل، ويكتظُّ بمبانٍ سكنية مُشابهة لاحظتُ أن العديد منها يخضع لحملات تنظيف وتجديد استعدادًا لفصل الربيع المُقبِل قريبًا.

قال فوكستون: «ها هو النُّزل، حيث تقف هذه المرأة عند الباب الأمامي. انظر إلى النُّزلاء مجتمعين عند نافذة غرفة الطعام. أؤكِّد أن ثَمة فوضى نادرة المثال تعمُّ في هذا النُّزل.»

حينئذٍ صعد العتبات الخارجية راكضًا بعدما وصل إلى النُّزل، وخاطَب المرأة المُسنَّة التي كانت تقف عند الباب الأمامي المفتوح بنبرةٍ مُتعاطفة.

تحدَّث إليها قائلًا: «يا له من خَطبٍ فظيع يا سيدة بيدينجفيلد! أمرٌ مُروِّع! ما أشدَّ وقْعَه إيلامًا على نفسك!»

ردَّت قائلةً: «آه، أنت مُحِق يا دكتور فوكستون. إنه خَطبٌ شنيع وفظيع، ثم إن تأثيره سيئ للغاية في هذا المشروع التجاري. آمل وأتمنَّى ألَّا تحدث أيُّ فضيحة.»

قال فوكستون: «وأنا أيضًا أتمنَّى ذلك بكل تأكيد. لن تحدث أيُّ فضيحة ما دمتُ قادرًا على تجنُّب ذلك. ولأن صديقي الدكتور جِرفيس، الذي يَمكث معي بضعة أيام، مُحامٍ وطبيب، فسنَحظى بأفضل مشورة. متى اكتُشفت الواقعة؟»

«قُبيل أن أستدعيك مباشرةً يا دكتور فوكستون. لقد لاحظت الخادمة أن السيدة توسان — وهذا اسم المسكينة — لم تأخذ ماءها الساخن المتروك عند باب الغرفة؛ فقرَعَت الباب. وحين لم تتلقَّ أيَّ رد، جرَّبت فتح الباب بنفسها، لكنها وجدته موصدًا من الداخل؛ فجاءت وأخبرتني بذلك. صعدتُ إلى الأعلى وقرعت الباب قرعًا صاخبًا. وبعدها، حين لم أتلقَّ أيَّ رد، طلبت من صبيِّنا جيمس، أن يفتح الباب عَنوةً بفتَّاحة صناديق، ففعل ذلك بسهولةٍ كبيرة لأن المزلاج كان صغيرًا. دخلتُ الغرفة مُنتفضةً من شدة القلق؛ إذ كان يُراودني هاجس بوجود خَطب ما، ووجدتها جثةً هامدة مُستلقيةً بجُحوظٍ مُرعِب في عينيها، وقِنينةٍ فارغة في يدها.»

فقال فوكستون: «قنينة!»

«نعم. لقد انتحرَت، شيءٌ مُثير للشفقة، وكلُّ ذلك بسبب علاقة غرامية سخيفة، بل إنها لم ترقَ حتى إلى هذه الدرجة.»

قال فوكستون: «آه، ذلك هو المعتاد. يجب أن تُحدِّثينا عن ذلك لاحقًا. أما الآن، فمن الأفضل أن نصعد ونرى المريضة، أو بالأحرى الـ… حسنًا، فلتُرينا الغرفة يا سيدة بيدينجفيلد.»

استدارت صاحبة النُّزل وسبقتنا على الدَّرَج إلى الجزء الخلفي من الطابق الأول حيث توقفَت، وفتحت باب إحدى الغُرف بهدوء، وحدَّقت إلى داخلها بتوتُّر شديد. وحين تخطَّيناها ودخلنا، بدَت كأنها تهمُّ بالدخول وراءنا، لكن بعد نظرة ذات مغزًى مني، أقنعها فوكستون بالرحيل وأغلق الباب. وقفنا بعد ذلك صامتين لبُرهة ورُحنا ننظر فيما حولنا.

كان مَظهر الغرفة يتَّسم بتنافرٍ غريب مع المأساة التي وقعت داخل جدرانها، وكأنما هو مزيج بين الابتذال والفظاعة أدَّى إلى إحباط النهاية. فمن خلال النافذة المفتوحة على مِصراعَيها، كانت أشعَّة الشمس الربيعية الساطعة تتدفَّق إلى داخل الغرفة لتنساب على ورق الحائط المبهرج والأثاث الرخيص، وفي الشارع بالأسفل انطلقَت الصيحات المتكرِّرة التي يصيح بها رجلٌ يبيع «سمك موسى وماكريل!» لتتداخل مع نغماتٍ متقطِّعة رشيقة قد صدرت من أرغن يدوي. امتزج كلا الصوتين بصوتٍ صاخبٍ قريب كان صاحبه يشدو مبتهجًا بأغنيةٍ شعبية، وقد عرفنا مصدر هذا الصوت حين رأينا مِرفقًا مُكتسيًا بكُمٍّ كتَّاني كان يتحرَّك إلى أعلى وإلى أسفل أمام النافذة من الخارج، ومن الواضح أنه كان مرفق دهَّان يقف على سُلَّم متنقِّل مُجاور.

كان كلُّ شيء عاديًّا ومألوفًا ومُتنافرًا للغاية مع هيئة الجثَّة المتصلِّبة التي استلقَت على الفراش كتمثالٍ شمعيٍّ يرمز للمأساة، دون أن يُرى عليه أيٌّ من ملامح النُّعاس الكريم الذي غالبًا ما يوحي بأنَّ الموت راحةٌ أبدية. لقد كانت هذه المرأة مَيتةً، وبدَت مِيتتها شنعاء عُدوانية. كان وجهُها النحيل الشاحب جامدًا كالحجر، وعيناها الداكنتان تُحدِّقان إلى الفراغ اللامُتناهي بنظرةٍ جامدة مُروِّعة كان النظر إليها مُزعِجًا للغاية. ومع ذلك، لم تكن وضعية الجثَّة توحي بالاضطراب، بل الحق أنها كانت مُتناظِرة تناظرًا غريبًا بعض الشيء؛ إذ كانت كلتا الذراعين ممدَّدتين خارج أغطية الفراش، وكلتا اليدين مُقفلتَين، بينما أمسكت اليد اليُمنى بقِنينةٍ فارغة، مِثلما قالت السيدة بيدينجفيلد.

قال فوكستون وهو يقف ناظرًا إلى جثة المرأة: «حسنًا، تبدو قضيةً شديدة الوضوح؛ إذ يبدو أنها أزهقت رُوحها وظلَّت مُمسكةً بالقنينة كي لا يُخطئ أحدٌ في استنتاج ما حدث. متى ماتت هذه السيدة حسب تقديرك يا جِرفيس؟»

تحسَّستُ أطرافها المتيبِّسة وقِستُ درجة حرارة سطح جسدها.

ثم قلت له: «لقد ماتَت منذ ما لا يقلُّ عن ست ساعات، وربما أكثر. أعتقد أنها ماتَت في حوالَي الساعة الثانية من فجر اليوم.»

قال فوكستون: «هذا كل ما يُمكننا قوله حتى إجراء تشريح الجثة. كل شيء يبدو واضحًا تمامًا. لا توجد أمارات صراع ولا علامات عنف. وربما يعود السبب في هذا الدم الموجود على فمها إلى أنها قضمَت شفتها وهي تشرب من القنينة. نعم، يوجد هنا جرحٌ صغير داخل الشفة يتوافق مع السِّنتين القاطعتين العُلويتين. أتساءل بالمناسبة عمَّا إذا كانت القنينة تحتوي على أي ثُمالة مُتبقية.»

وبينما كان يتكلم، سَحب القنينة الزجاجية الصغيرة الخضراء، والتي لم تكن تحمل أي مُلصَق، من اليد المُغلَقة؛ فانفلتت منها بسهولة، ورفعها نحو الضوء.

صاح بعد ذلك قائلًا: «أجَل، لا يزال بالقنينة أكثر من درهمٍ سائلٍ، وهذه كميةٌ كافية لتحليل ذلك السائل، لكني لا أستطيع تمييز الرائحة. هل تستطيع معرفتها؟»

فتشمَّمت القنينة وأدركت وجود رائحة نباتية خافتة غير مألوفة.

أجبت قائلًا: «كلَّا. يبدو محلولًا مائيًّا من نوعٍ ما، لكني لا أستطيع تسميته. أين سدَّادة القنينة؟»

أجاب قائلًا: «لم أرَها. ربما تكون على الأرض في مكانٍ ما.»

انحنينا بحثًا عن السدَّادة المفقودة، وسُرعان ما وجدناها مُلقاةً في الظل أسفل المِنضدة الصغيرة بجوار السرير، غير أنني وجدت في أثناء هذا البحث السريع شيئًا آخر كان موجودًا في مَرمى بصرنا الواضح طوال الوقت؛ عود ثقاب شمعي. وصحيحٌ أن وجود عود ثقاب شمعي هو شيءٌ عادي للغاية، وربما لا تكون له أي علاقة بالأمر، لكن ظهور هذا العود جعلني أقف مع نفسي وأفكر مليًّا. ففي المقام الأول، لا تستخدم النساء في المُعتاد، أعواد الثقاب الشمعية، غير أن ذلك لم يكن أمرًا كبير الأهمية. ما كان مهمًّا في الأمر هو أن الشمعدان الموجود فوق المنضدة الموجودة بجوار السرير كان يحوي علبةً من أعواد الثقاب العادية، وأن هذه الأعواد العادية هي التي استُخدمت على ما يبدو لإضاءة الشمعة؛ إذ كان الجزء المُحترِق المتبقِّي من أحدها موجودًا في صينية الشمعدان. فما سر وجود عود الثقاب الشمعي إذن؟

وبينما كنت أفكِّر في هذه الأُحجية، سدَّ فوكستون القنينة الزجاجية بالسدادة، ولفَّها بعناية في ورقةٍ أخذها من منضدة الزينة، ثم وضعها في جيبه.

تحدَّث قائلًا: «حسنًا يا جِرفيس، أظنُّ أننا قد رأينا كل شيء، وسوف يُكمل التحليل وتشريح الجثة هذه القضية. فهلَّا نزلنا واستمعنا إلى ما ستقوله السيدة بيدينجفيلد؟»

غير أن ذلك العود الشمعي الذي كان ضئيلًا كدلالته، وحده دونًا عن التفاصيل الأخرى، قد تراءى لذهني على أنه آخر حلقة في سلسلة من الظواهر التي يحتمل كلٌّ منها تأويلًا خبيثًا، وبدأ التأثير التراكمي لهذه الإيحاءات الطفيفة يؤثِّر فيَّ تأثيرًا شديدًا بعض الشيء.

قلت له: «تمهَّلْ يا فوكستون. دعنا لا نفترض أن أي شيء هو حقيقةٌ مُسلَّم بها. نحن هنا لجمع الأدلة، وعلينا أن نفعل ذلك بحذر؛ إذ توجد جرائم قتل بالتسميم، كما تعلم.»

أجاب قائلًا: «نعم بالطبع، لكن لا يوجد ما يُوحي بذلك في هذه القضية. لست أرى شيئًا من هذا القبيل على الأقل. فهل ترى أنت؟»

قلت: «لم أرَ شيئًا قاطعًا للغاية، لكن توجد بعض الحقائق التي تستدعي التفكير. دعنا نستعرض ما رأيناه بتمعُّن. سوف نجد في البداية هذا التناقض الواضح في مظهر الجثة؛ فالوضعية العامة المُسترخية المتناظِرة، والتي تُشبِه وضعية جثة هامدة في قبرها، تُشير إلى تأثيرِ سمٍّ بطيء غير مؤلِم، لكن انظر إلى الوجه؛ إنه لا يُشير إلى أي ارتياح على الإطلاق، بل يوحي إيحاءً قويًّا بالألم أو الذُّعر أو كليهما.»

قال فوكستون: «نعم، إنه كذلك، لكن لا يُمكنك استخلاص أي استنتاجات مُقنِعة من تعابير وجه الجُثث. كثيرًا ما تبدو تعبيرات بعض الرجال الذين يُشنَقون، أو يُطعَنون حتى، وديعةً كالأطفال الرُّضَّع.»

فأصررتُ قائلًا: «لكنها ما تزال حقيقةً جديرة بالملاحظة، ثم إن لدينا ذلك الجرح في الشفة؛ ربما يكون قد حدث بالطريقة التي خمَّنتَها، لكنه يُمكن أيضًا أن يكون قد نجم عن ضغط على الفم.»

لم يُعلِّق فوكستون على ذلك إلا بهزةٍ طفيفة من كتفَيه، بينما واصلت أنا كلامي قائلًا: «ثم إليك حالة اليد. لقد كانت مُقفَلة، لكنها لم تكن تقبض حقًّا على الشيء الذي كانت تَحويه؛ فأنت قد سحبت منها القنينة بلا أي مقاومة؛ أي إنها كانت ترقد في اليد المُقفلة ليس غير، وليس ذلك بالوضع الطبيعي؛ فأنت تعلم أنه حين يموت شخصٌ ما وهو مُمسِك بأي شيء، إما أن ترتخي اليد وتدع هذا الشيء يسقط، أو يتحول النشاط العضلي تدريجيًّا إلى تشنُّجٍ جُثِّي فتقبض اليد على الشيء بإحكام. وأخيرًا، يوجد عود الثقاب الشمعي هذا؛ فمن أين أتى؟ من الواضح أن المرأة الميتة قد أضاءت شمعتها بأحد أعواد الثِّقاب العادية من العُلبة. صحيحٌ أن هذه تفصيلةٌ بسيطة، لكنها تستلزم توضيحًا.»

رفع فوكستون حاجبَيه مُعترضًا. وقال: «أنت ككل المتخصِّصين يا جِرفيس؛ ترى تخصُّصك في كل شيء. وبينما تعتصر هذه الإيحاءات الواهية لتُحوِّل انتحارًا بسيطًا إلى جريمة قتل، تتجاهَل الحقيقة القاطعة حقًّا، وهي أن ذلك الباب كان مُوصَدًا من الداخل، وكان لا بد من فتحه عَنوةً قبل أن يدخل أيُّ أحدٍ الغرفة.»

تحدَّثت قائلًا: «لعلك لا تنسى أن النافذة كانت مفتوحة على مِصراعَيها، وأنه كان يوجد دهَّانون بالقرب منها، وربما تُرِك سُلَّم منصوبًا أمام النُّزل.»

قال فوكستون: «بخصوص السُّلم فهذا محض افتراض، لكننا نستطيع حسم هذه المسألة بسؤال ذلك الرجل الموجود خارجًا عمَّا إذا كان قد ترك السُّلم منصوبًا في الليلة الماضية أم لا.»

وهنا تحرَّكنا معًا نحو النافذة، لكن كِلينا قد توقَّف فجأةً في مُنتصَف الطريق؛ إذ إن السؤال عن السُّلم سرعان ما صار بلا قيمة؛ فقد كانت تُحدِّق إلينا من البساط المُشمَّع الذي كان يُغطِّي الأرضية آثارُ قدمين حافيتَين مطبوعة بِطلاءٍ أبيض وذات بُروز شديد كأنها منحوتة على الخشب. ولم يكن ثَمة داعٍ إلى السؤال عمَّا إذا كانت تلك الآثار ناجمة عن قدمَي المرأة الميتة؛ لأنها كانت آثار قدمَي رجل بلا أي شك، بل قدمَين كبيرتين أيضًا. ولم يكن هناك من شك كذلك في الجهة التي أتَت منها هاتان القدمان؛ إذ كانت الآثار تبدأ من أسفل النافذة ببروزٍ صارخ، ثم تتضاءل شدتها سريعًا حتى تصل إلى الجزء المُغطَّى بالسجاد من الغرفة، حيث تتلاشى فجأةً، ولم تُرَ بقية الآثار الخافتة لخطوات المسير المُتلاشية تدريجيًّا على ذلك الجزء إلا بأقرب تدقيق مُمكِن.

وقفت أنا وفوكستون بضع لحظات نُحدِّق في صمت إلى هذه العلامات البيضاء المُوحية بالشر، ثم نظر أحدنا إلى الآخر.

تحدَّث فوكستون قائلًا: «لقد أنقذتني من خطأٍ شديد الفداحة يا جِرفيس؛ فسواء أكان السُّلم موجودًا أم لا فإنَّ هذا الرجل قد دخل عبر النافذة، وكان ذلك في الليلة الماضية؛ لأنني رأيتهم يَطلُون عتبات هذه النافذة عصر البارحة، ولكن من أي جهة أتى يا تُرى؟»

ذهبنا إلى النافذة وتفحَّصنا العتبة، فوجدنا على الطلاء الجديد مجموعةً من آثار الأقدام الواضحة، وإن كانت مُلطَّخةً بعض الشيء. أعطتنا هذه الآثار تأكيدًا لم نكن حتى نحتاج إليه، وأظهرت أن الشخص الدخيل قد وصل إلى النافذة من الجهة اليسرى التي كانت قريبةً من أنبوب تصريف رئيسي مصنوع من الحديد الزهر، كان مَطليًّا آنذاك بطلاءٍ أخضر جديد.

قال فوكستون: «إذن، فوجود السُّلم من عدمه ليس مهمًّا. لقد دخل الرجل عبر النافذة بطريقة أو بأخرى، وهذا كل ما يُهم.»

قلت له: «بالعكس، ربما تكون هذه التفصيلة مهمة جدًّا في تحديد هُوية القاتل؛ فليس أي شخص يستطيع تسلُّق أنبوب تصريف رئيسي، في حين أن معظم الناس يستطيعون تسلُّق سُلَّم، حتى وإن كان مزوَّدًا بعارضةٍ خشبية تُعيق غير المسموح لهم باستخدامه، لكن حقيقةَ أن الرجل قد خلع حذاءه وجواربه تشير إلى أنه جاء عن طريق الأنبوب؛ لأنه لو كان يريد كتم صوت قدميه فحسبِ لَخلع حذاءه فقط على الأرجح.»

تركنا النافذة والتفتنا لفحص آثار الأقدام على الأرض من كثب، وبينما أخذت مجموعةً من القياسات بشريط القياس الزنبركي خاصتي، كان فوكستون يُسجِّلها في دفتر ملاحظاتي.

وقال لي: «ألا تتعجب يا جِرفيس من أن كلا الإصبعين الأصغرين في القدمين لم يترك أي أثر؟»

رددت قائلًا: «هذا صحيح. إن شكل الآثار يُشير إلى عدم وجود الإصبعين الأصغرين، لكني لم أصادف حالة كهذه من قبل. هل صادفتها أنت؟»

«بتاتًا. صحيحٌ أنني أعرف بعيب زيادة أصابع القدم الخِلقي، لكني لم أسمع قط عن عيب نقص أصابع القدم الخِلقي.»

تفحَّصنا آثار الأقدام مرةً أخرى، وفحصنا أيضًا تلك الموجودة على عتبة النافذة، والتي طُبعت على الطلاء الجديد بشيء من الضبابية، لكنها كانت واضحة تمامًا كتلك المطبوعة على البساط المشمع، وقد ظهرت فيها كل التجاعيد وأدق علامات الجلد، دون ظهور أدنى أثرٍ للإصبع الأصغر في أيٍّ من القدمين.

قال فوكستون: «إن هذا استثنائيٌّ للغاية. لا شك أنه قد فقد إصبعَيه الأصغرين، إن كان قد وُلِد بهما أصلًا؛ فمن المستحيل ألا يتركا أيَّ أثر هكذا، لكنها حالةٌ غريبة، وهي هِبةٌ مُفاجئة من السماء إلى الشرطة؛ أقصد إمكانية الاستفادة منها في تحديد هوية القاتل.»

وافقته الرأي قائلًا: «نعم، ونظرًا إلى أهمية آثار الأقدام، أظنُّ أنه من الأفضل أن نلتقط صورةً لها.»

قال فوكستون: «حسنًا، ستتكفَّل الشرطة بذلك، ثم إننا لا نمتلك كاميرا، إلا إذا كنت تفكِّر في استخدام تلك اللعبة الصغيرة التي تُسميها أنت بالكاميرا.»

ولأن فوكستون لم يكن مُصوِّرًا، فلم أكلِّف نفسي عناءَ أن أشرح له أن تلك الكاميرا التي أملكها، قد صُنعت خصوصًا لأغراضٍ علمية بالرغم من صِغرها.

قلت له: «أيُّ صورةٍ أفضل من لا شيء.» ثم فتحت الحامل الثلاثي القوائم ووضعته على أحد أبرز آثار الأقدام، وثبَّت الكاميرا في الفتحة المخصَّصة لها، وركَّزت إطار العدسة بعناية على أثر القدمين، وضبطت التركيز البؤري، وعرَّضت الفيلم الفوتوغرافي للضوء أخيرًا بإطلاق مصراع الكاميرا. كرَّرت هذه العملية أربع مرات؛ مرتين على أثر القدم اليمنى، ومرتين على أثر القدم اليسرى.

علَّق فوكستون قائلًا: «حسنًا، بفضل توافُر كل هذه الصور، يجب أن تتمكَّن الشرطة من تتبُّعِ خيطٍ يقودها إلى القاتل.»

«نعم، لقد صار لديهم خيطٌ يُمكنهم تتبُّعه، ولكن سيتوجَّب عليهم الإمساك بأرنبهم السريع قبل أن يطهوه؛ فهو لن يمشي في الشوارع حافي القدمين، كما تعلم.»

«كلَّا بالطبع؛ ومن ثَم فهذا دليلٌ ضعيف. والآن، ها نحن قد أنهينا دورنا على الأرجح بعدما رأينا كل ما يُمكن رؤيته. أظن أننا لن نحتاج إلى قول الكثير للسيدة بيدينجفيلد؛ فهذه قضية من اختصاص الشرطة، وكلما قلَّت مشاركتي فيها كان ذلك أفضل لمهنتي.»

وجدت في حيطة فوكستون ما يدعو إلى التفكه بعض الشيء؛ إذ قارنتها بما قاله على مائدة الفطور؛ فمن الواضح أن شهيته للغموض والرومانسية كانت قنوعة للغاية، لكن ذلك لم يكن من شأني على أية حال. انتظرتُ على عتبة الباب بينما كان يقول لصاحبة النُّزل بضع كلمات مُواربة على الأرجح، ثم سِرنا معًا نحو مقر الشرطة، وحينها بدأت في تقليب أبرز ملامح القضية في رأسي. مشينا صامتين بعض الوقت، كنا ولا بد نفكِّر في أثنائه تفكيرًا مُتشابهًا؛ ذلك أنه حين تحدَّث أخيرًا صاغ أفكاري نفسها تقريبًا بكلماته.

تحدَّث قائلًا: «أتعلَم يا جِرفيس، لا بد أن آثار الأقدام تلك تحوي دليلًا ما. أعرف أن المرء لا يُمكنه معرفة عدد أصابع قدم شخص ما وهو ينتعل حذاءً، لكن هذه الآثار الاستثنائية يجب أن تُعطي الخبراء المتخصصين تلميحًا ما إلى الشخص المطلوب إيجاده. ألا تنقل إليك أي تلميح معيَّن؟»

شعرتُ بأن فوكستون مُحقٌّ، وبأنه لو كان زميلي البارع ثورندايك مكاني لَاستخلص من تلك الآثار حقيقةً مهمة كانت ستُعطي الشرطة خيطًا محددًا ليبنوا التحقيق على أساسه. وهذا الاعتقاد الذي خطر ببالي، مصحوبًا بالتحدي الذي واجهني به فوكستون، وضعني في امتحانٍ صعب لقدراتي.

قلت له: «إنها لا توحي إليَّ بأي شيء معيَّن حتى الآن، لكني أعتقد أننا إذا فكَّرنا فيها تفكيرًا منهجيًّا، فسنستخلص منها بعض الاستنتاجات المفيدة.»

قال فوكستون: «حسنًا جدًّا، إذن فلنُفكر فيها تفكيرًا منهجيًّا. هاتِ ما عندك؛ فأنا أودُّ أن أعرف الكيفية التي تحلُّ بها مثل هذه الأحاجي.»

كان موقف المتفرِّج الصريح الذي اتخذه فوكستون مُربكًا بعض الشيء، لا سيما أنه بدا يُلزمني بنتيجة لم أكن مُتيقنًا من تحقيقها بأي حال من الأحوال؛ لذا فقد بدأت الحديث متهيِّبًا الأمر بعض الشيء.

قلت له: «لقد افترضنا أن القدمين اللتين طبعتا هذه الآثار خاليتان من الإصبعين الأصغرين لسببٍ ما. ونحن نُنزل هذا الافتراض الذي يُعَد شِبه صحيح بالتأكيد منزلةَ الحقيقة. ونظرًا إلى أنه بمثابة نُقطة الانطلاق التي سنبدأ منها، فأُولى خطوات التحقيق أن نجد له تفسيرًا ما. والآن، لدينا ثلاثة تفسيرات محتملة لا رابع لها: عيب خِلقي أو إصابة أو مرض. أي إن الإصبعين ربما يكونان غير موجودَين منذ الولادة، أو ربما فُقدا نتيجة إصابة ميكانيكية، أو ربما فُقدا بسببِ مرضٍ ما. فلنستعرض إذن هذه الاحتمالات بالترتيب.»

«سنستبعد احتمال العيب الخِلقي لأننا لا نعرف عيبًا خلقيًّا من هذا القبيل.»

«ويبدو احتمال الإصابة الميكانيكية مستبعَدًا أيضًا؛ لأن الإصبعين الأصغرين يقعان على جانبين متعاكسَين من الجسم، ومن المُستحيل أن يتضرَّرا من أي حادث عنيف دون تضرُّر الأصابع الأخرى الواقعة بينهما. ويبدو أن هذا يُضيِّق دائرة الاحتمالات ويجعلها مُقتصرةً على المرض، والسؤال الذي يتبادر إلينا الآن هو: ما الأمراض التي قد تؤدِّي إلى فقدان كلا الإصبعين الأصغرين؟»

نظرت إلى فوكستون مستفهِمًا وأنا أقول هذا السؤال، لكنه اكتفى بإيماءةٍ تشجيعية؛ إذ كان يؤدي دور المستمِع ليس غير.

فواصلت كلامي قائلًا: «حسنًا، يبدو أن فقدان كلا الإصبعين الأصغرين يستبعد احتمال المرض الموضعي، تمامًا كما استبعد احتمال الإصابة الموضعية، وبخصوص الأمراض العامة فأنا لا يسعني التفكير إلا في ثلاثة أمراض قد تُسبِّب هذه الحالة؛ وهي مرض رينود، والتسمُّم الإرجوتي، وقضمة الصقيع.»

اعترض فوكستون قائلًا: «لا تقُل إنك تُسمِّي قضمة الصقيع مرضًا عامًّا!»

فقلت له: «بل أُسمِّيها كذلك في حالتنا هذه. صحيحٌ أن تأثيراتها موضعية، لكن سببها المتمثِّل في انخفاض درجة الحرارة الخارجية يؤثِّر في الجسم كله ويُعَد سببًا عامًّا. حسنًا، والآن، لنستعرض الأمراض المحتملة بالترتيب. أظنُّ أننا نستطيع استبعاد مرض رينود. صحيحٌ أنه أحيانًا ما يُسبِّب اضمحلال أصابع اليدين أو أصابع القدمين وتضاؤلها، وأن

أصابع القدم الصغرى بالأخص ستكون أكثر عُرضةً للتأثر به لأنها الأبعد عن القلب، لكن في مثل هذه الحالة الحادَّة التي صادفناها، كانت أصابع القدم الأخرى أيضًا ستتأثر؛ إذ كان من المُفترَض أن تكون ذابلةً نحيلة، وأظنُّ أنك تتذكَّر أن أصابع هاتين القدمين كانت سمينةً ممتلئة، مثلما اتَّضح من الآثار الكبيرة التي خلَّفتها؛ لذا أظنُّ أننا نستطيع استبعاد مرض رينود بكل ثقة. وبذلك يتبقَّى التسمُّم الإرجوتي وقضمة الصقيع، وترجيح كفة أحدهما على الآخر هي مسألة شيوع نِسبي ليس غير؛ فقضمة الصقيع أكثر شيوعًا؛ لذا فاحتمال قضمة الصقيع هو الأرجح.»

سأل فوكستون: «هل يؤثِّران في أصابع القدم الصغرى بالدرجة نفسها؟»

قلت له: «أجل، هذا صحيح على الأرجح؛ إذ يُسبِّب سمُّ الإرجوت الذي يؤثِّر من الداخل، والبرد القارس الذي يؤثِّر من الخارج، تقلُّصَ الأوعية الدموية الصغيرة وإيقاف الدورة الدموية؛ ومن ثَم تكون القدمان، اللتان تُمثِّلان أبعد الأعضاء عن القلب، أول ما يتأثَّر بتلك التأثيرات، ويصبح الإصبعان الأصغران، اللذان يُمثِّلان أبعد أجزاء القدمين عن القلب، أكثر عُرضةً من بقية الأصابع لتلك التأثيرات.»

فكَّر فوكستون بُرهةً، ثم قال:

«كل هذا يبدو منطقيًّا جدًّا يا جِرفيس، لكني لا أرى أنك أحرزت تقدُّمًا كبيرًا؛ فهذا الرجل قد فقد كِلا إصبعيه الأصغرين، وبناءً على استدلالك فإن الاحتمالات التي يُمكِن أن نعزوَ إليها السبب في ذلك هي التسمُّم الإرجوتي المُزمِن أو قضمة الصقيع، مع ترجيح كفَّة احتمال قضمة الصقيع. وهذا كل ما لدينا؛ أي لا دليل، ولا وسيلة للتحقق من صحة الافتراض. لا شيء سوى تطبيق قانون الاحتمالات على حالةٍ معيَّنة، وهذا دائمًا ما يكون غير كافٍ؛ فربما فقد إصبعيه بطريقةٍ مختلفة تمامًا. وحتى إذا أسفرت الاحتمالات عن استنتاجٍ صحيح، فلست أرى الفائدة التي قد تحصدها الشرطة من استنتاجاتك؛ فهذه الاستنتاجات لن تُخبِر الشرطة بمواصَفات الرجل المطلوب إيجاده.»

كان اعتراض فوكستون ينطوي على قدرٍ كبير من الحقيقة؛ فالرجل المُصاب بالتسمُّم الإرجوتي أو قضمة الصقيع لا يختلف من الخارج عن أي رجل آخر، لكنَّنا لم نكن قد استنفدنا الحُجة بعد، مِثلما هممت بإخباره.

قلت له: «لا تستبق الأحداث يا فوكستون. دعنا نُواصِل استعراض بضعة تفاصيل إضافية في حُجتنا. لقد أقررنا باحتمالية إصابة ذاك الرجل المجهول إما بالتسمُّم الإرجوتي أو قضمة الصقيع. وهذا، كما قلت أنت، ليس مُجدِيًا في حد ذاته، لكن إذا افترضنا أننا نستطيع

توضيح أن هذين المرضين غالبًا ما يُصيبان فئةً معيَّنة من الناس، فسوف نُثبت حقيقةً تدلُّنا على خيطٍ معيَّن يسير فيه التحقيق. وأعتقد أننا نستطيع القيام بذلك؛ فلنستعرض حالة التسمُّم الإرجوتي أولًا.»

«الآن، كيف يحدث التسمُّم الإرجوتي المُزمِن؟ إنه لا يحدث بسبب الاستخدام الطبي للأدوية التي تحوي مادة الإرجوت، بل بسبب تناول الجاودار المُصاب بفطر الإرجوت؛ لذا فهذا المرض مُقتصِر على البُلدان التي يُستخدم فيها الجاودار بكثرة في الطعام، وهي دول شمال شرق أوروبا بوجهٍ عام، وروسيا وبولندا بوجهٍ خاص.»

«ولنستعرض الآن حالة قضمة الصقيع. من الواضح أن الأشخاص الأكثر عُرضةً للإصابة بقضمة الصقيع هم سكان الدول ذات المناخ البارد. وأكثر الدول التي يسكنها ذوو البشرة البيضاء برودةً هي دول أمريكا الشمالية وشمال شرق أوروبا، لا سيَّما روسيا وبولندا؛ ومن ثَم، فكما ترى، تتداخل المناطق المرتبطة بالتسمُّم الإرجوتي وقضمة الصقيع نوعًا ما، بل يُمكن وصف ذلك في واقع الأمر بأنه أكثر من مجرَّد تداخُل؛ ذلك أن المُصاب بالتسمُّم الإرجوتي، ولو بدرجةٍ طفيفة، سيكون أكثر عُرضةً لقضمة الصقيع؛ بسبب ضعف دورته الدموية. الخلاصة أنه في كلتا الحالتين، التسمُّم الإرجوتي وقضمة الصقيع، سنجد أن الاحتمالات تُرجِّح من المنظور العِرقي أن هذا الشخص روسي أو بولندي أو اسكندنافي.

وفي حالة قضمة الصقيع سنرى أن عامل المهنة مؤثِّر؛ فأي فئة من الرجال أكثر عُرضةً للإصابة بقضمة الصقيع؟ حسنًا، الأكثر عُرضةً للإصابة بقضمة الصقيع هم البحَّارة بلا أدنى شك، لا سيَّما أولئك الذين يُبحِرون على سُفنٍ شراعية، وعلى السُّفن التي تقوم بعمليات التجارة مع دول المنطقة القطبية الشمالية والدول المُجاورة لها. غير أن غالبية هذه السُّفن الشراعية هي تلك التي تشترك في عمليات التجارة مع دول البلطيق ومدينة أرخانجل، وكل أفراد أطقُم هذه السُّفن تقريبًا من الاسكندنافيين والفنلدنيين والروس والبولنديين؛ لذا فإنَّ الاحتمالات تُشير مرةً أخرى إلى مُواطن من شمال شرق أوروبا، ويُمكننا أن نقول إنها تُشير إجمالًا بفعل تداخل العوامل إلى مُواطنٍ روسي أو بولندي أو اسكندنافي.»

ابتسم فوكستون ابتسامةً تهكُّمية، وقال: «عبقريٌّ جدًّا يا جِرفيس. عبقريٌّ للغاية. إن تحليلك هذا ممتاز للغاية إذا اعتبرناه عرضًا أكاديميًّا للاحتمالات، لكنه لا يقدِّم أي جدوى من الناحية العملية. على أي حال، ها نحن قد وصلنا إلى مركز الشرطة. سأدخل سريعًا وأخبرهم بالحقائق، ثم نذهب إلى مكتب قاضي التحقيق في أسباب الوفاة.»

قلت له: «أظنُّ أن الأفضل ألَّا أدخل معك، أليس كذلك؟»

أجاب قائلًا: «حسنًا، بلى. فكما ترى، ليس لك صلةٌ رسمية بالقضية، وقد لا يستحسنون تدخُّلك فيها. من الأفضل أن تذهب وتستمتع بوقتك بينما أنجز زيارات الصباح الرسمية. ويُمكننا النقاش باستفاضة على الغداء.»

تَوارى بعد ذلك داخل مقر الشرطة، بينما استدرتُ لأمشي بعيدًا بابتسامة تندُّر متجهِّمة. إن التجربة الحياتية غالبًا ما تجعلنا قساةً تافهين، وقد علَّمتني أن هؤلاء الذين يُعبِّرون عن بالغ الاستهزاء بالاستدلال الأكاديمي لا يترفَّعون في العادة عن إعادة سرده مع بعض التصرُّف في تأليفه الأصلي؛ لذا فقد راوَدني حدس بأن فوكستون كان في هذه اللحظة نفسها يتقيَّأ «عرضي الأكاديمي للاحتمالات»، الذي احتقره، أمام مُفتِّش شُرطي مُعجَب بما يسمعه.

كان طريقي إلى البحر يمرُّ بشارع «إثيلريد رود»، وكنتُ قد قطعت ما يقرب من نصفه مُقتربًا من النُّزل الذي وقعت فيه المأساة، وحينها رأيت السيدة بيدينجفيلد عند المشربية. ومن الواضح أنها تعرَّفت عليَّ إذ ظهرَت بعد بضع لحظات على العتبة الخارجية وهي ترتدي ملابس الخروج، وتقدَّمت نحوي لمقابلتي.

سألتني حين تقابلنا: «هل ذهبت إلى مركز الشرطة؟»

فأجبتها بأن الدكتور فوكستون كان موجودًا آنذاك في مركز الشرطة.

قالت: «آه، إنها قضية مُروِّعة، بل مشئومة جدًّا أيضًا؛ إذ وقعت في بداية الموسم بالضبط. فالنُّزل إذا طالته فضيحة يُخيِّم عليه خرابٌ تام. ما رأيك في القضية؟ هل يُمكن التكتُّم عليها؟ أظنُّ أن الطبيب فوكستون قال إنك مُحامٍ يا دكتور جِرفيس، أليس كذلك؟»

«بلى، أنا مُحامٍ، لكني في الواقع لا أعرف شيئًا عن ملابسات هذه القضية. لقد فهمت أنها تتعلَّق بعلاقةٍ غرامية أو ما شابه، أليس كذلك؟»

قالت: «بلى — أو بالأحرى — حسنًا، ربما كان يجب ألا أقول ذلك. أليس من الأفضل أن أخبرك بالقصة كلها؟ هذا إن لم أكُن سآخذ منك وقتًا أطول من اللازم.»

قلت لها: «بل أنا مهتمٌّ بسماع ما أدَّى إلى هذه الكارثة.»

قالت: «إذن، سأُخبرك بكل شيء عنها. هلَّا تدخل معي النُّزل أم أتمشَّى معك قليلًا؟»

ولأنني خمَّنت أن رجال الشرطة كانوا في طريقهم إلى النُّزل آنذاك، فقد اخترت الخيار الثاني، وقُدتها بعيدًا نحو البحر بخطواتٍ سريعة جدًّا.

سألتها ونحن نقطع الشارع بخُطًى واثبة: «هل كانت هذه السيدة المسكينة أرملة؟»

أجابت السيدة بيدينجفيلد: «كلَّا، لم تكن كذلك، وقد كانت هذه هي المشكلة؛ إذ يعيش زوجها في الخارج، أو بالأحرى كان يعيش في الخارج، وهو يُوشِك أن يعود إلى الوطن. يا لَلمُفاجأة الرائعة التي تنتظر هذا المسكين عند عودته! إنه ضابط في الشرطة المدنية في سيراليون، لكنه لم يقضِ هناك فترةً طويلة. لقد ذهب إلى هناك لأسبابٍ صحية.»

صِحت متعجِّبًا: «ماذا! إلى سيراليون!» فقد بدا من الغريب أن تكون «مقبرة الرجال البِيض» ملاذًا صحيًّا.

قالت: «نعم. أصغِ إليَّ، السيد توسان كنديٌّ فرنسي، ويبدو أنه دائمًا ما كان كثير الترحال نوعًا ما. لقد مكث في كلونדايك فترةً، لكنه عانى فيها كثيرًا بسبب بردها القارس، حتى إنه اضطرَّ إلى المغادَرة؛ إذ ألحق البرد بصحَّته ضررًا شديدًا. لم أعرف ماهية هذا الضرر بالضبط، لكني أعرف أنه قد ظلَّ أعرجَ فترةً. وحين تحسَّنت صحته بحث عن وظيفة في مناخٍ دافئ إلى أن عُيِّن مفتِّشًا لدى الشرطة المدنية في سيراليون. كان ذلك قبل حواليَ عشرة أشهر، وحين سافر إلى أفريقيا بحرًا جاءتني زوجته لتمكث معي، وظلَّت هنا منذ ذلك الحين.»

«وهل هذه هي العلاقة الغرامية التي تحدَّثتِ عنها؟»

«نعم، ولكن كان يجب عليَّ ألا أُسمِّيها هكذا. سوف أشرح لك ما حدث. قبل حواليَ ثلاثة أشهر، جاء رجلٌ سويدي مُهذَّب — اسمه السيد بيرجسون — ليمكث هنا، وبدا أنه مفتون جدًّا بالسيدة توسان.»

«وماذا عنها هي؟»

«آه، لقد أُعجِبت به إلى حدٍّ ما؛ فهو طويل القامة ووسيم، لكنه كذلك ليس بأطول من زوجها ولا أوسم منه إطلاقًا. كِلا الرجلين أطول من ست أقدام. لم يكن في ذلك ضرر عليها حتى ذلك الوقت، غير أنها لم تدرك حقيقة الوضع في الوقت المناسب. لم تكن متحفظةً في تصرُّفاتها، حتى إنني قد رأيت في الواقع أنني يجب أن أُسْدي إليها بعض النصح. على أي حال، رحل السيد بيرجسون عن هنا، وذهب للعيش في رامسجيت ليُشرِف على تفريغ حمولة السُّفن المخصَّصة للإبحار في المياه الجليدية (وكان قد جاء من السويد على متن إحداها). ظننت أن المشكلة انتهت، لكنها لم تنتهِ؛ فقد بدأ يأتي لزيارة السيدة توسان، ولم أكن أقبل بذلك بالطبع؛ لذا فقد اضطررت أخيرًا إلى إخباره بألا يأتي إلى النُّزل مرةً أخرى.

وقد كان ذلك مؤسِفًا جدًّا؛ لأنه كان في تلك المرة «شاربًا»، كما يقولون في اسكتلندا. صحيحٌ أنه لم يكن ثملًا، لكنه كان سريع الانفعال وصاخبًا، وحين أخبرته بأنه يجب ألا يأتي مرةً أخرى أحدث ضجةً شديدة، حتى إن اثنين من النُّزلاء المُهذَّبين، وهما السيد وُرديل والسيد ماكولي، قد اضطرَّا إلى التدخُّل. وانهال هو عليهما سبًّا وشتمًا، لا سيما السيد ماكولي، وهو رجلٌ ملوَّن؛ إذ وصفه بأنه «زنجيٌّ دنيء للغاية»، وبكل الصفات المُهينة.»

«وكيف كان ردُّ الرجل الملوَّن على ذلك؟»

«يؤسفني القول إن رده لم يكن لائقًا، بالنظر إلى أنه رجلٌ مهذَّب؛ فهو طالبٌ يدرس القانون ولديه غرفة في حي «تمبل». الحق أنه قد ردَّ بلهجةٍ بغيضة للغاية، حتى إن السيد ورديل أصرَّ على أن أطرده فورًا، لكنني استطعت نقله إلى غرفة بجوار الغرفة المُجاورة. لقد كان السيد ورديل مفوِّضًا شُرطيًّا في سيراليون — وبفضله، نال السيد توسان وظيفته هناك — لذا أظنُّ أنه يُعامل الملوَّنين بطريقةٍ تتطلَّب احترام حضرته.»

«وهل كان هذا آخر ما عرفتِه عن السيد بيرجسون؟»

«لم يأتِ إلى هنا مرةً أخرى، لكنه بعث إلى السيدة توسان بعدة رسائل يطلب منها فيها لقاءه. وأخيرًا، منذ بضعة أيام فقط، بعثت إليه برسالة وأخبرته بأن العلاقة القائمة بينهما يجب أن تنتهي.»

«وهل انتهت؟»

«نعم، على حد علمي.»

قلت لها: «إذن، يا سيدة بيدينجفيلد، ما الذي يجعلك تربطين هذه العلاقة بـ... بما حدث؟»

فأوضحت قائلةً: «حسنًا، الزوج طرفٌ في المسألة بالطبع. لقد كان على وشك العودة إلى الوطن، وربما وصل إلى إنجلترا بالفعل.»

قلت لها: «حقًّا!»

فواصلت حديثها قائلةً: «نعم. لقد سافر إلى هذا البلد المُوحِش للقبض على بعض مُواطنيه الأصليِّين المُنتمِين إلى إحدى عصابات القتَلة — أظنُّ أن اسمها «ليوبارد سوسايتيز» — وأُصيبَ بجروحٍ خطرة، ثم بعث إلى زوجته برسالة من المستشفى قائلًا إنه سيُعاد إلى الوطن حالَما تسمح حالته الصحية بالسفر، ومنذ حوالَي عشرة أيام تلقَّت منه رسالةً يقول فيها إنه سيعود على متن السفينة التالية.»

لقد لاحظت أنها كانت تبدو في غاية التوتر والانزعاج حين كانت تتلقَّى تلك الرسائل التي كان يبعث بها من المستشفى، بل بدت أشدَّ توترًا وانزعاجًا حين أتتها الرسالة الأخيرة. لا أعرف بالطبع ما قاله لها في تلك الرسائل. ربما قد سمع شيئًا عن السيد بيرجسون، وهدَّدها بالإقدام على فعلةٍ ما. بالطبع لا أستطيع الجزم بذلك. كل ما أعرفه أنها كانت شديدة التوتر والقلق. وحين رأينا في الصحيفة من أربعة أيام أن السفينة التي سيأتي على مَتنها وصلت إلى ليفربول، بدت مرتبكةً للغاية، وظلَّت حالتها تتحوَّل من سيئ إلى أسوأ حتى — حسنًا — حتى الليلة الماضية.»

سألتها قائلًا: «هل من خبرٍ عن الزوج منذ وصول السفينة؟»

فأجابت السيدة بيدينجفيلد بنظرةٍ ذات مغزًى لم أجد صعوبةً في فهمه: «كلَّا على الإطلاق، لا رسالة ولا برقية ولا كلمة، ثم إنه إذا لم يكن قد أتى على متن هذه السفينة، لكان قد بعث إليها برسالة بالتأكيد؛ لذا فلا بد أنه وصل إلى إنجلترا، لكن لماذا لم يأتِ أو يبعث ببرقية على الأقل؟ ماذا يفعل؟ ولماذا يظلُّ بعيدًا عن هنا؟ أيكون قد سمع شيئًا؟ وما الذي ينوي فعله؟ هذا ما أبقى المسكينة في غاية التوتر والقلق. وأنا متيقِّنة من أن هذا أيضًا هو ما دفعها إلى إنهاء حياتها.»

لم أكن مهتمًّا بالطعن في صحة الاستنتاجات الخاطئة التي استخلصتْها السيدة بيدينجفيلد؛ فلم أكن أبغي سوى الحصول على معلومات، وقد بدا أنني استنفدت كل ما لديها من معلومات تقريبًا. نقطةٌ واحدة فقط هي التي كانت تحتاج إلى توضيح.

فتابعت حديثي قائلًا: «لنَعُد إلى الحديث عن السيد بيرجسون يا سيدة بيدينجفيلد. لقد فهمتُ أنه يعمل على متن السُّفن والقوارب، أليس كذلك؟»

قالت: «لقد كان كذلك، لكنه استقرَّ الآن في رامسجيت حيث يعمل مديرًا لشركة في مجال تجارة الثلج، لكنه كان بحَّارًا في الماضي. لقد سمعته يقول إنه كان أحد أفراد طاقم سفينة استكشافية أبحرت بحثًا عن القطب الشمالي، وإنه ظلَّ عالقًا وسط الثلج شهورًا عديدة. كنت أظنُّ أنه سيكون قد اكتفى من الثلج بعد ذلك بالتأكيد.»

وهنا أعربتُ عن اتفاقي الشديد مع هذا الرأي. وبعدما صارت لديَّ كل المعلومات المُتاحة آنذاك على ما يبدو، شرعتُ في إنهاء المقابلة.

قلت لها: «حسنًا يا سيدة بيدينجفيلد. إنها قضيةٌ غامضةٌ بعض الشيء. ربما يتَّضح المزيد من تفاصيلها في أثناء التحقيق. وحتى ذلك الحين أظنُّ أنه من الأفضل أن تلتزمي السِّرية، وألا تُطلعي مَن ليست له علاقة بالقضية على أي تفاصيل.»

بعد ذلك، قضيتُ ما تبقَّى من الصباح أمشي بخُطًى مُسرِعة على شريطٍ مُمتد من الرمال الناعمة يقع شرق الرصيف البحري، وأفكِّر في القرائن التي جمَعتها عن هذه الجريمة الفريدة. من الجليِّ أن القضية لم تكن تفتقر إلى مفاتيح لحل اللغز، بل كان بها خطَّان واضحان يُمكن أن تسير فيهما التحقيقات؛ ذلك أن كلًّا من السويدي والزوج المفقود يتطابقان مع شخصية القاتل الافتراضي؛ إذ تعرَّض كلاهما للظروف التي من المرجَّح أن تُسبِّب قضمة الصقيع، وكان أحدهما مُعتادًا تناول الأطعمة الغنية بالجادوار على الأرجح، ويُمكن القول إنَّ كليهما لديه دافع لارتكاب الجريمة، وإن كان غير كافٍ بالتأكيد. غير أن القرائن في كلتا الحالتين تخمينية فحسب؛ فقد اقترحَت مسارًا معيَّنًا للتحقيق، لكنها لم تُقدِّم أكثر من ذلك.

حين التقيتُ فوكستون على الغداء، شعرتُ بتغيُّرٍ غريب في أسلوبه؛ إذ تبدَّل انفتاحه السابق وحلَّ محلَّه تحفظٌ ملحوظ وتكتمٌ رسمي مؤكَّد.

قال لي حين فتحتُ الموضوع: «أتعلَم يا جِرفيس؟ أظنُّ أنه من الأفضل ألَّا نتحدث عن هذه القضية؛ فأنت تعلم أنني الشاهد الرئيس، وبينما ينظر القضاء في القضية ... حسنًا، الواقع أن الشرطة لا تريد أن يتحدث أحد عن القضية.»

«لكني شاهدٌ أيضًا بالتأكيد، بل شاهدٌ خبير، وفضلًا عن ذلك ...»

«لكن الشرطة لا تُشاطرك هذا الرأي؛ فهم يرونك هاويًا بالرغم من كل شيء. ولمَّا لم تكن لك أي صلة رسمية بالقضية، فلا أظنُّ أنهم يعتزمون استدعاءك للإدلاء بالشهادة، ثم إن المُشرِف بلات، المسئول عن القضية، لم يسعد بأنني اصطحبتك إلى النُّزل؛ إذ قال إن ذلك مُخالف تمامًا للقواعد. آه، وبالمناسبة، هو يقول أيضًا إنك يجب أن تُسلِّم تلك الصور.»

فاعترضت قائلًا: «لكن ألن يطلب بلات من أحد مرءوسيه تصوير آثار الأقدام كي يستخدمها؟»

«سيفعل ذلك بالطبع. سيحصل على مجموعة من الصور اللائقة التي التقطها مُصوِّر خبير. لقد تفكَّه كثيرًا حين سمع بحكاية التقاطك للصور بتلك الكاميرا الصغيرة. آه، يُمكنك أن تثق ببلات. إنه رجلٌ قدير. لقد تلقَّى دورةً تعليمية في قِسم البصمات المركزي في لندن.»

«لا أفهم كيف سيُساعده ذلك؛ إذ لا توجد أي بصمات في هذه القضية.»

كان هذا مجرد استدراج خفيف مني، لكن فوكستون قد ابتلع مني هذا الطُّعم الذي أعددته بغير إتقان.

صاح مُتعجبًا: «وي، لا توجد بصمات؟! لقد تصادف أنك لم تجدها، لكنها كانت موجودة؛ فقد أخذ بلات بصمات يد يمنى كاملة.» ثم أضاف بحذرٍ متأخر نوعًا ما: «هذا سِريٌّ للغاية كما تعلم.»

منعني تحفُّظ فوكستون المُفاجئ من قول التعليق البديهي على إنجاز المُشرِف؛ لذا عُدتُ إلى مسألة الصور.

قلت له: «ماذا لو رفضت تسليم فيلمي الفوتوغرافي؟»

فقال لي: «لكنني آملُ ألا تفعل ذلك، وما ينبغي لك في حقيقة الأمر. إنني ذو صلة رسمية بالقضية، وأنا مُضطرٌّ إلى التعامل مع هؤلاء الأشخاص. وبصفتي طبيب الشرطة، فأنا مسئول عن الأدلة الطبية، وبلات يتوقع مني أن أحصل على هذه الصور منك. لا يُمكنك الاحتفاظ بها بالتأكيد؛ إذ سيكون ذلك مُخالفًا تمامًا للقوانين.»

لم يكن ثَمة جدوى في الجدال معه؛ فمن الواضح أن الشرطة لم تكن تريد أن أتدخَّل في القضية. وقد كان من صلاحيات المُشرِف بالرغم من كل شيء، أن يعتبرني غير ذي صلة بالقضية، ويطلب تسليم الفيلم الفوتوغرافي.

غير أنني لم أكن راغبًا في تسليم الصور، ليس قبل أن أتفحَّصها بعناية على الأقل؛ فقد كانت القضية ضِمن اختصاصي المِهني، وكانت غريبة ومُثيرة للاهتمام. وفضلًا عن ذلك، بدا أن القضية في أيدٍ غير بارعة، بِناءً على واقعة رفع بصمة اليد، ثم إن الخبرة قد علَّمتني أن أحتفظ ببقايا صغيرة من الأدلة التي أصادفها؛ فالواحد منا لا يعرف أبدًا متى قد يُدعى إلى المشاركة في قضيةٍ ما بصفته المهنية؛ ولهذا قرَّرت عدم تسليم الصور، مع أن هذا القرار قد ألزمني بحيلةٍ خادعة لم أكن أرغب إطلاقًا في استخدامها؛ إذ كنت أحبِّذ أن أتصرَّف باستقامة.

قلت له: «حسنًا، ما دُمت مُصرًّا يا فوكستون، فسأسلِّم الفيلم، أو أُتلِفه أمامك إذا أردت.»

فقال: «أظنُّ أن بلات يُفضِّل الحصول على الفيلم سليمًا.» وأضاف بابتسامةٍ خبيثة: «حينها فقط سيتيقَّن، كما تعرف.»

شكرتُ فوكستون في قرارة نفسي على تلك الابتسامة؛ إذ جعلت حيلتي الخبيثة أسهل بكثير؛ ذلك أن الرجل الشكَّاك يُغْريك بأن تتفوَّق عليه إن استطعت.

صعدت بعد الغداء إلى غرفتي، وأغلقت الباب، وأخرجت الكاميرا الصغيرة من جيبي. وبعدما أتممت لفَّ الفيلم، أخرجته ولففته بعناية ودسسته في جيب سترتي الداخلي، ثم

أدخلت فيلمًا جديدًا، وتوجَّهت ناحية النافذة المفتوحة، والتقطت أربع لقطات مُتتالية للسماء. وبعد ذلك، أغلقت الكاميرا ووضعتها سريعًا في جيبي ونزلت إلى الطابق السُّفلي. كان فوكستون في الصالة يُنظِّف قبعته بالفرشاة، وبينما كنت أنزل الدَّرَج كرَّر طلبه على الفور.

قال: «بخصوص تلك الصور يا جِرفيس، سأذهب إلى مركز الشرطة حالًا؛ لذا فإذا لم يكن لديك مانع ...»

فقلت له: «بالطبع، سأُعطيك الفيلم الآن إذا أردت.»

أخرجت الكاميرا من جيبي، ولففت الجزء المتبقِّي من الفيلم بجِدية، ثم أخرجته ولففت طرفه المتدلِّي بعنايةٍ استعراضية باهرة، وأعطيته إيَّاه.

ولكي أُحكِم نسج خيوط الحيلة تمامًا، قلت له: «من الأفضل ألا تُعرِّضه للضوء، وإلا ستصبح الصور ضبابية.»

أخذ فوكستون بكرة الفيلم كما لو كانت ساخنة — فهو لم يكن مُصوِّرًا — ودسَّها في حقيبة يده، ثم ظلَّ ينهال عليَّ بشكرٍ غزير إلى أن رنَّ جرس الباب الأمامي.

كان الزائر، الذي اتضحت هيئته حين فتح فوكستون الباب، رجلًا مُهذَّبًا قصيرًا نحيلًا ذا بشرةٍ مُكتسية بلونٍ بُنِّي ورقيٍّ مميَّز يُشير إلى أنه قد مكث طويلًا في المناطق الاستوائية. دخل إلى المنزل بسرعة، وعرَّف نفسه، وذكر سبب مجيئه بلا مقدماتٍ تمهيدية.

قال: «اسمي وُرديل، وأنا نزيل في نُزُل بيدينجفيلد. لقد أتيت بخصوص الحادث المأساوي الذي ...»

وهنا قاطعه فوكستون بأبرد نبراته الرسمية، قائلًا: «يؤسفني القول يا سيد وُرديل إنني لا أستطيع إعطاءك أي معلومات عن القضية حاليًّا.»

فأضاف السيد وُرديل: «رأيتكما أيها السيدان في النُّزل صباح اليوم ...» لكن فوكستون قاطعه مرةً أخرى.

وقال: «نعم بالطبع. كنا هناك — أو بالأحرى كنتُ هناك — بصفتي مُمثِّلًا للشرطة، وبينما تُنظَر القضية أمام القضاء ...»

فقاطعه وُرديل: «إنها لم تُصبح قيد نظر القضاء بعد.»

«حسنًا، لا أستطيع الانخراط في أي نقاش عن ذلك ...»

قال وُرديل بشيء من نفاد الصبر: «أنا لا أطلب منك ذلك، لكنني فهمت أن أحدكما هو الدكتور جِرفيس.»

فقلت له: «أنا.»

قال له فوكستون مرةً أخرى: «يجب أن أحذِّرك ...» لكن وُرديل قاطعه بحِدة ونفاد صبر، قائلًا:

«يا سيدي العزيز، أنا مُحامٍ وقاضٍ، وأدرك جيدًا ما يجوز وما لا يجوز. وما أتيت إلا لأُجري عملًا مهنيًّا مع الدكتور جِرفيس.»

فسألته: «كيف يُمكنني أن أخدمك؟»

قال السيد وُرديل: «سأخبرك. لقد كانت هذه السيدة المسكينة التي ماتت ميتةً غامضة جدًّا، زوجة رجل كان موظَّفًا مثلي لدى حكومة سيراليون. وقد كنت صديقهما، وفي ظل غياب الزوج أودُّ الاستعانة بمُحامٍ كفء لديه الدراية الخاصة اللازمة بالأدلة الطبية ليُشرِف على التحقيق في ملابسات وفاة هذه السيدة. فهل يُمكنك أنت أو زميلك، الدكتور ثورندايك، التكفُّل بمتابعة سير هذه القضية من أجلي؟»

وقد كنتُ على أتم استعداد بالطبع لتولِّي هذه القضية، وأخبرته بذلك.

فقال السيد وُرديل: «إذن، فسوف أطلب من مُحاميِّ أن يبعث إليك برسالة ويُوكِّلك لتُتابع القضية بصفةٍ رسمية. إليك بطاقتي. ستجد اسمي في سِجل «ذا كولونيال أوفيس ليست»، وأنت تعرف عنواني هنا.»

أعطاني بطاقته، وتمنَّى لنا مساءً طيِّبًا، ثم التفت بعد انحناءة جامدة بسيطة، وغادَر المنزل.

قلت حينئذٍ: «أظن أنه من الأفضل أن أذهب سريعًا إلى المدينة وأتشاور مع ثورندايك. ما مواعيد القطارات المتاحة؟»

رد فوكستون: «ثَمة قطارٌ مُناسب سيُغادر في غضون ساعة إلا ربعًا.»

«إذن، سأذهب به، لكنني سوف أعود غدًا أو بعد غد، وربما يأتي ثورندايك معي.»

«حسنًا، أحضِرْه معك إلى المنزل ليتناول الغداء أو العشاء، لكن يؤسفني القول إنني لا أستطيع أن أسمح له بالمَبيت في المنزل.»

فقلت له: «أجل، من الأفضل ألا يحدث هذا؛ فصديقك بلات لن يُحب ذلك. لن يرغب في وجود ثورندايك، بل إنه لن يرغب في وجودي أيضًا. لكن ماذا عن تلك الصور؟ سيرغب ثورندايك في رؤيتها كما تعلم.»

فقال فوكستون بعناد: «لا يُمكنه الحصول عليها، إلا إذا كان بلات مستعدًّا لإعادتها، ولا أظنُّه سيكون كذلك.»

كانت لديَّ أسبابي الخاصة التي تجعلني أعتقد العكس، غير أنني قد أسررتها في نفسي، وحين خرج فوكستون للقيام بجولته المسائية، عُدتُ إلى الطابق العُلوي لحزم حقيبتي، وكتابة برقية إلى ثورندايك أخبره فيها بذَهابي إليه.

كانت الساعة الخامسة والربع بالضبط حين دخلتُ إلى مقر عملنا وسكننا أيضًا في شارع كينجز بينش ووك، وارتاح بالي حين وجدت زميلي هناك، ومعه مُساعدنا المختبري، بولتون، يُعِد الشاي لشخصَين.

قال ثورندايك ونحن نتصافح: «أظنُّ أن أخي العلَّامة جلب معه معلوماتٍ نافعة، أليس كذلك؟»

قلت له: «بلى. لقد جلبت مذكرة مُتابعة رسمية، لكنني أظنُّ أنك ستتَّفق معي في أنها قضيةٌ تستدعي تحقيقًا مُستقلًّا.»

فتساءل بولتون، الذي كان يتشوَّق دائمًا عند سماع كلمة «تحقيق»، قائلًا: «أسيكون فيها أي شيء يدخل ضِمن نطاق عملي يا سيدي؟»

«يوجد فيلم فوتوغرافي يحتاج إلى تحميض. أربع لقطات لآثار أقدام بيضاء على أرضيةٍ داكنة.»

علَّق بولتون قائلًا: «وي! ستحتاج إلى صورٍ سالبة جيدة قوية، ويجب تكبيرها إذا كانت قد التُقطت بالكاميرا الصغيرة. هل يُمكنك أن تُعطيني الأبعاد؟»

كتبت له القياسات من دفتر ملاحظاتي، وأعطيته الورقة مع بكرة الفيلم، فأخذهما وذهب بهما مُبتهجًا إلى المختبر.

قال ثورندايك: «والآن يا جِرفيس، بينما يعمل بولتون على تحميض الفيلم، دعنا نضع مخططًا عامًّا للقضية ونحن نحتسي الشاي.»

أعطيته أكثر من مجرَّد مخطط عام؛ لأن الأحداث كانت حديثة، ولأنني كنت قد رتَّبت الحقائق بعناية في أثناء رحلتي إلى المدينة، مُستخلِصًا منها ملاحظاتٍ تقريبية، كنت أناقشها معه آنذاك. وقد أصغى إلى روايتي الطويلة بعض الشيء باهتمامه المُعتاد، دون أي تعليق، إلا على الحيلة التي نسجتها للاحتفاظ بالصور.

فقال: «من المؤسف أنك لم ترفض؛ فما كان بإمكانهم إجبارك على تنفيذ طلبهم، وأرى أنه من الأليق والأكرم أن يتجنَّب المرء الغشَّ المباشر ما لم يضطر إلى ذلك، لكنك ربما حسبتَ أنك كنت مضطرًّا إليه.»

والحق أن هذا هو ما كنت أحسبه بالفعل آنذاك، لكنني توصَّلت إلى وجهة نظر ثورندايك نفسها بعد ذلك. كنت أشعر بأن حيلتي البسيطة ستؤرِّقني قريبًا.

قال ثورندايك حين أنهيت روايتي لأحداث القضية: «حسنًا، أظنُّ أننا يُمكن أن نستنتج أن نظرية الشرطة، في الأساس، هي نفسها نظريتك المستمَدَّة من فوكستون.»

«أظنُّ ذلك، باستثناء أني علمت من فوكستون أن المُشرِف بلات قد أخذ بصماتٍ كاملةً ليدٍ يمنى.»

رفع ثورندايك حاجبَيه، وصاح مُتعجبًا: «بصمات!» ثم أضاف قائلًا: «لا بد أن هذا الرجل مُغفَّل. ومع ذلك، يبدو أن الجميع — سواءٌ الشرطة أو المُحامون أو القضاة أو حتى جالتون نفسه — يفقدون كل ما لديهم من حسٍّ منطقي سليم حالَما تُطرَح مسألة البصمات في قضية كهذه. سيكون من المُثير للاهتمام أن نعرف الكيفية التي حصل بها على هذه البصمات وماهية شكلها. علينا أن نُحاوِل معرفة ذلك. لكن لنَعُد الآن إلى حُجَّتك، فنظرًا إلى أن نظريتك ونظرية الشرطة مُتماثلتان على الأرجح، يجدر بنا أن ننظر في قيمة استدلالاتك.

إننا نتعامل مع القضية حتى الآن تعاملًا نظريًّا؛ فمعظم المعطيات الموجودة لدينا قائمة على افتراضات، ومعظم استنتاجاتنا مستمَدة من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية؛ ومن ثَم فنحن نفترض وقوع جريمة قتل، بينما قد يتبيَّن أنها واقعة انتحار. ونفترض أن مُرتكِب الجريمة هو الشخص الذي خلَّف آثار الأقدام، وأنه لا يمتلك في قدمَيه إصبعين أصغرين، بينما قد يكون لديه إصبعان أصغران مرفوعان طبيعيًّا عن الأرض؛ فلا يتركان أي أثر. وفي حالة افتراض أن إصبعيه الأصغرين غير موجودين، فنحن نفسِّر سبب عدم وجودهما بالتفكير في الأسباب المعروفة وفقًا لترتيب احتمالية حدوثها. وبعدما استثنينا مرض رينود — وهو استثناءٌ منطقي تمامًا في رأيي — وصلنا إلى قضمة الصقيع والتسمُّم الإرجوتي.

لكن يوجد شخصان، كلاهما ذو قامة تتماشى مع حجم آثار الأقدام، وربما كان لديهما دافع لارتكاب الجريمة، وإن كان غير كافٍ، وكلاهما أيضًا قد تعرَّض لظروف من المحتمَل أن تُسفِر عن قضمة الصقيع، وربما تعرَّض أحدهما لظروف قد تُسبِّب التسمم الإرجوتي؛ ومن ثَم فإن قوانين الاحتمالات تُشير إلى هذين الرجلين، وما يُرجِّح كفة توجيه الاتهام إلى السويدي وليس الكندي هو العامل المشترك، أي قضمة الصقيع، مضروبًا في العامل الإضافي، أي التسمُّم الإرجوتي، لكن كل ذلك محض تخمين حتى الآن؛ فما من دليل على أن أيًّا من الرجلين قد أُصيبَ بقضمة الصقيع أو تناول الجاودار المُصاب بالإرجوت من قبل. ومع ذلك، فهذا النهج سليم تمامًا في هذه المرحلة؛ إذ يدلُّنا على مسارٍ نتَّخذه في التحقيق.

وإذا اتضح أن أيًّا من الرجلين مُصاب بقضمة الصقيع أو التسمم الإرجوتي، فسوف نكون بذلك قد أحرزنا تقدمًا مؤكَّدًا، لكن ها هو بولتون قد أتى ومعه صورتان مطبوعتان تامَّتان. كيف أنجزت ذلك سريعًا بحقِّ السماء يا بولتون؟»

أجاب بولتون: «حسنًا، مثلما ترى يا سيدي، لقد جفَّفت الفيلم بالكحول، وقد وفَّر هذا كثيرًا من الوقت. سأُحضِر إليك نسختين مُكبَّرتين في غضون ربع ساعة.»

وبعدما أعطانا الصورتين المطبوعتين المبتلَّتين، وقد ألصق كلًّا منهما على لوحٍ زجاجي، ذهب إلى المختبر، وشرعت أنا وثورندايك في تفحُّص الصورتين كلٌّ بعدسة الجيب التي يملكها. ولم تكن النسخة المُكبَّرة التي وعدنا بها ضروريةً في الواقع إلا من أجل الحصول على القياسات النسبية؛ فقد كانت صورة آثار الأقدام البيضاء، والتي بلغ طولها بوصتَين كاملتين، واضحة بدقة، حتى إننا استطعنا رؤية أدق التفاصيل باستخدام العدسة فحسب.

علَّق ثورندايك قائلًا: «لا يوجد أي أثر للإصبعين الأصغرين بكل تأكيد، وهذا المظهر السمين الممتلئ الذي تتخذه الأصابع الأخرى يؤيِّد استبعادك لمرض رينود. أيُوحي إليك مظهر آثار القدمين بأي انطباع آخر يا جِرفيس؟»

فقلت له: «إنه يُعطيني انطباعًا بأن الرجل كان معتادًا السير حافيَ القدمين في بدايات حياته، ولم يبدأ في انتعال الأحذية إلا في وقتٍ حديث نسبيًّا؛ إذ توحي حالة الإصبع الأكبر بذلك. ويبدو أن وجود عدد من النُّدوب الصغيرة على الأصابع ومقدمة باطن القدم يؤكِّد ذلك؛ فحافي القدمين عادةً ما يُعاني جروحًا صغيرة لا تُعَد ولا تُحصى من وطئه أشياء حادَّة صغيرة.»

بدا ثورندايك غير مُقتنِع، وقال: «أتفق معك بشأن ما توحي به حالة الإصبعين الأكبرين غير المشوَّهة، لكن تلك التجاويف الصغيرة لا تُعطيني انطباعًا بأنها ندوبٌ قد نتجت بالطريقة التي اقترحتها، لكن ربما تكون مُحقًّا.»

وعندها قطع حديثَنا قرعٌ على الباب الخارجي المصنوع من خشب البلوط؛ فخرج ثورندايك إلى الردهة، وسمعته يفتح الباب. وبعد حوالَي لحظة أو اثنتين، دخل مجدَّدًا بمرافقة رجل مهذَّب قصير ذي وجهٍ بُنيٍّ عرفتُ أنه السيد وُرديل حالَما رأيته.

قال وهو يُصافحني: «لا بد أنني أتيتُ بالقطار نفسه الذي أقلَّك إلى هنا، وبخصوص المهمة نفسها تقريبًا، حسب ما أظن؛ فقد رأيت أنني أرغب في أن أرسيَ اتفاقنا على أساسٍ مهني؛ لأنني غريبٌ لكليكما.»

سأله ثورندايك: «ما الذي تريده منَّا؟»

«أريدكما أن تُتابعا القضية، وأن تتقصَّيا الحقائق تقصِّيًا مستقلًّا إذا لزم الأمر.»

«هل يُمكنك أن تُعطينا أي معلومات قد تُساعدنا؟»

فكَّر السيد وُرديل مليًّا، ثم قال بعد برهة: «لا أظنُّ أنني أستطيع؛ فأنا لا أعرف حقائق لا تعرفونها، وأي افتراضات من تخميني قد تكون مُضلِّلة. وأنا أُفضِّل أن تظل آفاق عقليكما منفتحة لكل شيء، لكن ربما يُمكننا التحدُّث بشأن الأجر.»

كان هذا صعبًا بعض الشيء بالطبع، لكن ثورندايك حاول توضيح الالتزامات المالية التي قد يتطلبها العمل ليُرضيَ السيد وُرديل.

وبينما هو ينهض للمغادرة، قال وُرديل: «ثَمة خَطبٌ آخر بسيط، وهو أن بحوزتي هنا حقيبة سفر أقرضتني إيَّاها السيدة بيدينجفيلد لأحمل فيها بعض الأشياء إلى المدينة. إنها حقيبةٌ تركها السيد ماكولي في النُّزل حين غادره. وقد اقترحت السيدة بيدينجفيلد أن أتركها في مكتبه حين أنتهي من استخدامها، لكنني لا أعرف من عنوانه سوى أنه في مكانٍ ما في حي «تمبل»، وأنا لا أريد أن ألتقي هذا الرجل إذا تصادف وكان في المدينة.»

سأله ثورندايك: «أهي فارغة؟»

فتح وُرديل الحقيبة وهو يتكلَّم، وعرض محتوياتها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة، وقال: «ليس فيها سوى رداء نوم ونعلَين مكشوفين قديمين للغاية.»

ثم أضاف: «محتوياتٌ لا يَملكها إلا زنجي، أليس كذلك؟ رداء نوم حريري وردي، ونعل مكشوف مقاسه أصغر من اللازم بمقدار ثلاث درجات.»

قال ثورندايك: «حسنًا، سأطلب من زميلي أن يعرف العنوان ويتركها هناك.»

ومع خروج السيد وُرديل، دخل بولتون حاملًا الصور المُكبَّرة التي أظهرت آثار الأقدام بحجمها الطبيعي. أعطاني ثورندايك إيَّاها. وبينما جلست لأتفحَّصها، تَبِع هو مساعده إلى المختبر، ثم عاد في غضون بضع دقائق، وبعدها فحص الصور سريعًا، وقال:

«لا يظهر فيها أي شيء آخر غير ما نفهمه بالفعل، لكنها قد تنفعنا لاحقًا؛ لذا ليس لدينا الآن سوى ما في جعبتك من حقائق لنُواصل تحرِّياتنا بناءً عليه. هل ستذهب إلى المنزل الليلة؟»

«نعم، فأنا سأعود إلى مارجيت غدًا.»

«إذن، ربما يُمكننا المشي معًا حتى محطة «تشارينج كروس»؛ لأنني يجب أن أذهب إلى سكوتلانديارد.»

وبينما كنا نتمشَّى في شارع «ستراند»، ثرثرنا في مواضيع عامة، لكن ثورندايك قد تطرَّق مجددًا إلى القضية قبل أن نفترق عند «تشارينج كروس».

قال لي: «سأنتظر أن تُخبرني بتاريخ التحقيق، ولتُحاول معرفة ماهية السم، هذا إن كان سمًّا حقًّا.»

قلت له: «لقد بدا السائل الذي تبقَّى في الزجاجة محلولًا مائيًّا من نوعٍ ما، كما ذكرت لك على ما أظن.»

قال ثورندايك: «نعم. ربما كان بقية ماء نُقِعت فيه بذور الستروفانثوس.»

سألته: «لمَ الستروفانثوس تحديدًا؟»

فسألني: «ولمَ لا؟» ثم ابتسم ابتسامةً غامضة، واستدار ومشى في شارع وايتهول.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، وجدت نفسي في مارجيت جالسًا بجوار ثورندايك في غرفةٍ مُجاورة لمبنى البلدية كان من المقرر أن يُجرى فيها التحقيق في وفاة السيدة توسان. كان قاضي التحقيق في أسباب الوفاة قد جلس على كرسيه بالفعل، وكان أعضاء هيئة المُحلِّفين على مقاعدهم، فيما جلس الشهود على مجموعة من الكراسي المتفرِّقة. وكان من بين الشهود الدكتور فوكستون، ورجلٌ غريب جالس بجواره — بدا أنه الشاهد الطبي الآخر على الأرجح — والسيدة بيدينجفيلد، والسيد وُرديل، ومُشرف الشرطة، ورجلٌ ملوَّن حسن الهندام، افترضت صوابًا أنه السيد ماكولي.

وبينما كنت جالسًا بجوار زميلي الذي بدا أشبه بأبي الهول، عاد ذهني للمرة المائة إلى التفكير في قدرته الاستثنائية على التوليف الذهني؛ فتلك الملحوظة التي ذكرها عند افتراقنا عن طبيعة السم المحتمَلة جعلتني أُدرِك في لمح البصر أن لديه نظريةً محدَّدة بالفعل عن هذه الجريمة، وأن نظريته مختلفة عن نظريتي ونظرية الشرطة. صحيحٌ أن السم قد لا يكون هو الستروفانثوس في نهاية المطاف، لكن ذلك لن يغيِّر حقيقة الموقف. لقد كوَّن نظريةً عن الجريمة، مع أنه لم يكن يعرف أي حقائق سوى تلك التي أعطيته إيَّاها؛ أي إن هذه الحقائق كانت تنطوي على إمكانية تكوين نظرية منها، في حين أنني لم أستنتج منها سوى الاحتمالات الرياضية الغامضة المجرَّدة.

كان الشاهد الأول الذي استُدعي بالطبع هو الدكتور فوكستون، والذي ذكر الملابسات التي أعرفها بالفعل، ثم أضاف أنه حضر تشريح الجثة، وأنه وجد على عنق المتوفَّاة وأطرافها كدماتٍ تُشير إلى أنها خاضت صراعًا وتعرَّضت لخنقٍ عنيف قبل وفاتها. وقال إن

السبب المباشر للوفاة هو توقُّف القلب، لكنه لم يستطع أن يجزم بما إذا كان هذا التوقُّف ناجمًا عن سكتة أم ذُعرٍ أم تأثير سُم.

وكان الشاهد التالي هو الطبيب الآخر، الذي يُدعى بريسكوت، وهو متخصِّص خبير في علم الأمراض والسموم. كان هو الذي شرَّح الجثة، وأيَّد كلام الدكتور فوكستون بخصوص سبب الوفاة؛ إذ فحص السائل المتبقِّي في القنينة المأخوذة من يد المتوفَّاة، ووجد أنه ماءٌ منقوع فيه بذور الستروفانثوس أو مستخلَص من غَلْيها. وحلَّل السائل الموجود في معدة المتوفَّاة، ووجد أنه يتكوَّن في الغالب من السائل نفسه الذي وُجِد في القنينة.

فسأله قاضي التحقيق: «هل يُستخدم الماء المنقوعة فيه بذور الستروفانثوس في الأدوية؟»

رد عليه: «لا، بل يتناوله المرضى في صورة صبغة أو في صورة الستروفانثين.»

«هل تعتقد أن الستروفانثوس سبَّب الوفاة أو أسهم فيها؟»

رد الدكتور بريسكوت: «من الصعب الجزمُ بذلك؛ فالستروفانثوس سمٌّ يُهاجم القلب، وقد كان السائل يحتوي على جرعةٍ سامَّة كبيرة جدًّا منه، لكن الجسم لم يمتصَّ منها سوى كمية ضئيلة جدًّا. والشواهد الظاهرية لا تتعارض مع الوفاة بالسكتة.»

فسأله قاضي التحقيق: «هل من المُمكن أن تكون المتوفَّاة قد انتحرت بتناول السُّم طوعًا؟»

«لا أعتقد ذلك على الإطلاق؛ فدلائل الدكتور فوكستون تُشير إلى أن القنينة قد وُضعت في يد المتوفاة بعد الوفاة على الأرجح، وهذا يتماشى تمامًا مع جُرعة السم الكبيرة التي وُضعت والكمية الضئيلة التي دخلت إلى الجسم.»

«هل ترى أن الشواهد الظاهرية تُشير إلى محاوَلة انتحار بالسم أم محاولة قتل بالسم؟»

«أرى أنها تُشير إلى محاولة قتل بالسم، لكن سبب الوفاة الرئيسي هو السكتة على الأرجح.»

كانت هذه نهاية شهادة الخبير. وقد أعقبتها شهادة السيدة بيدينجفيلد، التي لم تذكر شيئًا جديدًا لا أعرفه سوى أن صندوقًا قد فُتِح عَنوةً وسُرقت منه حقيبة أوراق صغيرة خاصة بالمتوفاة.

سألها القاضي: «هل تعرفين ما كانت المتوفَّاة تحتفظ به في هذه الحقيبة؟»

«لقد رأيتها تضع فيها رسائل زوجها؛ إذ كان لديها عددٌ كبير منها. ولا أعرف ما كانت تحتفظ به في تلك الحقيبة أيضًا، باستثناء دفتر شيكاتها بالطبع.»

«هل كان لديها رصيدٌ كبير في البنك؟»

«نعم، حسب ما أعتقد؛ إذ اعتاد زوجها إرسال معظم راتبه إلى الوطن، وعادةً ما كانت هي تُودِع هذه الأموال في البنك. ربما تمتلك في رصيدها مائتَي جنيه أو ثلاثمائة.»

وبينما أنهت السيدة بيدينجفيلد شهادتها، استُدعي السيد وُرديل، وأعقبه السيد ماكولي. كانت شهادة كليهما موجَزة، وركَّزت كلها على البلبلة التي أحدثها بيرجسون الذي كنتُ قد لاحظت غيابه عن الجلسة بالفعل.

كان الشاهد الأخير هو مُشرف الشرطة الذي كان مُتحفِّظًا تمامًا كما توقَّعت؛ إذ تحدَّث بالفعل عن آثار الأقدام، لكنه — مثله مثل فوكستون الذي أعتقد أنه كان ملزَمًا بتعليماته — لم يذكر خصائصها المميزة. ولم يقُل أيضًا أي شيء عن بصمات الأصابع. وبخصوص هوية المجرم، قال إنه يتوجَّب إجراء مزيد من التحرِّيات عنها؛ فقد ذكر أن الشكوك قد سُلِّطت في البداية على بيرجسون، لكن تبيَّن بعد ذلك أن السويدي أبحر من رامسجيت على متن سفينة جليدية قبل وقوع المأساة بيومين؛ ثم أشارت الشكوك إلى الزوج، الذي كان معروفًا أنه رسا في ليفربول قبل وفاة زوجته بأربعة أيام ثم اختفى اختفاءً غامضًا. غير أنه (أي المُشرِف) قد تلقَّى في صباح ذلك اليوم برقيةً من شرطة ليفربول تُخبِره بأن جثة توسان قد وُجِدت طافيةً في نهر ميرسي، وأنها تحمل عدة جروح تبدو ذات طابع يُرجِّح أنها ناجمة عن جريمة قتل؛ لذا فمن الواضح أنه قُتِل ثم أُلقيت جثته في النهر.

قال القاضي تعليقًا على ذلك: «هذا في غاية الفظاعة. هل تكشف هذه الجريمة الثانية أيًّا من غموض القضية التي نُحقِّق فيها؟»

أجاب الضابط دون اقتناع كبير: «أظن ذلك، لكن يُستحسَن ألا نخوض في التفاصيل.»

فاتَّفق معه القاضي قائلًا: «بالتأكيد؛ فهذا غير مُلائم إطلاقًا، لكن هل نفهم من ذلك أنك تمتلك أيَّ قرائن تُشير إلى هُوية مُرتكِب هذه الجريمة، هذا بافتراض أن جريمة قد ارتُكبت؟»

أجاب بلات: «نعم، لدينا عدة قرائن مهمة.»

«وهل تشير إلى فردٍ معيَّن؟»

تردَّد المشرف، ثم قال ببعض الحرج: «حسنًا ...» لكن المحقِّق قاطعه قائلًا:

«قد لا يكون من الحكمة أن نطرح هذا السؤال؛ إذ يجب علينا ألا نُعيق عمل الشرطة أيها السادة، وهذه المسألة ليست مهمَّة لتحقيقنا في واقع الأمر. أتُفضِّل الامتناع عن إجابة هذا السؤال أيها المشرف؟»

فجاءه الرد القاطع: «نعم يا سيدي، إذا سمحت.»

«هل قُدِّمت أي شيكات من دفتر شيكات المتوفَّاة إلى البنك؟»

«لم يحدث ذلك منذ وفاتها. لقد استفسرت في البنك صباح اليوم.»

وبهذه العبارة اختتم المُشرف شهادته. وبعدما ألقى القاضي سردًا موجَزًا ومحكَمًا لوقائع القضية، حكَمت هيئة المحلِّفين بتقييد القضية على أنها «جريمة قتل عمد ضد مجهول».

ومع انتهاء الجلسة، قام ثورندايك واستدار، ثم دُهشت حين رأيت المُشرف الشرطي ميلر التابع لإدارة التحقيقات الجنائية، والذي دخل القاعة دون أن أُلاحظه، وكان يجلس خلفنا مباشرةً.

قال مُخاطِبًا ثورندايك: «لقد اتبعت تعليماتك يا سيدي، لكنني أودُّ أن أُجري معك محادثةً قصيرة قبل أن نتَّخذ أي إجراء محدَّد.»

قادنا إلى غرفةٍ مُجاورة، وحين دخلناها تبعنا المشرف بلات والدكتور فوكستون.

قال ميلر وهو يُغلق الباب بحرص: «والآن، لقد نفَّذت اقتراحاتك أيها الطبيب. السيد ماكولي محتجَز، لكن قبل أن نعتقله رسميًّا يجب أن يكون لدينا حجة نَبني عليها قرار الاعتقال؛ لذا فأنا أسألك أن تُقدِّم دليلًا واضحًا.»

فقال ثورندايك وهو يضع على الطاولة حقيبة السفر الخضراء الصغيرة التي كانت بمثابة رفيقه الدائم: «حسنًا جدًّا.»

فعلَّق ميلر مُبتسمًا بينما كان ثورندايك يفتحها ويُخرِج منها ظرفًا كبيرًا: «لقد رأيتُ هذا الدليل من قبل. والآن، ما الذي تحمله في هذا الظرف؟»

وحينما أخرج ثورندايك من الظرف نُسَخ بولتون المُكبَّرة من صوري الصغيرة، بدَت عينا بلات جاحظتَين، فيما رمقني فوكستون بنظرة لوم سريعة.

قال ثورندايك: «هذه صور بالحجم الطبيعي لآثار قدمَي القاتل المُشتبَه به. وربما يستطيع المشرف بلات تأكيد صحتها.»

على مضض، أخرج بلات من جيبه صورتين مطبوعتين على لوحين فوتوغرافيين، ووضعهما بجوار الصور المُكبَّرة.

قال ميلر بعدما قارن بين الصور: «نعم، إنها آثار القدمين نفسها، لكنك تقول أيها الطبيب إنها آثار قدمَي ماكولي، فما دليلك على ذلك؟»

ومرةً أخرى، لجأ ثورندايك إلى الحقيبة الخضراء، وأخرج منها لوحين نحاسيَّين مُثبَّتين على لوحٍ خشبي ومُغطيَّين بحبر طباعة.

ثم قال وهو ينزع اللوحين عن إطارهما الواقي: «أقترح أن نأخذ بصمات قدمَي ماكولي ونُقارنها بالصور.»

فقال بلات: «نعم. ولدينا بصمات أصابع اليد التي أخذناها. يُمكننا أن نُقارنها ببصماته أيضًا.»

قال ميلر مُعترضًا: «لن تحتاج إلى بصمات أصابع اليد إذا كانت لديك مجموعة من بصمات أصابع القدمين.»

قال ثورندايك: «بخصوص بصمات أصابع اليد هذه، هل لي أن أسأل عمَّا إذا كانت قد رُفعت من على القنينة؟»

أقرَّ بلات قائلًا: «نعم، هذا صحيح.»

«وهل كانت توجد أي بصمات أصابع أخرى؟»

أجاب بلات: «لا. كانت هذه هي البصمات الوحيدة.»

وبينما كان يتكلم، وضع على الطاولة صورةً تُظهِر إبهام يد يمنى وبقية أصابعها.

فألقى ثورندايك نظرةً خاطفة على الصورة، والتفت إلى ميلر قائلًا:

«أظنُّ أن هذه بصمات أصابع الدكتور فوكستون.»

فصاح بلات مُتعجبًا: «مستحيل!» وسكت فجأةً بعد ذلك.

قال ثورندايك وهو يُخرِج من الحقيبة ورقةً بيضاء: «يُمكننا أن نتيقَّن من ذلك حالًا. إذا وضع الدكتور فوكستون أطراف أصابع يده اليمنى أولًا على هذا اللوح المُغطَّى بالحبر ثم وضعها على الورقة، فسنستطيع مقارنة البصمات بالصورة.»

وبالفعل، وضع فوكستون أصابعه على اللوح المغطَّى بالحبر الأسود، ثم ضغط بها على الورقة تاركًا عليها أربع بصمات سوداء واضحة وضوحًا يسرُّ الناظرين، فتفحَّصها المشرف بلات بلهفة. وبينما كان ينتقل بعينيه بين الصورة والبصمات المطبوعة على الورقة، ارتسمت على وجهه ابتسامة حرج.

ثم تَمتم قائلًا: «خُدعتُ مجددًا! إنها البصمات نفسها.»

قال له ميلر بنبرة اشمئزاز: «حسنًا، لا بد أنك مُغفَّل لأنك لم تفكر في ذلك حين عرفت أن الدكتور فوكستون قد أمسك القنينة.»

قال ثورندايك: «إنها حقيقةٌ مهمَّة بالرغم من ذلك؛ فعدم وجود أي بصمات سوى بصمات الدكتور فوكستون لا يُشير إلى أن القاتل قد اتخذ احتياطاته اللازمة وارتدى قفَّازات فحسب، بل يُثبت على وجه الخصوص أن المتوفَّاة لم تُمسك القنينة وهي على قيد

الحياة؛ فعادةً ما تكون يدا المُنتحِر رطبتين للغاية، وتتركان بصمات ظاهرة، إن لم تكن شديدة الوضوح.»

اتفق ميلر معه قائلًا: «نعم، هذا صحيح تمامًا. ولكن بخصوص آثار الأقدام، لا يُمكننا إجبار ذلك الرجل على السماح لنا بتفحُّص قدميه دون أن نعتقله أولًا. لا تتصوَّر يا دكتور ثورندايك أنني أظنُّك تنسج تخمينات من وحي خيالك؛ فأنا أعرفك منذ أمد بعيد للغاية يمنعني من أن أظن بك ذلك. لا أشكُّ في أن لديك حقائق صحيحة تمامًا، لكن يجب أن تُطلِعنا على قدرٍ كافٍ منها لتبرير إلقاء القبض عليه.»

كان ردُّ ثورندايك هو الغوص مرةً أخرى في الحقيبة الخضراء التي لا تَنضب، والتي أخرج منها شيئين ملفوفين بمنديل. وبعدما أزال المنديل، ظهر ما بدا أشبه بنموذجَي فردتَي حذاء بُنِّي شديد البِلى.

قال ثورندايك وهو يعرض «النموذجين» للمُشرف ميلر الذي نظر إليهما بابتسامةٍ واضحة: «هذان نموذجان جِصيَّان للجزء الداخلي من فردتَي خُف — قديم جدًّا وضيِّق للغاية — خاص بالسيد ماكولي. لقد كان اسمه مكتوبًا داخلهما. لقد عُولِج النموذجان بالشمع وطُلِيا بصبغةٍ ترابية بُنِّية محمرة، ثم فُركت هذه الصبغة من عليهما برفق فأبرزت النتوءات والانخفاضات. ستُلاحظ هنا أن بصمات أصابع القدم على باطنَي الخف وبصمات «مفاصل الأصابع» على الجزأين العُلويين منهما تظهر في صورة نتوءات على النموذجين؛ ومن ثَم فهذان النموذجان يُمثِّلان في واقع الأمر نسخةً تقريبية عامة من القدمين الفعليتين.

والآن، لنتحدَّث عن الأبعاد أولًا. يَبلغ الطول الأقصى في قياسات الدكتور جِرفيس لآثار الأقدام عشر بوصات وثلاثة أرباع من البوصة، ويبلغ العرض الأقصى فيها أربع بوصات وخمسة أثمان من البوصة عند رءوس مشطَي القدمين. وفي هذين النموذجين، كما ترى، يبلغ الطول الأقصى عشر بوصات وخمسة أثمان من البوصة؛ إذ يرجع فقدان هذا الثُّمن الناقص عن الطول الأصلي إلى منحنى باطن الخف، ويبلغ العرض الأقصى أربع بوصات وربعًا من البوصة؛ إذ يرجع نقص ثلاثة أثمان من البوصة عن العرض الأصلي إلى الانضغاط الجانبي في الخُف الضيق؛ أي إن التوافق بين الأبعاد مُذهِل، نظرًا إلى حجم القدم غير المعتاد. والآن، لننتقل إلى سمات القدمين المميزة.

تُلاحظ هنا أن كل إصبع في القدمين ترك بصمةً بارزة تمامًا على باطن الخف، باستثناء الإصبعين الأصغرين اللذين لم يُخلِّفا أي أثر في كلا النموذجين. وإذا نظرت إلى

الجزأين العُلويين من الخف، فستُلاحظ أن آثار مفاصل الأصابع تبدو واضحة وبارزة تمامًا، باستثناء مفصلَي الإصبعين الأصغرين أيضًا، واللذين لم يُخلِّفا أي بصمة إطلاقًا؛ ومن ثَم فهذه ليست حالة ارتفاع الإصبعين الأصغرين عن سطح الأرض؛ لأنهما كانا سيتركان نتوءًا أشد من الطبيعي على الجزء العلوي لو كانا كذلك. وإذا نظرنا إلى القدم ككلٍّ يتضح أن الإصبعين الأصغرين غير موجودين؛ لأن ثَمة فراغًا منخفضًا حيث كان يجب أن يوجد نتوء.»

قال ميلر بتردد: «امم نعم، هذا كله ممتاز جدًّا، ولكن ألا يُعَد محض تخمين؟»

اعترض ثورندايك قائلًا: «آه، كُنْ منطقيًّا يا ميلر، كل ما عليك هو أن تتأمل الحقائق. لدينا هنا قاتلٌ مُشتبَه به ومعروفٌ أن لديه قدمين ذواتَي حجمٍ غير عادي ومُصابتين بتشوهٍ نادر جدًّا، وهما قدما رجل كان يمكثُ بالفعل في النُّزل نفسه الذي كانت تسكنه القتيلة، بل وكان يسكن على بعد غرفتين فقط منها وقت وقوع الجريمة. فما القرائن التي قد تتوفَّر لديك أكثر من ذلك؟»

قال ميلر مُعترضًا: «حسنًا، تتبقَّى مسألة الدافع.»

قال ثورندايك: «هذا أمر لا يمتُّ بصلة إلى مسألة الدليل الواضح، لكن حتى إن كان متصِلًا بها، أفلا يوجد الكثير من الشواهد التي تجعلنا نشكُّ في وجود دافع لديه؟ فلتتذكَّر هوية القتيلة، ومهنة زوجها، وماهية هذا الرجل السيراليوني.»

قال ميلر بشيءٍ من التعجل، إما لأنه فهم مغزى حُجة ثورندايك (الذي لم أفهمه)، أو لأنه لم يكن راغبًا في الاعتراف بأنه لا يفهمه: «نعم، نعم، هذا صحيح. سنُدخِل الرجل ونحصل على بصمات قدميه الفعلية.»

اتجه نحو الباب، وأخرج رأسه منه وأومأ بإشارةٍ معينة، فتبعها صوتُ وطْءِ قدمَين، ودخل ماكولي الغرفة ومن ورائه شُرطيان ضخمان يرتديان ثيابًا مدنية. كان واضحًا أن الزنجي مُنزعِج؛ لأنه نظر حوله بنظراتٍ مسعورة كأنه حيوان قد وقَع في شِراك الصيد، غير أن سلوكه كان عدوانيًّا وشرسًا.

سأل بصوتٍ عميق فيه طنين لا يصدُر إلا عن زنجي: «لماذا تحتجزونني بهذه الطريقة الوقحة؟»

قال ميلر: «نريد أن نُلقيَ نظرةً على قدمَيك أيها السيد ماكولي، فهلَّا تتفضَّل بخلع حذائك وجوربَيك؟»

صاح ماكولي مُدويًّا: «لا، لن أفعل ذلك إلا على جثَّتك!»

قال ميلر: «إذن، فأنا أُلقي القبض عليك بتُهمة قتل ...»

تلاشَت بقية الجملة وسط ضجيج مُفاجئ؛ ذلك أن الزنجي الطويل القوي، والذي كان يخور كثورٍ هائج، قد استلَّ سكينًا كبيرًا غريب الشكل، واندفع بغضبٍ نحو المُشرف، لكن الرجلين ذوَي الثياب المدنية كانا يُراقبانه من الخلف، فانقضَّا عليه وأمسك كلٌّ منهما إحدى ذراعَيه. وبعد صوت صلصلة معدنية حادَّة قد صدر لمرتَين مُتتاليتَين، واصطدامٍ مُدوٍّ وصراخٍ يصمُّ الآذان، صار الرجل الهمجي القوي راقدًا على الأرض، بينما كان أحد الشرطيَّين يجلس فوق صدره، والآخر فوق ركبتَيه.

قال ميلر: «والآن حانت فرصتك أيها الطبيب، سأخلع حذاءه وجوربَيه.»

وبينما أعاد ثورندايك تحبير لوحيه، خلع ميلر والمُشرف المحلِّي الحذاء الجلدي اللامع والجوربَين الحريريَّين الأخضرين ببراعةٍ من قدمَي الزنجي الذي كان يتلوَّى ويخور كالثور، ثم ضغط ثورندايك اللوحين المُحبَّرين بسرعة وبراعة على باطنَي القدمين — اللتين كنتُ قد ثبَّتُّهما لهذا الغرض — قبل أن يضغط الورقة البيضاء بإتقان على إحداهما، ثم نزعها عنها بعدما طُبعت عليها البصمة، وضغط ورقةً أخرى على باطن القدم الأخرى. وبالرغم من الصعوبات التي شكَّلتها مُقاوَمة ماكولي، أظهرت كلتا الورقتين بصمةً واضحة وحادَّة تمامًا لباطن القدم، حتى إن أنماط نتوءات الأصابع ومقدمة باطن القدم كانت شديدة الوضوح. وضع ثورندايك كلا البصمتين الجديدتين على الطاولة بجانب الصور الكبيرة المُناظِرة لها، ودعا المُشرفَين إلى المقارنة بينهما.

قال ميلر: «نعم، صحيح.» فيما أومأ المُشرف بلات بالموافقة قائلًا: «لا يوجد أدنى شك. البصمات المأخوذة بالحبر مُتطابقة مع البصمات الظاهرة في الصور في كل خط وعلامة من علامات الجلد. لقد أثبتَّ حُجَّتك أيها الطبيب، كدأبك دائمًا.»

قال لي ثورندايك بينما كنا نُدخِّن غليونَينا المسائيين على الرصيف البحري الحجري القديم: «إذن، لقد كانت طريقتك سليمةً تمامًا، لكن كل ما هنالك أنك لم تُطبقها كما ينبغي؛ فمثل الكثير من علماء الرياضيات، بدأتَ في إجراء حساباتك قبل أن تحصُل على البيانات كاملة. ولئن كنتَ قد طبَّقت قوانين الاحتمالات البسيطة على البيانات الحقيقية، لأشارت مباشرةً إلى ماكولي.»

فسألته: «كيف افترضتَّ أنه فقد إصبعيه الأصغرين؟»

«أنا لا أفترض إطلاقًا. كان من الجلي أنها حالة آينوم (انحلال الأصابع التلقائي) واضحة في كلتا القدمين.»

صِحتُ بينما لمع وميض التذكُّر المُفاجئ في ذهني: «آينوم!»

«نعم، هذا ما غفلتَ عنه. لقد قارنتَ بين احتمالات الإصابة بثلاثة أمراض لا يُسبِّب أيٌّ منها فقدان ولو إصبعٍ أصغر واحد إلا نادرًا، ولا يُسبِّب فقدان كليهما إلا في أندر الأحوال، ولا يقتصر أيٌّ منها على فئة معيَّنة من البشر، بينما تجاهلتَ مرض آينوم الذي يُهاجم الإصبع الأصغر فقط تقريبًا، ويُسبِّب انحلاله، وغالبًا ما يَفتك بكلا الإصبعين الأصغرين، فضلًا عن أن ظهوره ينحصر في سُلالات ذوي البشرة السوداء. صحيحٌ أن الآينوم غير معروف في المجال الطبي في أوروبا، لكنه شائع جدًّا في أفريقيا، وأقل شيوعًا في الهند.

إنك إذا جمعتَ كل رجال العالم الذين فقدوا إصبعيهم الأصغرين، فستجد أن أكثر من تسعة أعشارهم مُصاب بالآينوم؛ ومن ثَم فوفقًا لقوانين الاحتمالات كان من المحتمَل بنسبة تسعة إلى واحد أن آثار الأقدام التي وجدتها كانت خاصة برجلٍ مُصاب بالآينوم، وبالتبعية رجلٍ أسود البشرة. وحالَما تسلِّم بأن القاتل المرجَّح رجلٌ أسود البشرة، تنفتح أمامك جعبةٌ جديدة من الأدلة المؤيِّدة؛ إذ كان يوجد رجلٌ أسود في مكان وقوع الجريمة. وهذا الرجل كان مُواطنًا من سيراليون، ومن شِبه المؤكَّد أنه كان رجلًا ذا شأن هناك. غير أن زوج الضحية كان لديه أعداء مُهلِكون في عصاباتٍ سِرية محلية في سيراليون، وربما كانت الرسائل التي بعث بها الزوج إلى زوجته تحوي مضمونًا يُجرِّم مُواطنين سيراليونين مُحدَّدين. وهكذا قد أصبحت الأدلة تراكمية كما ترى. وعند النظر إليها ككلٍّ فإنها تشير بكل وضوح إلى ماكولي، هذا بخلاف الحقيقة الجديدة المتمثِّلة في مَقتل توسان في مدينة ليفربول، والتي يقطنها عددٌ كبير من السكان المتنقِّلين الوافدين من غرب أفريقيا.»

«وأحسب أنك قد قرَّرتَ أن ماكولي هو القاتل حالَما أعطيتك مخطَّطًا عامًّا للقضية؛ إذ أشرت إلى سم الستروفانثوس الأفريقي، أليس كذلك؟»

«بلى، لا سيما حين رأيتُ صور آثار الأقدام التي التقطتَها بلا إصبعين أصغرين، وتظهر فيها على بقية الأصابع تلك الندبات المُميَّزة الناجمة عن لدغات البق، غير أن الحظ وحده هو ما مكَّنني من وضع القطعة الرئيسية في مكانها داخل الأحجية، وتحويل ما هو محض احتمال إلى حقيقةٍ شبه مؤكَّدة؛ لذا كنتُ سأُعانق الساحر وُرديل حين أحضر لنا الخُف السِّحري. غير أن هذا لم يُصبِح يقينًا مُطلقًا حتى الآن، وإن كنت أتوقَّع أنه سيصير هكذا غدًا.»

وقد كان ثورندايك مُحقًّا. ففي المساء نفسه، داهمت الشرطة مكتب ماكولي في مبنى «تانفيلد كورت»، حيث عثرت على حقيبة الأوراق الصغيرة الخاصة بالقتيلة. كانت رسائل توسان إلى زوجته ما تزال موجودة في الحقيبة، وقد ورد في إحداها أسماء العديد من الرجال السيراليونيين البارزين، بصفتهم أعضاءً في عصابةٍ سِرية خطرة، وكان من بينهم المتهَم ديفيد ماكولي.

الفصل الثاني

الجعران الأزرق

يهتمُّ الطب الشرعي عمومًا بالجرائم التي تُرتكب ضد الأشخاص، والتي غالبًا ما تكون تفاصيلها قذرةً شنيعة بغيضة؛ ولهذا كانت قضية «الجعران الأزرق» الغريبة الرومانسية بمثابة مُتنفَّس بعضَ الشيء، وإن كانت تقع خارج مجال تخصُّصنا في حقيقة الأمر، غير أنَّ ما أثار اهتمامي بها بصفةٍ أساسية هو أنها قد أوضحت اثنتين من المواهب الفذَّة التي جعلت من صديقي ثورندايك مُحقِّقًا فريدًا من نوعه، وهما قدرته الخارقة على اكتشاف الحقيقة الأساسية الوحيدة في لمح البصر، ومقدرته على إخراج مخزون لا يَنضب من المعرفة غير المتوقَّعة بأغرب الموضوعات، عند الحاجة.

كنا في وقتٍ متأخر من فترة العصر حين وصل السيد جيمس بلوجريف، وفقًا لموعده، إلى مقر مكتبنا بمرافقة ابنته، والتي كانت فتاةً في غاية الجمال تبلغ من العمر حوالَي اثنين وعشرين عامًا. وبعد أن تبادلنا التعريف بأنفسنا، بدأت الاستشارة بلا مقدمات.

قال السيد بلوجريف: «لم أذكر أيَّ تفاصيل في رسالتي إليكم؛ إذ ظننت أن ذلك من الأفضل خشية أن ترفضا القضية. صحيحٌ أنها قضية سرقة، لكنها ليست سرقةً عادية على الإطلاق؛ إذ إنها تنطوي على شواهد غير عادية وغامضة بعض الشيء. ولأن الشرطة ليس لديها سوى أمل ضئيل جدًّا في حل القضية، فقد جئت لأطلب مشورتكما بشأنها، والتحقيق فيها لحسابي إن أمكن، لكن أولًا من الأفضل أن أُخبركما بوقائع القضية.

وقعت السرقة منذ أسبوعين بالضبط، في حوالَي التاسعة والنصف مساءً. كنت جالسًا في غرفة المكتب مع ابنتي نتفحَّص بعض الأشياء التي أخرجتها من صندوق مستندات معدني صغير، حين اندفع خادم إلى داخل الغرفة ليُخبرنا بأن أحد المباني الخارجية المُلحَقة بالبيت يحترق. جديرٌ بالذِّكر هنا أن مكتبي يُطِل على الحديقة الخلفية عبر نافذة

فرنسية. ولأن المبنى الخارجي كان في مرج على جانب الحديقة، خرجت إلى الحديقة عبر تلك النافذة، تاركًا إياها مفتوحة، لكنني أعدت الأشياء في عُجالة إلى الصندوق المعدني وأقفلته قبل أن أخرج.

كان المبنى — الذي كنت أستخدم جزءًا منه مخزنًا للخشب المنشور والجزء الآخر منه ورشةً لصنعها — مُشتعلًا على بَكرة أبيه، وكان أهل البيت كلهم في مكان الحريق؛ إذ كان الصبي يُشغِّل مضخَّة الماء، فيما كانت الخادمتان تحملان الدِّلاء وتُلقيان المياه على النيران؛ فانضممت أنا وابنتي إليهم، وساعدنا في حمل الدِّلاء وإخراج ما استطعنا إدراكه من الأشياء من المبنى المشتعل. استغرق منا الانتهاء من إخماد الحريق نصف ساعة تقريبًا، ثم ذهبت أنا وابنتي إلى غرفتَينا لنغتسل ونُهندِم أنفسنا. عُدنا إلى غرفة المكتب معًا، وحين أغلقت النافذة الفرنسية اقترحَت ابنتي أن نستكمل عملنا الذي قاطَعه الحريق، وعندئذٍ أخرجت من جيبي مفتاح الصندوق المعدني، والتفتُّ نحو الخِزانة التي كان الصندوق موضوعًا عليها.

غير أنه لم يكن موجودًا هناك.

ظننت لوهلةٍ أنني قد نقلته ولا بد إلى مكانٍ آخر، فطُفتُ أرجاء الغرفة بعينيَّ بحثًا عنه، غير أني لم أرَه في أي مكان، وفكَّرت لحظةً فتذكَّرت أنني تركته في مكانه المُعتاد؛ لذا فقد كان الاستنتاج المحتمل الوحيد هو أن شخصًا ما قد دخل ولا بد عبر النافذة، مُستغلًّا غيابنا وانشغالنا بإطفاء الحريق، وبدا كما لو أن شخصًا ما قد أضرم النيران عمدًا في المبنى الخارجي من أجل غاية واضحة، وهي أن يستدرجنا جميعًا إلى خارج البيت.»

اتفق معه ثورندايك قائلًا: «هذا ما تُشير إليه الشواهد الظاهرية. هل نافذة غرفة المكتب مزوَّدة بشيش حصيرة أم ستارة؟»

أجاب بلوجريف: «ستارة، لكنها لم تكن مُسدَلة على النافذة؛ لذا فقد كان من الممكن لأي شخص في الحديقة أن يرى ما بداخل الغرفة، وبإمكان أي شخص خفيف الحركة قادر على تسلُّق جدار مُنخفِض أن يصل إلى الحديقة بسهولة.»

قال ثورندايك: «إذن، فحتى الآن قد تكون السرقة من تنفيذِ مُتسلِّلٍ عابرٍ دخل الحديقة وراقَبك من خلال النافذة، وافترض أن الأشياء التي أخرجتها من الصندوق ثمينةٌ قيِّمة، فانتهز فرصةً سهلة ليسرقها ويهرب بها. هل كانت الأشياء ذات قيمة كبيرة؟»

«لم تكن ذات أي قيمة على الإطلاق لأي لص؛ فكل ما كان هناك هو عددٌ من شهادات ملكية الأسهُم، وعقد إيجار، وميثاق أو اثنان، وبعض الصور العائلية، وعلبةٌ صغيرة بها رسالةٌ قديمة وجعران. لا شيء فيها يستحق السرقة كما ترى؛ لأن الشهادات كانت مُبرَمة بِاسمي؛ ولذا لم تكن قابلة للتداول.»

«والجعران؟»

«ربما كان سيبدو مصنوعًا من اللازورد، لكن الأرجح أنه جعرانٌ مُقلَّد مصنوع من الزجاج الأزرق. لم يكن ذا قيمة كبيرة على أي حال؛ فطوله حوالَي بوصة ونصف بوصة. بالرغم من ذلك، فمن الأفضل أن أُنهي القصة قبل أن تستخلص أي استنتاجات. لقد وقعت السرقة يوم الثلاثاء المُوافِق للسابع من يونيو، وقدَّمتُ للشرطة المعلومات اللازمة وأوصاف المُمتلكات المفقودة، غير أن شيئًا لم يحدث حتى يوم الأربعاء المُوافِق للخامس عشر من الشهر، حين تلقَّيت طردًا مُسجَّلًا يحمل طابع ساوثهامبتون البريدي. وما أدهشني أنني حين فتحته وجدت محتويات الصندوق المفقودة بأكملها عدا الجعران، وهذه الرسالة التي يكتنفها بعض الغموض.»

أخرَج من جيبه ظرفًا عاديًّا قد كُتِب عليه العنوان بالآلة الكاتبة، ومُهِر بختمٍ بيضاوي كبير نُقِشت عليه كتابةٌ هيروغليفية بالغة الصِّغر، وسلَّمه إلى ثورندايك.

قال ثورندايك: «أظنُّ أن هذه بصمة الجعران، وهي بصمةٌ دقيقة جدًّا بالمناسبة.»

رد بلوجريف قائلًا: «أجل، لا أشكُّ في أنه الجعران؛ فهو بالحجم نفسه تقريبًا.»

وسريعًا نظر ثورندايك إلى عميلنا بتعبير من الدهشة، ثم سأله: «لكن، ألا تعرف الكتابة الهيروغليفية المنقوشة عليه؟»

فابتسم بلوجريف بشيء من الحرج، وقال: «الحقيقة أنني لا أفقه أي شيء عن الكتابة الهيروغليفية، لكنِّي أرى أنها تبدو الكتابة نفسها، على حدِّ اعتقادي. ما رأيكِ يا نيلِّي؟»

نظرت الآنسة بلوجريف إلى الختم في حيرة، وأجابت: «الأمر نفسه ينطبق عليَّ؛ فأنا أرى الهيروغليفية محض رموز غريبة لا تعني شيئًا، غير أن هذه النقوش تبدو لي مطابِقةً للنقوش المكتوبة على جعراننا، وإن كنتُ أتوقَّع أن أي نقوش هيروغليفية أخرى سينطبق عليها الأمر نفسه أيضًا.»

لم يُعلِّق ثورندايك على هذا الرد، لكنه فحص الختم بتمعُّن من خلال عدسته، ثم أخرج محتويات الظرف التي تمثَّلت في رسالتَين؛ إحداهما مكتوبة بالآلة الكاتبة، والأخرى

مكتوبة بخطٍّ يدوي بُنِّي باهت. قرأ ثورندايك الرسالة الأولى سريعًا، ثم تفحَّص الورقة من كثب رافعًا إياها نحو الضوء ليرى العلامة المائية.

قال وهو يُعطيني الورقة: «يبدو أن الورقة بلجيكية الصُّنع.» فأكَّدتُ هذه الملاحظة، ثم قرأت الرسالة التي كانت موجَّهة إلى عنوان في «ساوثهامبتون»، وجاء فيها ما يأتي:

صديقي القديم العزيز

أُعيدُ إليك بعض الأشياء التافهة التي أُخذت بالخطأ. الوثائق القديمة مُرفَقة بهذا الطرد، لكن التُّحفة قد صارت الآن في عهدة عمي المُبجَّل. أتمنَّى ألا يُضايقك فقدانها المؤقَّت، وأن أستطيع إعادتها إليك لاحقًا. وحتى يحين ذلك الوقت، إليك صادق مودتي.

المُحِب لك دومًا،

رودولفو

فسألت قائلًا: «ومَن رودولفو؟»

أجاب السيد بلوجريف: «الرب وحده يعلم. أظنُّه اسمًا مُستعارًا لصديقنا الغائب. يبدو أنه شخصٌ هزلي.»

اتَّفق معه ثورندايك قائلًا: «هذا صحيح؛ فهذه الرسالة وهذا الختم شبيهان بما يُسميه التلاميذ خدعةً فكاهية، غير أن هذا كله طبيعيٌّ تمامًا. لقد أعاد إليك الأشياء العديمة القيمة، واحتفظ بالشيء الوحيد الذي قد يكون قيِّمًا ويُمكن تداوله. هل أنت مُتيقِّن تمامًا من أن الجعران ليس أغلى قيمةً ممَّا تظن؟»

قال السيد بلوجريف: «حسنًا، لقد أخذت رأيَ خبيرٍ متخصِّص بشأنه؛ فقد عرضته على السيد فوكيه، عالِم المصريات الفرنسي، حين جاء إلى هنا من بروكسل منذ بضعة أشهر، وقال إنه جعران مُقلَّد عديم القيمة. ليس ذلك فحسب، بل قال أيضًا إن الكتابة المنقوشة عليه مُصطنَعة أيضًا؛ فهي محض رموز هيروغليفية مجتمعة معًا دون معنًى أو مغزًى.»

قال ثورندايك وهو يُلقِي نظرةً أخرى على الختم من خلال عدسته: «إذن، يبدو أن رودولفو، أو عمَّ رودولفو، قد حاز على صفقةٍ خاسرة. وهذا لا يفسِّر كثيرًا من الأمر.»

حينئذٍ تدخَّلت الآنسة بلوجريف وقالت: «أظنُّ يا أبي أنك لم تُعطِ الدكتور ثورندايك كل الحقائق المتعلِّقة بالجعران، ويجب أن تُخبره عن علاقة الجعران بالعمِّ روبن.»

وبينما كانت الفتاة تتحدَّث، نظر إليها ثورندايك نظرةً فضولية تنمُّ عن اهتمام قد تيقَّظ فيه فجأةً. فهمتُ مَغزى تلك النظرة لاحقًا، غير أنني لم أجد في كلامها ما يلفتُ انتباهي آنذاك.

قال السيد بلوجريف باستنكار: «هذا مجرَّد تراث عائلي، ربما يكون كل هذا محض هراء.»

قال ثورندايك: «حسنًا، دعنا نعرفه على أي حال؛ فربما نستوضح منه شيئًا.»

وتحت وَقْع هذا الإلحاح، تلعثم السيد بلوجريف بقليل من الخجل، وقال:

«تتعلَّق القصة بجَدِّ والدي، سيلاس بلوجريف، وأفعاله في أثناء الحرب ضد فرنسا؛ إذ يبدو أنه كان يقود سفينة قرصنة كان يملكها مع شقيقه روبن، وأنهما حصلا على مجموعة من الجواهر الرائعة النفيسة جدًّا في آخر رحلاتهما البحرية. لا أحد يدري كيف حصلا عليها، لكني أظنُّ أنهما لم يحصلا عليها بنزاهة؛ إذ كانا يبدوان نذلَين للغاية. ذُكِرت أقاويل عن أنها سُرِقت من كنيسة أو كاتدرائية في أمريكا الجنوبية، دون معلومات مؤكَّدة عن الأمر. ولا توجد أي وثائق أو مستندات، بل مجرد تراث شفهي غامض سطحي جدًّا. تقول القصة إنهما حين باعا السفينة، نزلا للعيش في ضيعة «شوستيد» بمقاطعة «هيردفوردشاير»، حيث سكن سيلاس بيت صاحب الضيعة — الذي أعيش فيه حاليًّا — وسكن روبن في مزرعةٍ مُجاورة. تقاسما جُل الغنيمة المنهوبة في نهاية رحلتهما البحرية، لكنهما أبقيا الجواهر على حدة ليتصرَّفا فيها لاحقًا، ربما حين تُنسى ظروف حصولهما عليها، غير أن كليهما كان مُدمنًا للعب القمار، ويبدو — وَفق شهادة خادمة روبن التي سمعتهما بالصدفة — أنهما، في إحدى الليالي التي كانا يَلعبان فيها القمار بانهماكٍ شديد، قرَّرا إنهاء اللعب بالمُراهنة على الجواهر كلها دفعةً واحدة. وشُوهِد سيلاس، الذي كان يحتفظ بالجواهر عنده، وهو يذهب إلى بيت صاحب الضيعة ويعود إلى بيت روبن وهو يحمل صندوقًا حديديًّا صغيرًا.

ومن الواضح أنهما لعبا في وقتٍ متأخر من الليل، بعدما خلد الجميع إلى النوم عدا الخادمة، وقد كان الحظ حليف روبن، وإن كان قد قدَّم للحظ بعض المساعدة كما يبدو على الأرجح. على أي حال، حين انتهى اللعب وأخذ روبن الصندوق، اتَّهمه سيلاس بالغش، ويمكننا أن نُسلِّم بوقوعِ شجارٍ حادٍّ للغاية حينئذٍ، غير أن أحدًا لا يعرف ما حدث

بالضبط؛ فحين بدأ الشجار صرف روبن الخادمة التي تركتهما وذهبت إلى غرفة نومها التي تقع في جزءٍ بعيد من البيت، وفي الصباح اتَّضح اختفاء روبن وصندوق الجواهر، واكتُشفت أيضًا آثار دماء واضحة في الغرفة التي لعب فيها الرجلان. زعم سيلاس أنه لا يعرف شيئًا عن اختفائهما، غير أن شكوكًا قوية — ربما تكون صائبة — قد ظهرت بشأن قتله لأخيه وهروبه بالجواهر. وكانت النتيجة أن سيلاس قد اختفى هو أيضًا، وظلَّ على مدار فترة طويلة لا يعرف مكانَه أحد، حتى زوجته.

اتَّضح لاحقًا أنه استقرَّ في مصر باسمٍ مُستعار، وأنه صار شَغِفًا بعلم المصريات الذي كان حديثًا آنذاك؛ إذ كانت رموز حجر رشيد قد فُكَّت قبل ذلك الحين ببضع سنوات فقط. استكمل التواصل مع زوجته بعد فترة، لكنه لم يذكر أي شيء عن اختفاء أخيه. وقبل وفاته ببضعة أشهر زار منزله متخفِّيًا، وأعطى زوجته طردًا صغيرًا مُغلقًا، وأوصى بتسليمه إلى ابنه الوحيد، ويليام، عند بلوغه الحادية والعشرين من عمره. وكان ذلك الطرد يحوي الجعران والرسالة التي أخذتَها من الظرف.»

سأله ثورندايك: «هل لي أن أقرأها؟»

ردَّ عليه بلوجريف: «بالتأكيد، إذا كنتَ تظنُّ أنها تستحق وقتك.» فتح ثورندايك الورقة الصفراء، ونظر إلى الكتابة البُنِّية الباهتة، وقرأ مُحتواها بصوتٍ عالٍ، قائلًا:

القاهرة، ٤ مارس ١٨٣٣

ابني العزيز

أبعثُ إليك بهديةٍ أخيرة هي جعرانٌ نفيس وبضع وصايا أدعوك إلى التأمل فيها. صدِّقني حين أقول لك إن معارف مصر القديمة تنطوي على قدرٍ كبير من الحكمة. حُزْها لنفسك. صُنِ الجعران كإرثٍ ثمين. تأمَّلْه كثيرًا، لكن لا تُرِ أحدًا إياه. ادفن عمَّك روبن دفنةً مسيحية. هذا واجبك، وستُكافأ عليه. لقد سرق أباك، لكنه سيعوِّض عن ذلك.

وداعًا!

أبوك المُحِب،

سيلاس بلوجريف

وبينما وضع ثورندايك الرسالة من يده، نظر مُستفهمًا إلى عميلنا.

وقال: «حسنًا، لدينا هنا بعض التعليمات الواضحة، فكيف نُفِّذت؟»

أجاب السيد بلوجريف: «لم تُنفَّذ إطلاقًا؛ فابنه ويليام، أي جدِّي، لم يكن راغبًا في التدخل في الأمر؛ إذ بدا ذلك اعترافًا صريحًا بأن سيلاس قد قتل أخاه وأخفى الجثة، وويليام لم يرغب في إعادة فتح هذه الفضيحة. وفوق ذلك، فالتعليمات ليست واضحةً جدًّا؛ فمن السهل للغاية أن تقول: «ادفن عمَّك روبن دفنةً مسيحية.» لكن أين هو العم روبن بحقِّ السماء؟»

قال ثورندايك: «إن الرسالة تُلمِّح بوضوح إلى أن أيًّا مَن يدفن الجثة دفنةً مسيحية سيَستفيد، ويبدو أن كلمة «تعويض» تُشير إلى مفتاح لغز مكان الجواهر. ألم يخطر ببالِ أحدٍ أن التوصل إلى مكان حفظ الجثة يستحق العناء؟»

تساءل بلوجريف: «وأنَّى لهم أن يفعلوا ذلك؟ فهو لا يَذكُر أي إشارة، بل يتحدَّث كأن ابنه يعرف مكان الجثة. وحتى لو افترضنا أن سيلاس لم يأخذ الجواهر معه، فسوف يَبقى السؤال عمَّن كان يملكها في الأصل؛ فمن شِبه المؤكَّد أنها كانت ممتلكاتٍ مسروقةً من بادئ الأمر، وإن كان مصدرها مجهولًا. ومن الواضح أن روبن قد أخذها من سيلاس بالاحتيال، واستردَّها سيلاس منه بالسرقة والقتل؛ ومن ثَم لو كان ويليام قد عثر عليها، لكان سيضطرُّ إلى تسليمها إلى أبناء روبن، غير أنها لم تكن من ممتلكات روبن على وجه التحديد؛ لذا لا يُمكِن لأحدٍ أن يدَّعي أحقيةً أكيدةً غير قابلة للنكران بامتلاكها، حتى إن كان بإمكانه العثور عليها.»

قالت الآنسة بلوجريف: «لكن الوضع قد تغيَّر الآن.»

قال السيد بلوجريف ردًّا على نظرة ثورندايك الاستفهامية: «أجل، لقد تغيَّر الوضع، وأصبح الآن في تمام الوضوح. لقد تُوفِّي مؤخرًا حفيد روبن، ابن عمِّي آرثر، ولمَّا لم يكن لديه أبناء فقد وزَّع تركته. ترك البيت القديم ذا المزرعة والجزء الأكبر من مُمتلكاته لأحد أبناء أخيه، لكنه ورَّث ابنتي جزءًا صغيرًا، وأوصى بنقل ما تبقَّى من التركة إليها؛ ومن ثَم فأيُّ ما كان لروبن من حقوق في الجواهر فقد صارت مِلكها الآن، وعند وفاتي ستكون وريثةَ سيلاس أيضًا.» ثم أضاف: «في الواقع، كنا نُناقش هذه المسألة تحديدًا ليلة السرقة. وبوسعي أن أُخبرك أيضًا بأن ابنتي ستُترَك بلا أي أملاك أو أموال عند وفاتي؛ فأراضينا عليها رهنٌ عقاري باهظ، وليس لدينا سوى رأس مال زهيد للغاية. كانت جواهر العم

روبن ستضمن بقاء البيت القديم لها لو كنا قد استطعنا وضع أيادينا عليها. على أي حال، يجب ألا أشغل وقتك بشئوننا العائلية.»

قال ثورندايك: «شئونكم العائلية ليست عديمة الصلة تمامًا بموضوعنا، لكن ما الذي تريده منِّي في هذه القضية؟»

قال بلوجريف: «حسنًا، لقد سُرِق منزلي وأُضرمت النيران في مبناي المُلحَق الخارجي، ومن الواضح أن الشرطة لا تستطيع فِعل أي شيء؛ فهي تقول إنه لا يوجد دليل إطلاقًا إلا إذا كان السارق واحدًا من أهل البيت، وهذا غير معقول؛ نظرًا إلى أن الخدم كلهم كانوا مُنهمِكين في إطفاء الحريق، لكنِّي أريد معرفة السارق ومُعاقبته، وأريد استعادة الجعران. ربما يكون بلا قيمة في حد ذاته، كما قال السيد فوكيه، لكن يبدو أن وصية سيلاس تُشير إلى أنه يحمل بعض القيمة. على أي حال، إنه إرثٌ عائلي، وأكره فقدانه. قد يبدو من الوقاحة أن أطلب منك التحقيق في قضية سرقة تافهة، لكنني سأعتبره لطفًا كبيرًا منك أن تُوافِق على التحقيق فيها.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «صحيحٌ أن قضايا السرقة الخالصة البسيطة غريبةٌ بعض الشيء عن ممارستي الاعتيادية، لكن هذه القضية تنطوي على بعض السمات الغريبة التي يبدو أنها تجعل التحقيق فيها يستحق العناء. أنا مُوافقٌ يا سيد بلوجريف، سأحقِّق في القضية، ولديَّ بصيصٌ من الأمل في أننا قد نتوصَّل إلى السارق، بالرغم من الافتقار الواضح إلى مفاتيح حل اللغز. سأطلب منك أن تترك هاتين الرسالتين معي لأتفحَّصهما بمزيدٍ من الدقة، وسأحتاج إلى فحص المبنى المُحترق على الأرجح ربما غدًا.»

قال بلوجريف: «تفضَّل بالمجيء متى شئت. تُسعدني موافقتك على التحقيق في القضية. لقد سمعت الكثير عنك من صديقي ستوكر، الذي يعمل في شركة «جريفين لايف أشُورانس» للتأمين، وكان قد وكَّلك عدَّة مرات.»

قال ثورندايك: «قبل أن تُغادر، تتبقَّى نقطةٌ واحدة يجب توضيحها. مَن سواكما يعرف بوجود الجعران وهذه الرسالة والحكاية القديمة المتعلقة بهما؟»

أجاب بلوجريف: «لا أستطيع الجزمَ بذلك في حقيقة الأمر. لم يرَهما أحدٌ سوى ابن عمي آرثر. لقد أريته إياهما ذات مرة، وربما يكون قد تحدَّث عنهما أمام العائلة. لم أكن أعتبر الأمر سرًّا.»

غادَر زائرانا، وجلسنا نُناقش جوانب القضية.

قلت لثورندايك: «إنها قصةٌ رومانسية جدًّا، والسرقة تنطوي على نقاطٍ مُثيرة للاهتمام، لكني أميل إلى الاتفاق مع رأي الشرطة في عدم وجود سوى خيوط قليلة للغاية يُمكِن الانطلاق منها.»

قال ثورندايك: «كانت لتُصبِح أقل لو لم يكن صاحبُنا المُغامِر مُختالًا بنفسه؛ فتلك الرسالة المكتوبة بالآلة الكاتبة نموذجٌ للوقاحة غير المسوَّغة. لقد بالَغ رجُلنا في الاعتقاد بأنه آمنٌ من العقوبة، وتبجَّح بصخبٍ مُبالَغ فيه.»

قلت له: «ومع ذلك، فلستُ أرى أن هناك الكثير مما يُمكِن أن نَجنيه من هذه الرسالة.»

قال مُتعجِّبًا: «يؤسفني سماع هذا منك يا جِرفيس؛ فقد كنت أعتزم إعطاءك الرسالة لتتفحَّصها وتُبلغني بتقرير عنها.»

قلت على عجَل: «كنتُ أقصد الشواهد الظاهرية ليس غير. لا شكَّ أن الفحص التفصيلي سيكشف لنا عن أمورٍ أهم.»

قال: «أنا مُتيقِّن من ذلك، ونظرًا لوجود أسباب تدفعنا إلى الشروع في التحقيق بأسرع ما يمكن، أقترح أن تبدأ العمل حالًا، وأنا سأتولَّى تفحُّص الرسالة القديمة والظرف.»

وعلى هذا بدأتُ الفحص فورًا دون تأخير، واستهللته بأخذ نسخة فوتوغرافية للرسالة بوضعها في إطار طباعة كبير مع لوحٍ حسَّاس ولوحٍ من الزجاج الشفَّاف. ولم تُظهِر الصورة السالبة الناتجة الأحرُف المكتوبة بالآلة الكاتبة فحسب، بل أظهرت كذلك العلامة المائية والخطوط المُتوازية الناجمة عن الشبكة السلكية المُستخدَمة في صناعة الورق، وبقعةً دهنية باهتة. ركَّزتُ بعد ذلك على الأحرُف نفسها، وسرعان ما بدأت حينها في ملاحظة عدد كبير من الخصائص المُميزة؛ فقد اتَّضح لي أن الآلة الكاتبة من طراز «كورونا»، وأنها مزوَّدة بخط «إيلايت» الصغير، وأن مُحاذاة الكتابة بها عيوبٌ ملحوظة؛ إذ كانت حروف «إيه» الصغيرة تقع أسفل الأسطر بكثير، مع أن حروف «إيه» الكبيرة كانت واقعةً في مواضعها الصحيحة على الأسطر، وكانت حروف «يو» تقع أعلى من الأسطر قليلًا، فيما كانت فتحات حروف «إم» الصغيرة قد انسدَّت انسدادًا جزئيًّا بالوسَخ.

كنتُ حريصًا حتى هذه اللحظة على التعامل مع الرسالة بالملقط (مع أنني أعرف أن ثلاثة أشخاص على الأقل قد أمسكوها قبلي)، وحينها شرعت في فحصها بحثًا عن بصمات الأصابع. ولأنني لم أستطع اكتشاف أي شيء من خلال الفحص وحده، غبَّرتُ

ظهر الورقة بمسحوقِ فوشين ناعم، ونثرت المسحوق بنَقر الورقة برفق؛ فظهر عددٌ لا بأس به من بصمات الأصابع، لا سيَّما حول حواف الرسالة. وبالرغم من أن مُعظمها كان باهتًا ومبهَمًا للغاية، كان من المُمكِن تحديد نمط نتوءات البصمات بما يكفي لغرضنا. وبعدما نفخت الفائضَ من المسحوق في الهواء، أخذت الرسالة إلى الغرفة التي أُعِدَّت فيها الكاميرا الناسخة الكبيرة لأُصوِّرها قبل أن أحاول إظهار البصمات الموجودة على وجهها، لكنني وجدتُ مُساعدنا المُختبري، بولتون، مُستحوذًا عليها، فيما كان الظرف المختوم مثبَّتًا على حامل لوح النَّسخ، وحينها قال لي: «أمهلْني دقيقةً يا سيدي؛ فالطبيب يريد صورةً مُكبَّرة من هذا الختم. وقد وضعت اللوح داخل الجهاز بالفعل.»

انتظرته حتى التقط الصورة، ثم شرعتُ في التقاط صورة للرسالة، أو بالأحرى بصمات الأصابع المطبوعة على ظهرها. وحين حمَّضت الصورة السالبة لوجه الرسالة، نثرت المسحوق عليها، وكشفتُ عدة بصمات أصابع أخرى؛ بصماتِ إبهام هذه المرة. كان من الصعب رؤية البصمات في المواضع التي طُبعت فيها على الكتابة، ولكن لأن الكتابة كانت بلونٍ أزرق ساطع، ومسحوق الفوشين كان أحمر؛ فقد اختفى هذا الالتباس في الصورة التي بدت فيها الكتابة شِبه مخفية بينما كانت البصمات أوضح ممَّا كانت تبدو للعين المجرَّدة. أنهيتُ فحصي بذلك، وحين تيقَّنت من صحة طراز الآلة الكاتبة بالرجوع إلى سِجلِّنا الذي نحتفظ فيه بعيِّناتٍ مكتوبة بآلاتٍ مختلفة، تركتُ الصور السالبة لبولتون كي يُجفِّفها ويطبعها، وذهبت إلى حجرة الجلوس لكتابة تقريري الصغير. كنت قد أنهيته للتَّو، وكنت أحاول تخيُّل ما توصَّل إليه ثورندايك حين سمعت خُطاه السريعة على الدَّرج، ثم دخل الغرفة بعد بضع لحظات مُمسِكًا ورقةً ملفوفة في يده. بسط هذه الورقة على الطاولة، مُثبِّتًا إياها بواحدة أو اثنتين من ثقالات الورق الرصاصية، واقتربتُ لأفحصها، فوجدتها ورقةً لخريطة هيئة المساحة ذات مقياس يبلغ خمسًا وعشرين بوصة للميل الواحد.

قال ثورندايك: «ها هي أرض آل بلوجريف في وسط الورقة تقريبًا. هذا بيته — قصرُ ضيعة شوستيد — ولعل ذلك هو المبنى الخارجي الذي اشتعلت فيه النيران. وأظنُّ أن ذاك البيت الموسوم باسم «دينجل فارم» هو البيت الذي كان العمُّ روبن يسكنه.»

اتفقت معه قائلًا: «هذا صحيحٌ على الأرجح، لكني لا أفهم لمَ أردت الحصول على هذه الخريطة ما دُمت ستذهب إلى المكان نفسه غدًا.»

قال ثورندايك: «ميزة الخريطة أنك تستطيع رؤيتها كلها دفعةً واحدة، وتحفظ شكلَ الأرض جيدًا في ذهنك، وأنك تستطيع قياس جميع المسافات بدقة وسرعة بمسطرة وفرجارَين؛ لذا فحين نذهب إلى هناك غدًا، سنكون على دراية بطريقنا مثل بلوجريف نفسه.»

سألته: «وما فائدة ذلك؟ ما علاقة الطبوغرافيا بالقضية؟»

أجاب قائلًا: «حسنًا يا جِرفيس، لدينا هنا السارق، على سبيل المثال، لقد جاء من مكانٍ ما وذهب إلى مكانٍ ما؛ ومن ثَم فقد تمنحنا دراسة الخريطة إشارة إلى تحرُّكاته، لكن ها هو بولتون قد جاء «حاملًا الوثائق»، وها أنا أقول مثلما كانت الآنسة المسكينة فلايت ستقول: ماذا أحضرتَ لنا يا بولتون؟»

قال بولتون وهو يضع على الطاولة أربع صور مطبوعة على ورق بروميد: «إنها لم تجفَّ تمامًا بعدُ يا سيدي. ها هي صورة الختم المُكبرة — بُعداها عشرة في ثمانية ومُثبَّتة على لوحٍ خلفي — وثلاث صور مطبوعة غير مثبَّتة طلبها الدكتور جِرفيس.»

نظر ثورندايك إلى صوري بعينٍ نقدية، وقال: «إنها ممتازةٌ يا جِرفيس. من السهل جدًّا رؤية تفاصيل بصمات الأصابع، مع أنها باهتة. كل ما أتمنَّاه أن تكون البصمات المطلوبة موجودةً بينها. هذه بصمة إبهامي الأيسر، ولا أرى بصماتك، وأظنُّ أن هذا الإبهام الصغير هو إبهام الآنسة بلوجريف. يجب أن نأخذ بصماتها غدًا، وبصمات أبيها أيضًا. وعندها سنعرف ما إذا كانت الرسالة تتضمَّن أيًّا من بصمات السارق أم لا.» ثم ألقى نظرةً سريعة على تقريري، وأومأ بالاستحسان، وقال: «توجد هنا معلوماتٌ كثيرة قد تُساعدنا في التعرُّف على الآلة الكاتبة إذا استطعنا العثور عليها، والورقة أيضًا مميزة للغاية.» ثم أضاف وهو يضع أمامي الصورة المُكبَّرة: «ما رأيك في الختم؟»

أجبته بابتسامة: «إنه رائع، وذو طابعٍ أثري جدًّا.»

فسألني: «لماذا تبتسم؟»

قلت: «كنتُ أفكِّر في أنك تُحصِي دجاجاتك مُبكِّرًا جدًّا على ما يبدو؛ فأنت تضع استعداداتٍ دقيقةً مُفصَّلة للتعرُّف على الجعران، لكنك تتجاهل النصيحة المأثورة للسيدة جلاس الحكيمة.»

قال: «حَدْسي يُخبرني بأننا سنعثر على هذا الجعران. على أي حال، يجب أن نكون مُستعدِّين للتعرُّف عليه فورًا ويقينًا إذا استطعنا رؤيته.»

قلت: «من المستبعَد أن نجده. ومع ذلك، لا ضرر في أن نأخذ احتياطنا تحسُّبًا للأحداث المستبعَدة.»

من الواضح أن هذا كان رأيَ ثورندايك، وقد أخذ احتياطاتٍ وافرةً بالطبع لهذا الاحتمال المستبعَد للغاية؛ ذلك أنه بعدما أحضر لوحَ رسم وورقة استشفاف، ثبَّت الورقة على الصورة ووضعهما على اللوح، وبدأ بكل حرص ودقَّة يرسم من النقوش الهيروغليفية المُعقَّدة المُحيِّرة المكتوبة على الختم، نسخةً استشفافية، مُستخدمًا في ذلك قلمًا ذا سن رفيعة وحبرِ هكتوغراف. وحين أنهى تلك الرسمة نقلها إلى آلة النَّسخ، ونسخ منها ستَّ نُسَخ، ثم أعطاني إحداها؛ فنظرت إليها بارتياب، وقلت: «تقول إن المُحامي المُتخصص في الطب الشرعي يجب أن يعرف كل شيء في اختصاصه. فهل يتوجَّب عليه أن يكون عالِم مصريات أيضًا؟»

أجابني قائلًا: «سيكون مُحاميًا قانونيًّا طبيًّا أفضل إذا أصبح كذلك.» وقد حفظتُ هذه الإجابة في ذهني لأسترشد بها في المستقبل. لكنني لم أكن أفهم تصرُّفات ثورندايك على الإطلاق آنذاك، فما غايته من رسم هذه الرسمة الاستشفافية الدقيقة؟ لقد كان الختم نفسه كافيًا للتعرُّف على الجعران عند رؤيته. أطَلتُ المُقام عنده على أمل أن تُوضِّح بعضُ تصرُّفاته الجديدة هذا الغموض، لكن تصرُّفه التالي زادني حيرةً على حيرتي؛ فقد رأيته يتوجَّه نحو أرفف الكتب ويأخذ منها كتابًا. وبينما كان يضعه على المنضدة، ألقيت نظرةً خاطفة على العنوان، وحين رأيت أنه كتاب «نافيجيشن تيبلز» للمؤلِّف هنري رابر، تسلَّلت بهدوء إلى الردهة، واعتمرت قبَّعتي وذهبت لأتمشَّى.

وعندما عُدتُ، كان ثورندايك قد أنهى استقصاءه على ما يبدو؛ إذ كان جالسًا على كُرسيِّه المُريح يقرأ كتاب «ذا كومبليت أنجلر» بهدوء. ووجدت على المنضدة منقلةً دائريةً كبيرة، ومسطرةً مُستقيمة، ومسطرة مقياس، وورقةً استشفافية مرسومًا عليها بحبر الهكتوغراف رسمةٌ استشفافية لقصرِ ضيعة «شوستيد».

سألته: «لماذا رسمت هذه الرسمة الاستشفافية؟ لماذا لا تأخذ الخريطة نفسها؟»

أجاب قائلًا: «لا نُريدها كلها، وأنا لا أحبُّ قصقصة الخرائط.»

وبعدما تناولنا غداءً بسيطًا في القطار، وصلنا إلى قصر ضيعة «شوستيد» في الثانية والنصف. ومن الواضح أن أحدًا قد لاحظ اقترابنا من مدخل القصر؛ إذ كان بلوجريف وابنته ينتظرانا في الرواق لاستقبالنا. تقدَّم الأول باسطًا يده للسلام، بالرغم من البؤس البادي في قسَماته، وقال:

«إنه لطفٌ بالغٌ منكما أنكما جئتما، لكن الأوان قد فات مع الأسف!»

سأله ثورندايك: «فات الأوان على ماذا؟»

أجابه بلوجريف: «سأُريك.» وأخذ بزميلي من ذراعه، ثم هروَل مُهتاجًا نحو بوَّابة صغيرة على جانب البيت، وبعدما مرَّ من خلالها هرع على طول زقاق ضيِّق يمتدُّ بمُحاذاة سور الحديقة وينتهي بمرج كبير، حيث تقف عند أحد طرفيه طاحونةٌ هوائية مُتهالكة، فسار مُسرِعًا عبر هذا المَرج ساحبًا زميلي وراءه، حتى وصل إلى كومة من التراب قد قُلِبت حديثًا، حيث توقَّف وأشار بتعبيراتٍ مأساوية إلى بقعةٍ كان من الواضح أن عُشْبها قد رُفِع وأُعيدَ إلى موضعه بعشوائية.

صاح قائلًا: «انظر هنا!» وانحنى يرفع طبقة العُشب المُهلهلة، كاشفًا ما بدا بوضوحٍ أنه كان حفرةً كبيرة رُدِمت حديثًا على عجَل، ثم قال: «لقد حدَث هذا في الليلة الماضية أو في وقتٍ مبكِّر من صباح اليوم؛ لأنني مشيت على هذا المرج مساء أمس ولم تكن توجد أي علامة على اختلال انتظام التربة آنذاك.»

وقف ثورندايك ينظر إلى الحفرة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ طفيفة، ثم سأله: «وماذا تستنتج من ذلك؟»

صاح بلوجريف: «أستنتج! حسنًا، أستنتج أن أيًّا مَن حفر هذه الحفرة كان يبحث عن العم روبن والجواهر المفقودة!»

قال ثورندايك بهدوء: «أميل إلى الاتفاق معك. لقد تصادَف أنه بحث في المكان الخطأ، لكن هذا شأنه.»

صاح بلوجريف وابنته معًا: «المكان الخطأ! كيف تعرف أنه المكان الخطأ؟»

أجاب ثورندايك: «لأنني أعتقد أنني أعرف المكان الصحيح، وهو ليس هذا المكان، لكننا نستطيع اختبار صحة هذا الأمر، ويَجدر بنا أن نفعل ذلك. أيُمكنك إحضار رجلَين بمَعاول ومَجارف، أم نستعمل الأدوات بأيادينا؟»

قال بلوجريف الذي كان يرتجف من الاهتياج: «أظنُّ أن ذلك سيكون أفضل. لا نريد أن نُشرِك أي أحد في سِرِّنا ما دام بإمكاننا تجنُّب ذلك.»

اتفق معه ثورندايك قائلًا: «بالطبع لا. إذن أقترح عليك إحضارَ الأدوات بينما أحدِّد أنا الموقع.»

وافَق بلوجريف بلهفة، وذهب مُهرولًا بسرعة، بينما ظلَّت الشابَّة معنا وكانت تُحدِّق إلى ثورندايك بفضولٍ شديد.

قالت له: «أعتذر عن مقاطَعتك بالأسئلة، لكني لا أستطيع أن أتخيَّل كيف عرفت مكان دفن العم روبن.»

فأجابها قائلًا: «سنخوض في ذلك بالتفصيل لاحقًا، لكن علينا أولًا أن نجد مكان العم روبن.» وضع حقيبة أبحاثه على الأرض، وفتحها وأخرج منها ثلاث أوراق كلٌّ منها يحمل نسخةً طِبق الأصل من الرسمة الاستشفافية التي رسمها للخريطة، ويتضمَّن علامةً على بقعةٍ معيَّنة في هذا المرج تتشعَّب منها عدة خيوط كالقُضبان الواصلة بين مركز عجلة وإطارها الخارجي.»

قال وهو يُريني إياها: «ها أنت ترى ميزة الخريطة يا جِرفيس. لقد استطعتُ تسطير هذه المجموعات من الاتجاهات الزاوية بصرف النظر عن العوائق، مثل هذه الأشجار الصغيرة، التي نمَت منذ زمن سيلاس. وقد مكَّنتني أيضًا من وضع علامة على البقعة المُرادة في مكانها الصحيح. وإذا منعتنا العوائق الحديثة من أخذ قياسات الاتجاهات الزاوية، فما يزال بوسعنا إيجاد البقعة بأخذ قياسات باستخدام الجنزير أو شريط القياس.»

فسألته: «ولماذا أحضرت ثلاث خرائط؟»

«لأن هناك ثلاثة أماكن يُمكن تخيُّل أنها الموقع المراد؛ الأول هو الأرجح، والثاني أقل احتمالًا لكنه مُمكن، والثالث مستحيل. وهذا هو الذي جرَّبه صديقنا الليلة الماضية. يقع المكان الأول بين هذه الأشجار الصغيرة، وسنرى الآن ما إذا كنا سنستطيع أخذ الاتجاهات الزاوية رغم وجودها، أم لا.»

توجَّهنا إلى مجموعة الأشجار الصغيرة، حيث أخرج ثورندايك من حقيبة أدوات الاستقصاء حامل كاميرا ثلاثيَّ القوائم طويلًا قابلًا للطَّي، وبوصلة منشورية كبيرة ذات عقرب مصنوع من الألومنيوم، وقاس بالبوصلة اتجاهَين زاويَّين تجريبيَّين، ثم نصب الحامل الثلاثي، وثبَّتها عليه. ظللت أنا والآنسة بلوجريف نُراقبه بضع دقائق وهو ينقل الحامل من بقعة إلى أخرى، مُحدِّقًا عبر ريشة الرؤية الدوَّارة في البوصلة، ويُلقي بنظراتٍ خاطفة على الخريطة من حين إلى آخر. التفتَ إلينا أخيرًا، وقال: «نحن محظوظون. لا يتداخل أيٌّ من هذه الأشجار مع اتجاهاتنا الزاوية.» أخرج من حقيبته سهمَ المسح، وأضاف وهو يغرزه في الأرض أسفل الحامل: «هذه هي البقعة، لكننا قد نضطرُّ إلى حفر مساحة كبيرة حولها؛ إذ إن البوصلة أداةٌ تقريبية فحسب.»

في هذه اللحظة، جاء السيد بلوجريف مترنِّحًا لاهثًا، وألقى على الأرض بثلاثة مَعاول ومجرفتَين ومسحاة، وقال: «لن أُعطِّلك بالسؤال عن تفسيراتٍ أيُّها الطبيب، لكني مُتحيرٌ للغاية. يجب أن تُخبرنا بما يعنيه كلُّ هذا حين نُنهي عملنا.»

وعَده ثورندايك بذلك، لكنه في الوقت نفسه خلع مِعطفه وشمَّر كُمَّي قميصه عن ساعدَيه، ثم أمسك المسحاة وبدأ يُجرِّف قطعةً مربَّعة كبيرة من العُشب. وحالَما انكشفت التربة بعد إزالة العشب من فوقها، انقضضت عليها أنا وبلوجريف بالمعولَين، فيما كانت الآنسة بلوجريف تَجرف التربة المُهلهلة الناجمة عن الحفر بعيدًا.

سألت ثورندايك: «هل تعرف العمق الذي يجب أن نصل إليه؟»

أجاب قائلًا: «تقع الجثَّة على عمق ست أقدام تحت سطح الأرض.» وفي أثناء كلامه، ألقى المسحاة، وأخرج تليسكوبًا من حقيبته، ومشَّط به الأرجاء المُحيطة بالمَرج إلى أن وجَّهه أخيرًا نحو بيت ريفي ذي مزرعة على بُعدِ حواليَ ستمائة ياردة ظلَّ يتفحَّصه وقتًا طويلًا بعض الشيء، ثم أخذ المعول المتبقِّي وبدأ يعمل في الرُّكن المُقابل من القطعة المُربَّعة التي جرَّفها من الأرض.

ظللنا نعمل بكدٍّ على مدار نصف ساعة نشقُّ فيها طريقنا تدريجيًّا نحو الأسفل، ونستخدم المَعاول والمَجارف بالتناوب، بينما كانت الآنسة بلوجريف تَجرف مُخلَّفات الحفر بعيدًا عن حوافِّ الحفرة التي تزداد عمقًا. أخذنا استراحةً وصعدنا إلى سطح الأرض ونحن نمسح وجوهنا.

قال بلوجريف وهو يخلع صِداره: «أظنُّ يا نيلِّي أننا نحتاج إلى إبريق من عصير الليمون وأربعة أكواب، إلا إذا كان زائرانا يُفضِّلان الجعة.»

اختار كِلانا عصير الليمون، وسارت الآنسة نيلِّي بخُطواتٍ سريعة رشيقة نحو البيت، بينما أمسك ثورندايك تليسكوبه، وتفقَّد المنزل الريفي مرةً أخرى.

قلت له: «تبدو مُهتمًّا جدًّا بهذا المنزل.»

أجابني وهو يُعطيني التليسكوب: «أجل، إنني مُهتمٌّ به. ألقِ نظرة على النافذة الواقعة في الجمَلون الأيمن، لكن ابقَ تحت الشجرة.»

وجَّهتُ التليسكوب نحو الجمَلون، ورأيت هناك نافذةً مفتوحة يجلس عندها رجل. كان يضع مِنظارًا على عينَيه، وقد بدا أنه موجَّه نحوَنا.

قلت وأنا أُمرِّر التليسكوب إلى بلوجريف: «هناك مَن يتجسَّس علينا، لكني لا أظن أن ذلك يهم؛ فهذه أرضك، أليست كذلك؟»

أجاب بلوجريف: «بلى، لكننا لا نُريد أيَّ مُتفرِّجين.» ثم أضاف وهو يُثبِّت التليسكوب على إحدى الأشجار: «هذا هارولد بوكر، ابن شقيق ابن عمِّي آرثر، الذي قلت لكما إنه ورث البيت الريفي. يبدو مُهتمًّا جدًّا بنا، لكن صغائر الأمور تجتذب اهتمامَ المرء في الريف.»

وحينها، ظهرت الآنسة نيلِّي وهي تخطو نحوَنا عبر المرج بسلَّةٍ مُغرِية المَظهر؛ فصرف ذلك انتباهنا عن مُراقِبنا الفُضولي، وظلَّت ست أعيُن ظَمْأى تُحدِّق إلى هذه السلَّة حتى دنت منَّا، وأفرغت من جعبتها إبريقًا زجاجيًّا كبيرًا وأربعة أكواب، فتجرَّع كلٌّ منَّا جرعةً طويلةً لذيذة، ثم قفزنا إلى الأسفل داخل الحفرة لاستكمال عملنا.

مرَّت نصف ساعة أخرى، وكنَّا قد حفرنا في بعض الأماكن حتى آخر العمق المطلوب تقريبًا، وبينما كنا نتناقش فيما إذا كان من الأفضل أن نأخذ استراحةً قصيرةً أخرى أم لا، أطلق بلوجريف، الذي كان يعمل في أحد الأركان، صرخةً عالية، ووقف مُنتصبًا فجأةً وهو يُمسِك شيئًا بين أصابعه، وبنظرةٍ خاطفة على هذا الشيء تبيَّن أنه عظْمة. صحيحٌ أنها كانت بُنِّية ومُلطَّخة بالتربة، لكن كان من الواضح أنها عظمة، بل عظمة بشرية أيضًا، مِثلما قرَّر ثورندايك ذلك حين أعطاه بلوجريف إيَّاها مُبتهجًا بإنجازه.

قال ثورندايك: «من حُسْن حظنا الشديد أننا اقتربنا جدًّا من مُرادنا من المحاوَلة الأولى. هذه العظْمة من الإصبع الأكبر في القدم اليُمنى؛ لذا يُمكننا افتراض أن الهيكل العظمي يقع جانب هذه الحفرة مباشَرةً، لكن من الأفضل أن نَحفر بحرص في رُكنك، ونرى وضعية العظام بالضبط.» وقد شرع هو في فعل ذلك بنفسه؛ فظلَّ يتحسَّس بالمسحاة بحذر ويجرف التربة من الرُّكن. وسرعان ما ظهرت العظام المُتبقية من القدم اليُمنى ثم طرَفَي عظمتَي الساقين، وجزء من عظام القدم اليُسرى.

قال: «ها نحن نرى وضعية الهيكل العظمي، وكل ما علينا الآن أن نُوسِّع الحفر في هذا الاتجاه، لكن سعة المكان هنا بالأسفل لا تسمح بالعمل إلا لشخصٍ واحد؛ لذا أظنُّ أنه من الأفضل أن تحفر أنت والسيد بلوجريف من السطح.»

حينئذٍ تسلَّقت خارجًا من الحفرة، وتبِعني على مضضٍ بلوجريف، الذي كان ما يزال يُمسك العظمة البُنية الصغيرة، وكان في حالة من الإثارة الجامحة والبهجة الشديدة قد أثارَت استياء ابنته.

وعلَّقت على سلوكه قائلةً: «من الشنيع أن تَشمت بجثَّة العم روبن المسكين هكذا.»

قال لها: «أعرف، هذا ليس تصرُّفًا مُوقَّرًا، لكنني لم أقتل العم روبن، كما تعرفين، في حين أن ... حسنًا لقد مضى وقتٌ طويل على ذلك. ومع هذه الخاتمة غير المُترابطة،

ارتشف جرعةً من عصير الليمون، وأمسك بمعوله، وبدأ العمل بهمَّة. انغمست أنا أيضًا في جرعةٍ من عصير الليمون، وناوَلت ثورندايك في الأسفل كوبًا كاملًا من العصير. وقبل أن أستكمل عملي، أمسكت التليسكوب وتفقَّدت المنزل الريفي مرةً أخرى. كانت النافذة ما تزال مفتوحةً، لكن يبدو أن المتفرِّج قد ملَّ من المشهد غير المُثير. وكان قد اختفى على أي حال.

ومنذ هذه اللحظة فصاعدًا، كانت كل دقائق قليلة تُسفِر عن اكتشافٍ ما؛ أولًا: إبزيما حذاءٍ فُولاذيان صدئان للغاية، ثم زرٌّ واحد أو اثنان، والآن ساعةٌ ذهبية فاخرة، وسلسلةٌ لتعليقها في الجيب، ومجموعة من الأختام تبدو جديدة وحديثة على نحوٍ شديد الغرابة، كما أنها قد بدت مُثقَلة بالمأساة أكثر من العظام نفسها. كان ثورندايك، في حَفره الحذِر، حريصًا على عدم الإخلال بوضعية الهيكل العظمى، وحين نظرت إلى الأسفل في الخندق الضيِّق الذي كان يتنامى من رُكنِ الحفرة، رأيت كلتا الساقين بارزةً من الجرف الصغير جدًّا، باستثناء القدم اليُمنى. وفي هذه الأثناء، كان عمق خندقنا يزداد سريعًا؛ لذا حذَّرَنا ثورندايك وأمرَنا بإيقاف الحفر، وطلب منَّا أن ننزل ونجرف التراب المُتساقط الذي يَفصله من حول الهيكل بعيدًا.

وأخيرًا ظهر الهيكل العظمي كلُّه خلا الجمجمة، مع أنه كان راقدًا في وضعيةٍ منتظمة بالطريقة التي كان سيُوضَع في نعشه على الأرجح. وبينما كان ثورندايك يُزيل التربة من حول الجمجمة، رأيناها حينذاك مُسنَدةً إلى الأمام كأنها ترتكز على وسادةٍ عالية. وبإجراء قليل من تنقيبٍ أكثر حذرًا برأس المعول، اتَّضح لنا تفسير هذا المنظر؛ ذلك أنه حالَما تساقطت التربة وكشفت عن الجمجمة التي بدت وكأنها تبتسم ابتسامةً عريضة بأسنانها الظاهرة، ظهرت حافَّة صندوق صغير وأركانه المُحاطة بقوائم حديدية.

لقد كان مشهدًا مُدهشًا؛ مشهدًا غريبًا ومهيبًا ومروِّعًا بعض الشيء؛ فهنا كان المُقامر التعيس يرقد منذ أكثر من قرن، ورأسه المُتحلِّل يتوسَّد غنيمة الجريمة الخسيسة غير المُسجَّلة، غنيمةً رُبِحت بالاحتيال واستُعيدت بالعنف، وأخفاها الرابح النهائي أخيرًا مع الشاهد على جريمته.

قال ثورندايك: «ها هو موضوعٌ مُناسب لخطبة داعية أخلاقي يُريد أن يَعِظ عن غرور الأثرياء.»

وقفنا جميعًا صامتين بُرهةً نُحدِّق، دون هَلع، إلى الهيكل الجامد الذي يرقد حارسًا الكنز الحرام. اقتربت الآنسة بلوجريف — التي ساعدناها على النزول حين نزلنا — رُويدًا

من أبيها، وهمست قائلةً إن هذا «شنيع». أما بلوجريف نفسه، فقد أبدى مزيجًا غريبًا من الابتهاج والنفور الذي ترتجف له الأبدان.

وفجأةً قطع الصمت صوتًا من فوقنا، فنظرنا جميعًا إلى الأعلى وقد جفلنا. كان ثَمة رجلٌ شابٌّ بعض الشيء يقف على حافَّة الحفرة ناظرًا إلينا باستنكارٍ جلي للغاية.

علَّق هذا الوافد الجديد قائلًا: «يبدو أنني أتيت في الوقت المناسب تمامًا. أظنُّ أنني سأضطرُّ إلى أخذ هذا الصندوق، كما تعلمون، وكذلك الرفات. هذا جدِّي روبن بلوجريف.»

قال بلوجريف: «حسنًا يا هارولد، يُمكنك أن تأخذ العمَّ روبن إذا كنتَ تُريده، لكن الصندوق من حق نيلِّي.»

وحينئذٍ قفز السيد هارولد — الذي عرفت من شكله آنذاك أنه الشخص الذي كان يُراقبنا من النافذة — إلى الحفرة، وتقدَّم نحونا بشيء من الاختيال.

قال: «أنا وريثُ روبن، عبر عمِّي آرثر، ومن حقِّي الحصول على هذه المِلكية والرفات.»

قال بلوجريف: «مَعذرةً يا هارولد، لكن نيلِّي هي الوريثة الشرعية لما تبقَّى من تركة آرثر، وهذا من بقايا التركة.»

صاح بوكر: «هُراء! بالمناسبة، كيف عرفتَ مكان دفنه؟»

أجاب ثورندايك بلُطفٍ غير متوقَّع: «آه، كان هذا بسيطًا جدًّا. سأُريك الخريطة.» ثم صعد إلى السطح وعاد في غُضون بضع لحظات مع الرسمات الاستشفافية الثلاث وحقيبة الرسائل الخاصة به، وقال: «هكذا حدَّدنا المكان.» وأعطى الخريطة «الثالثة» إلى بوكر، الذي أخذها منه ووقف ينظر إليها بعبوس مُتحيِّر.

قال بوكر أخيرًا: «لكن ليس هذا هو المكان الذي تُشير إليه الخريطة.»

تساءل ثورندايك: «أليس هو؟ بلى بالطبع، لقد أعطيتك الخريطة الخاطئة. ها هي الخريطة.» وهنا أعطى الخريطة «الأولى» إلى بوكر وأخذ منه الأخرى، ووضعها بالأسفل على كومةٍ من التراب. وبعد ذلك، بينما كان بوكر يتأمَّل الخريطة «الأولى» بعبوس، أخرج ثورندايك سكينًا وقلمَ رصاص من جيبه، ثم أدار ظهره إلى زائرنا وكشط سنَّ القلم الرصاصي، تاركًا المسحوق الرصاصي الأسود يسقط على الخريطة التي وضعها بالأسفل للتَّو. كنت أُشاهده بشيءٍ من الفضول، وحين لاحظت أن المسحوق الناجم عن الكشط سقط على موضعَين بالقرب من حوافِّ الورقة، ومَض ظنٌّ مُفاجئ في ذهني تيقَّنت منه حين رأيت ثورندايك ينقر بقلمه على الورقة برفق، وينفخ المسحوق برفق، ويُخرِج من

حقيبته نسختي الفوتوغرافية من الرسالة المكتوبة بالآلة الكاتبة بسرعة، ويُمسكها لوهلة بجانب الخريطة.

وهنا قال بوكر وهو يرفع عينَيه من على الخريطة: «كلُّ هذا ممتاز، لكن كيف عرفت هذه الاتجاهات؟»

فأعاد ثورندايك الرسالة بسرعة إلى حقيبته، واستدار إليه قائلًا: «يؤسفني القول إنني لا أستطيع إعطاءك أي معلومة أخرى.»

فصاح بوكر بوقاحة: «لا تستطيع، حقًّا! ربما سأُجبِرك على ذلك، لكنني على أي حال أنهاكم جميعًا عن لمس ممتلَكاتي.»

نظر ثورندايك إليه برباطة جأش، وقال بنبرةٍ هادئة مُنذِرة بسوء: «أنصِتْ إليَّ الآن يا سيد بوكر. دَعنا ننتهي من هذا الهُراء. لقد لعبتَ لعبةً محفوفة بالمخاطر وخسرت، لكنني لا أستطيع تحديد مقدار خسارتك حتى أعرف ما إذا كان السيد بلوجريف يعتزم مُقاضاتك.»

فصاح بوكر: «المقاضاة! ما الذي تقصده بالمقاضاة بحق السماء؟»

قال ثورندايك: «أقصد أنك في السابع من يونيو بعد الساعة التاسعة ليلًا، دخلت مَسكن السيد بلوجريف وسرقت بعض متاعه وممتلَكاته. صحيحٌ أنك أعدتَ جزءًا منها، لكنك ما زِلت تحوز بعض الممتلَكات المسروقة، أو بالأحرى جعرانًا وصندوقَ أوراق معدنيًّا.»

وبينما أفصح ثورندايك عن هذا البيان بنبرته الهادئة الرزينة، اعتلى وجهَ بوكر شحوبٌ شديد البياض كبياض الودَك، ووقف مُحدِّقًا إلى زميلي في حالة من الذهول الهائل والفزع الشديد، لكنَّه أطلق صيحةً أخيرة.

وصاح بصوتٍ مبحوح: «ما هذا إلا نوبة من الجنون، وأنت تعرف ذلك.»

فالتفت ثورندايك إلى مُضيفنا، وقال: «القرار قرارك يا سيد بلوجريف. لديَّ دليلٌ قاطع على أن السيد بوكر سرق صندوق أوراقك المعدني. وإذا قرَّرت مقاضاته، فسأُقدِّم هذا الدليل في المحكمة، وسيُدان بالتأكيد.»

نظر بلوجريف وابنته إلى المتهَم بإحراجٍ يكاد أن يُضاهي إحراجه.

ثم قال الأول أخيرًا بعد صمتٍ طويل: «أنا مصعوق، لكني لا أريد أن أكون انتقاميًّا. أصغِ إليَّ يا هارولد، أعطِنا الجعران، ولن نَنبس ببنت شفة عن ذلك.»

قال ثورندايك: «لا يحقُّ لك ذلك؛ فالقانون لا يسمح بالمساوَمة على التصالح في جريمة سرقة. يُمكنه أن يُعيد إليك ممتلكاتك إذا شاء، ويُمكنك أن تتَّخذ الخيار الذي تراه أفضل في مسألة المقاضاة، لكن لا يُمكنك وضع شروط.»

خيَّم الصمت بضع ثوانٍ، ودون أي كلمة أخرى، استدار المُغامِر المُحبَط بعد ذلك وتسلَّق الحفرة بسرعة، وغادَر مُتعجلًا.

وبعد مرور حوالَي ساعتين، اغتسلنا فيهما على مهل، وتناولنا وجبةً عادية سريعة، حملنا الصندوق الصغير من غرفة الطعام إلى غرفة المكتب. وهنا، بعدما أغلق السيد بلوجريف النافذة الفرنسية وأسدل الستارة، أحضر بعض الأدوات وبدأنا العمل على خلع القضبان الحديدية المُحيطة بالصندوق. لم تكن تلك بالمهمة السهلة، مع أن الصدأ الذي ظلَّ يعتلي القضبان المتينة طوال قرن كامل قد أوهنها. وأخيرًا، رضخ غطاء الصندوق لضربة من فتَّاحة صناديق طويلة، وارتفع مُحدِثًا صريرًا احتجاجيًّا. كان الصندوق مُبطَّنًا بطبقةٍ مزدوَجة من الكتَّان، بدا أنها كانت جزءًا من شِراع، وكانت تحتوي على عدد من الصُّرَر الجِلدية الصغيرة، التي بدت، ونحن نرفعها واحدةً تِلو الأخرى، كأنها مليئة بالحصى؛ غير أننا حين حللنا رباط إحداها وأفرغنا محتوياتها في وعاءٍ خشبي، تنهَّد بلوجريف تنهيدةَ نشوة، وأطلقت الآنسة نيلِّي صيحةً قصيرة تدلُّ على الابتهاج. كانت المحتويات كلها أحجارًا مصقولة: ياقوتٌ وزمرُّد وياقوت أزرق وبضع ماسات، وكان معظمها ذا حجمٍ استثنائي. أما بخصوص قيمتها، فلم يكن بوسعنا إلا أن نُصدِر تخمينات جُزافية، لكن ثورندايك الذي كان على درايةٍ جيدة بالأحجار الكريمة، قال إنها عيِّناتٌ رائعة من نوعها، مع أنها مصقولة بلا إتقان، وقال أيضًا إنها ربما كانت موضوعةً في أحد الأضرحة لتزيينه.

قال بلوجريف الذي كان يُحدِّق في وعاء الجواهر المُتلألئة بفخر: «السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ماذا سنفعل بها؟»

فقال ثورندايك: «أقترح أن يَبيت الدكتور جِرفيس هنا الليلة ليُساعدك في حراستها، وأن تأخذها صباحًا إلى لندن وتُودعها في مَصرفك.»

أبدى بلوجريف موافقته بكل حماسة على هذا الاقتراح، الذي أيَّدتُه، ثم قال: «لكن هذا الصندوق سيَلفت الأنظار بمَظهره الغريب إذا خرجنا به من البيت. ليت صندوق الأوراق المعدني الصغير ظلَّ لدينا ...»

فقال ثورندايك: «يوجد صندوق أوراق معدني صغير على الخِزانة وراءك.»

استدار بلوجريف بسرعة، ثم صاح قائلًا: «فليحفظنا الله! لقد عاد بالطريقة التي اختفى بها. لا بد أن هارولد تسلَّل إلى الداخل عبر النافذة حين كنا نشرب الشاي. حسنًا، يُسعدني أنه ردَّ الحق إلى أصحابه. حين أنظر إلى هذا الوعاء، وأفكِّر فيما كاد ينجح في الحصول عليه، أشعر بأني لا أريد أن أكون قاسيًا عليه. أظنُّ أن الجعران داخل الصندوق، لكنه ما عاد يهمُّ كثيرًا الآن.»

كان الجعران داخل الصندوق في ظرف، وبينما كان ثورندايك يُقلِّبه في يده ويتفحَّص الكتابة الهيروغليفية المدوَّنة عليه عبر عدسته، سألته الآنسة بلوجريف: «أله أي قيمة يا دكتور ثورندايك؟ من المستحيل أن يكون له علاقة بسرِّ المخبأ؛ لأنك وجدتَ الجواهر من دونه.»

بالمناسبة، يا دكتور، لا أعرف ما إذا كان يجوز لي أن أسأل عن ذلك أم لا، لكن كيف عرفت مخبأ الجواهر بحقِّ السماء؟ إن الأمر يبدو لي وكأنه ضرب من ضروب السحر الأسود.»

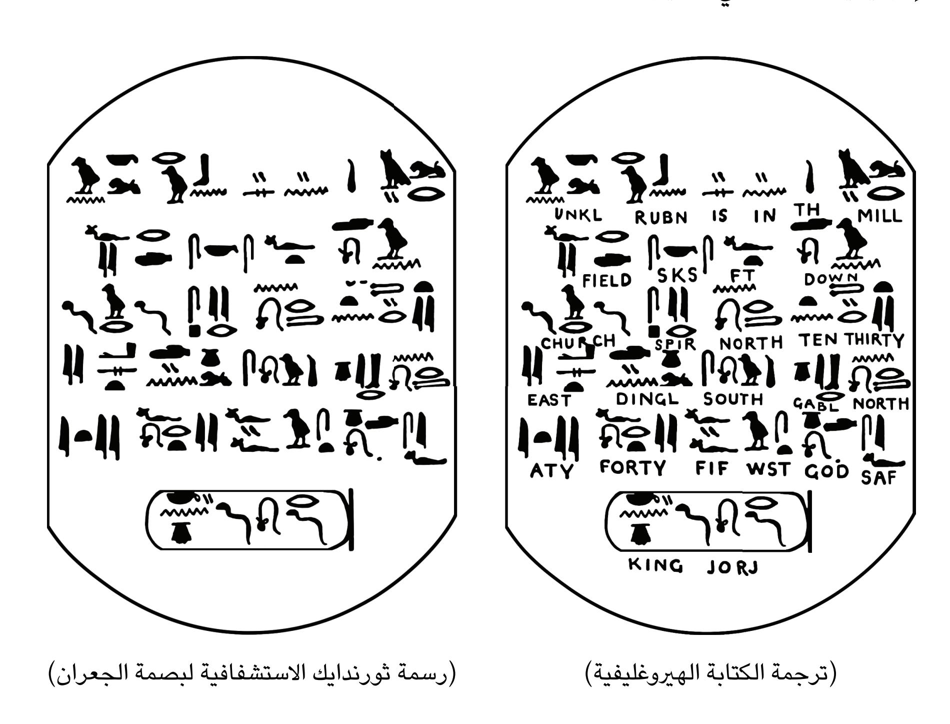
ضحك ثورندايك ضحكةً هادئة مكتومة، وقال: «لا شيء سحريًّا في ذلك، بل كانت مشكلةً بسيطة ومُباشِرة للغاية، غير أن الآنسة نيلِّي مُخطِئة؛ إذ كان الجعران لدينا، أو بالأحرى كان لدينا بصمته الشمعية، التي تُماثله تمامًا. وقد كان الجعران مفتاح اللغز.» ثم أضاف: «حسنًا، لقد كانت رسالة سيلاس والجعران معًا بمثابة اختبار ذكاء.»

فقال بلوجريف: «حقًّا؟ لهذا كان يعود بخُفَّي حُنين في كل محاولة.»

ضحك ثورندايك ضحكةً خافتة، ثم أقرَّ قائلًا: «من المؤكَّد أن ذرِّيته كانوا يَفتقرون قليلًا إلى سعة الحيلة. كانت تعليمات سيلاس واضحة وصريحة تمامًا: يجب على أي من يُريد العثور على الكنز أن يجني بعض الدراية بعلم المصريات، وأن يدرس الجعران بتمعُّن. كان ذلك أوضح التلميحات، لكن يبدو أن أحدًا لم يكترث به على الإطلاق، ما عدا هارولد بوكر الذي سمع عن الجعران من عمه آرثر.

والآن، يتصادَف أنني على درايةٍ أوَّلية بالرموز الهيروغليفية تكفي لتُمكِّنني من تهجِّيها حين تُستخدم على غِرار الحروف الأبجدية، وحالَما رأيتُ الختم استطعت أن أرى أن هذه الحروف تُشكِّل كلماتٍ إنجليزية. وكان أول ما جذب انتباهي هو المجموعة الثانية من العلامات، التي تعني كلمة «روبن»، ثم رأيت أن المجموعة الأولى تعني «العم». وبالطبع حالَما سمعت الآنسة نيلِّي تتحدَّث عن العلاقة بين الجعران والعم روبن، زال الغموض. وسرعان ما رأيت بلمحةٍ خاطفةٍ أن الجعران يحمل كل المعلومات المطلوبة. وفي الليلة

الماضية، رسمت الحروف الهيروغليفية رسمًا استشفافيًّا بعناية، ثم ترجمتها إلى أبجديتنا الإنجليزية. وهذه هي النتيجة.



(ترجمة الكتابة الهيروغليفية) (رسمة ثورندايك الاستشفافية لبصمة الجعران)

أخرج من حقيبة الرسائل الخاصة به نسخةً من الرسمة الاستشفافية التي رأيته يرسمها، والتي أعطاني منها نسخة، وبَسطها على المنضدة، لكنها كانت تحمل إضافةً جديدة إلى ما رأيتها عليه آخر مرة؛ فأسفلَ كل مجموعة من العلامات، كُتِبت الكلمات المُكافئة بخطٍّ «رومان» عصري، فكوَّنت هذه العبارة:

> العم روبين موجود في حقل طاحونة عُمق سيت قَدَم قمة برج كنيسة شمالًا عشرة ثلاثون شرقًا دينجل جنوبًا جَمَلون شمالًا ثمانون أربعون خمس غربًا ليحفظ الربُّ الملك جرج.

حدَّق صديقانا إلى ترجمة ثورندايك باندهاشٍ تام وفمَين فاغرَين، ثم قال بلوجريف أخيرًا: «ولكن لا بد أن هذه الترجمة تطلَّبت معرفةً عميقة جدًّا بالكتابة المصرية.»

أجاب ثورندايك: «لا إطلاقًا؛ فأيُّ شخص ذكي يستطيع أن يُتقِن معرفة الأبجدية المصرية في غضون ساعة، لكنَّ إتقان اللغة نفسها مسألةٌ مختلفة تمامًا بالطبع. وصحيحٌ أن هذه الكلمات مكتوبة بقليل من الركاكة، لكنها مفهومة تمامًا، وتجعل سيلاس جديرًا جدًّا بالمديح؛ نظرًا إلى قلَّة ما كان معروفًا في زمنه.»

فسأله بلوجريف: «كيف أغفل السيد فوكيه ذلك في رأيك؟»

كان الرد: «كان هذا طبيعيًّا تمامًا؛ فقد كان يبحث عن كتابةٍ مصرية، وهذه ليست كتابةً مصرية. هل يتكلَّم الإنجليزية؟»

«قليلًا جدًّا. هو لا يتكلَّمها تقريبًا.»

«إذن، فلأنَّ الكلمات كلماتٌ إنجليزية ومكتوبة بركاكة، لا بد أن الحروف الهيروغليفية بدت له محض هراء. وقد كان مُحقًّا في قوله بأن الجعران مُقلَّد.»

قال بلوجريف: «توجد نقطةٌ أخرى؛ كيف ارتكب هذا المدعو هارولد ذلك الخطأ العجيب في تحديد المكان؟ فالاتجاهات واضحة جدًّا، وكلُّ ما كان على المرء فعله أن يخرج إلى هناك ببوصلة ويقيس الاتجاهات الزاوية كما ذُكِرت في الرسالة فحسب.»

قال ثورندايك: «لكن هذا هو ما فعله بالضبط، وهنا يكمُن الخطأ؛ إذ يبدو أنه لم يكن على دراية بالظاهرة المعروفة باسم تبايُن البوصلة القرني؛ فكما تعرف، لا تُشير البوصلة — عادةً — إلى الشمال الحقيقي، بل إلى الشمال المغناطيسي، وموقع الشمال المغناطيسي يتغيَّر باستمرار. وحين دُفِن روبن في عام ١٨١٠ تقريبًا كان الشمال المغناطيسي يقع غرب الشمال الحقيقي بأربع وعشرين درجة وست وعشرين دقيقة، لكنه صار يقع في الوقت الحاضر غرب الشمال الحقيقي بأربع عشرة درجة وثمانٍ وأربعين دقيقة؛ لذا فلا بد أن اتجاهات هارولد الزاوية كانت مُنحرفة عن الاتجاهات الحقيقية بما لا يقلُّ عن عشر درجات، وقد قادَه ذلك بالطبع إلى موقعٍ خاطئ تمامًا، لكنَّ سيلاس كان رُبَّانًا وملَّاحًا، ولا شك بأنه كان يعرف كل شيء عن تقلُّبات البوصلة، ولأن توجيهاته كانت مُعَدَّة للاستخدام في عصرٍ مجهول له، افترضت أن الاتجاهات الزاوية التي ذكرها كانت اتجاهاتٍ زاويةً حقيقية، وأنه، حين قال «شَمال»، كان يقصد الشمال الحقيقي، الذي لا يتغير أبدًا، وقد اتَّضح أن هذا صحيح، لكنِّي أعددتُ كذلك خريطةً باتجاهاتٍ زاوية مغناطيسية مُصحَّحة وَفق الوقت الحاضر. ها هي الخرائط الثلاث: الخريطة «الأولى» — التي استخدمناها — تُظهِر الاتجاهات الزاوية الحقيقية، والخريطة «الثانية» تُظهِر الاتجاهات الزاوية المغناطيسية المُصحَّحة، التي ربما كانت ستُعطينا الموقع الصحيح،

والخريطة «الثالثة»، التي تحمل الاتجاهات الزاوية المغناطيسية غير المُصحَّحة، تُعطينا الموقع الذي حفر فيه هارولد، والذي لم يكن مُمكنًا أن يكون هو الموقع الصحيح.»

وفي صباح اليوم التالي، رافقتُ الصندوق المعدني الصغير، الذي كان مُمتلئًا بالغنيمة ومربوطًا بالجعران وموصدًا به، إلى مصرف السيد بلوجريف، وكانت هذه نهاية علاقتنا بالقضية، غير أننا بعد شهر أو اثنين، حضرنا في ساحة كنيسة «شوستيد» مراسمَ إزاحة الستار عن تمثالٍ تذكاري فخم لروبن بلوجريف؛ وذلك بناءً على دعوةٍ تلقَّيناها. كان التمثال ذا مظهرٍ غير لائق أشبه قليلًا بمسلة، ونُقِش عليه الاسم وتواريخ تقريبية، مع الآية القائلة: «ارْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ.» وقد علَّق عليها ثورندايك بنبرةٍ جادَّة ذات مغزًى فُكاهي ساخر، قائلًا إنه يظنُّ أن هذه العِظة تنطبق كذلك حتى لو كان الخبز مِلكَ شخصٍ آخر.

الفصل الثالث

أبو هول نيوجيرسي

قال صديقي ثورندايك ونحن ننعطف إلى ميدان «أبر بيدفورد بليس»: «هذا حيٌّ غريبٌ بعض الشيء يا جِرفيس؛ أشبه بقفصٍ كبير للطيور المُهاجرة، لا سيَّما تلك الطيور التي تنتمي إلى الأنواع الشرقية؛ فالوجوه الآسيوية والأفريقية التي يراها المرء عند نوافذ دور الإقامة في حي بلومزبري تكاد تُوحي بوقوع فيضان من معارض وصف الأعراق البشرية في المتحف البريطاني المُجاور لها.»

اتَّفقت معه قائلًا: «نعم، لا شك أن بلومزبري فيه عددٌ كبير جدًّا من السكَّان الأفارقة واليابانيِّين والهنود، لا سيَّما الهنود.»

وبينما كنتُ أتحدَّث، وفي مشهدٍ بدا كأنه مَثلٌ توضيحي لكلامي، اندفع رجلٌ داكن البشرة خارجًا من نُزلٍ يقع في الشارع نفسه على بُعدِ بضعة أبنية، وبدأ يتقدَّم نحونا بمِشيةٍ سريعة مُرتبِكة، وكان يتوقَّف لينظر إلى كل باب أمامي حين يصل إليه. وقد لفت خروجه بلا قبَّعة — مع أنه كان حسن الهندام للغاية — وسلوكه المتوتِّر، انتباهي، وانتباه ثورندايك أيضًا؛ إذ قال: «يبدو أن صديقنا في ورطة؛ ربما حادث أو مرض شديد مُفاجئ.»

وهنا ركض ذلك الغريب، الذي كان يُراقِب اقترابنا منه، نحونا ليُقابلنا، وسألَنا بنبرةٍ مُرتبِكة: «هلَّا تُخبرانني، من فضلكما، أين يُمكنني العثور على طبيب؟»

أجابه ثورندايك: «أنا طبيب، وكذلك صديقي.»

فقبض الرجل، الذي عرَّفناه بأنفسنا للتَّو، على كُمِّ ثورندايك وصاح بلهفةٍ: «إذن، فلتأتِ معي بسرعةٍ إذا سمحت. لقد وقع حادثٌ مروِّع للغاية.»

أسرَع بنا في مشية هي بين الهرولة والسير السريع، وبينما كُنَّا نسير، أضاف بانفعال: «إنني مشوَّش ومذعور جدًّا، الأمر كله غريب ومُفاجئ وفظيع للغاية.»

فقال له ثورندايك: «حاوِلْ أن تُهدِّئ من رَوعك قليلًا، وتُخبِرنا بما حدث.»

ردَّ عليه بانفعال: «حسنًا. إنه ابن عمي ديناناث بيرامجي، وهو يشترك معي في اسم العائلة. لقد ذهبت للتَّو إلى غرفته، وانتابَني الذُّعر حين وجدته مُستلقيًا على الأرض يُحدِّق إلى السقف وينفخ هكذا.» وعندها ملأ خدَّيه بالهواء مُحدِثًا صوت زفير خافتًا، ثم أضاف: «كلَّمته وهززت يده، لكنه كان كالميت. هذا هو النُّزل.»

اندفع راكضًا على العتبات الخارجية نحو بابٍ مفتوح كان يحرسُه خادمٌ صبي يبدو في وجهه الذُّعر، ورَكَض بطول البَهو وصعد الدَّرج بسرعة. تبِعناه من كثبٍ حتى وصلنا إلى بسطة درج مُعتِمة بعضَ الشيء في الطابق الأول، حيث كانت خادمة تقف عند بابٍ نِصف مفتوح وهي تستمع بقسَماتٍ مذعورة إلى صوتِ شخيرٍ إيقاعي يصدُر من الغُرفة.

كان الرجل الفاقد الوعي مُستلقيًا على الأرض يُحدِّق بثبات إلى السقف بعينَين فاغرتَين ولامعتين كالزجاج، وينفخ خدَّيه قليلًا عند كل زفير، مثلما قال السيد بيرامجي، لكن التنفُّس كان ضحلًا وبطيئًا، وازداد بعد ذلك بُطئًا ملحوظًا بينما ازدادت فترات توقُّفاته طولًا. وفي اللحظة التي كنت أقيس فيها وقت التنفُّس بساعة يدي، بينما كان ثورندايك يتفحَّص بؤبؤَي العينين باستخدام عود ثقاب شمعي، توقَّف تمامًا. وضعت إصبعي على معصمه وشعرت باختلاج نبضة بطيئة، أو اثنتين، ثم توقَّف النبض أيضًا.

قلت: «لقد فارَق الحياة. لا بد أن أحد شرايينه الكبيرة قد انفجر.»

فقال ثورندايك: «أجل، هذا صحيح على ما يبدو، مع أن ذلك مستبعَد الحدوث لشخص في عمره، ولكن مهلًا! ما هذا؟»

أشار إلى الأذن اليُمنى، التي كان يوجد في تجويفها بضع قطرات متجمِّعة من الدم، وبينما كان يتكلَّم، سحب يده إلى رأس الميت وحرَّكها برفقٍ من جانب إلى آخر.

وقال: «يوجد كسرٌ في قاع الجمجمة، وعلاماتٌ بارزة جدًّا على وجود كدمة في فروة الرأس.» التفت إلى السيد بيرامجي الذي كان يفرك إحدى يدَيه بالأخرى ويُحدِّق إلى الميت بنظراتٍ لا تُصدِّق ما حدث، وسأله: «ألديك أي توضيح بخصوص ذلك؟»

فنظر إليه الهندي باندهاش، وقد بدا أن الفاجعة المُفاجئة شلَّت دماغه، وقال: «لا أفهم. ماذا يعني ذلك؟»

أجاب ثورندايك: «يعني أنه تلقَّى ضربةً قوية على رأسه.»

ظلَّ السيد بيرامجي يُحدِّق باندهاش إلى زميلي بضع لحظات أخرى، ثم بدا أنه قد أدرك أهميةَ ملحوظةِ ثورندايك فجأةً؛ إذ انتصب بانفعال وتوجَّه نحو الباب الذي كان الخادم الصغير والخادمة يقفان خارجه.

وسألهما: «أين ذهب الشخص الذي جاء مع ابن عمي؟»

قالت الخادمة للخادم: «لقد رأيتَه يخرج يا ألبرت. أخبر السيد بيرامجي بالوجهة التي ذهب إليها.»

دخل الخادم إلى الغرفة على أطراف أصابعه بعينين خائفتين تُحدِّقان إلى الجثَّة، وأجاب بتردُّد: «لم أرَ سوى ظهره وهو يخرج، وكلُّ ما أعرفه أنه اتَّجه نحو اليسار. ربما ذهب بحثًا عن طبيب.»

فسأله ثورندايك: «هل تستطيع أن تُعطينا أي وصف له؟»

فكرَّر الخادم كلامه قائلًا: «لم أرَ سوى ظهره. لقد كان رجلًا قصير القامة، وكان يرتدي حُلةً داكنة، ويعتمر قُبعةً صلبة من اللُّباد. هذا كل ما أعرفه.»

قال له ثورندايك: «شكرًا لك. قد نرغب في أن نطرح عليك مزيدًا من الأسئلة قريبًا.» وبعدما أوصل الخادم إلى الباب، أغلقه واتجه إلى السيد بيرامجي.

سأله: «هل تعرف أي شيء عن هُوية الشخص الذي كان مع ابن عمك؟»

أجابه قائلًا: «لا، إطلاقًا. لقد كنت جالسًا أكتب في غرفتي المقابِلة لهذه الغرفة، حين سمعت ابن عمِّي يصعد الدَّرج مع شخصٍ آخر كان يتحدَّث إليه، لكني لم أستطع سماع ما كان يقوله. بعد ذلك دخلا غرفته — أي هذه الغرفة — وكنت أسمع أصواتهما من حين إلى آخر. وفي غضون ربع ساعة تقريبًا، سمعت الباب يُفتَح ويُغلَق، وسمعت أحدًا ينزل الدَّرج بهدوء وسرعةٍ بعض الشيء. أنهيت الرسالة التي كنت أكتبها، وحين وضعت عليها العنوان المطلوب، جئت إلى هنا لأسأل ابن عمي عن هُوية الزائر. ظننت أنه ربما يكون شخصٌ ما قد أتى للتفاوض بشأن الياقوتة.»

صاح ثورندايك: «ياقوتة! أيَّ ياقوتةٍ تقصد؟»

أجاب بيرامجي: «الياقوتة الكبيرة، لكنك بالطبع لا ...» سكت فجأةً، ووقف بضع لحظات يُحدِّق إلى ثورندايك بشفتَين مفتوحتَين وعينَين فاغرتين، ثم استدار فجأةً وجثا على ركبتَيه بجوار الرجل الميت، وبأسلوبٍ غريب مُلاطف شبيه بالاعتذار، بدأ يُمرِّر يديه برفق على الجثة عند الخصر أولًا، ثم حلَّ أزرار ثيابه، وقد كشف ذلك عن حزامٍ جِلدي أنيق ناعم، من الواضح أنه مصنوع في وطنه. كان الحزام مربوطًا على جِلده مباشرةً،

وبه ثلاثة جيوب قد فكَّ السيد بيرامجي أزرارها وتفقَّدها واحدًا تِلو الآخر بسرعة، وكان واضحًا أنها كانت فارغةً كلها.

تحدث بنبرةٍ خافتةٍ حادَّة تعبِّر عن حسرته قائلًا: «لقد ذهبت أدراجَ الرياح! ذهبت! آه! ويا لَضآلة أهميتها! فأنت يا عزيزي ديناناث، أنت يا أخي، يا صديقي، قد ذهبت أيضًا!»

رفع يد الميت وضغطها على خدِّه، مُهمهِمًا بكلماتٍ مُحِبة بلُغته. وسرعان ما وضعها على الأرض بتبجيلٍ شديد، ثم نهض وقد أذهلني التغيُّر الذي طرأ على هيئته؛ إذ تحوَّل الوجه المُرهَف اللطيف الرقيق فجأةً إلى وجهٍ غاضب شرس شرِّير انتقامي.

صاح بصوتٍ أجشَّ: «هذا الحقير يجب أن يموت! هذا الوحش الخسيس الذي سحق حياةً ثمينة دون ندم مِثلما يسحق المرء ذبابةً بلا مُبالاةٍ من أجل بلورة تافهة يجب أن يموت، حتى لو اضطررت إلى أن أُلاحقَه وأخنقه بيديَّ.»

فوَضع ثورندايك يده على كتف بيرامجي، وقال له: «إنني أقدِّم لك خالص التعازي في مُصابك. وإذا صحَّ ظنُّك، وكذلك ما تُوحي به الشواهد الظاهرية بأن ابن عمك قد قُتِل في حادثة بغرض السرقة، فسيدفع القاتل حياته ثمنَ فعلته، وستصرخ العدالة بعلو صوتها مُطالبةً بالقصاص. ستتَّضح حقيقة القتل، سواءٌ بالتأكيد أو النفي، بإجراء تحقيق مُناسب. وفي هذه الأثناء، علينا أن نعرف هُوية هذا الرجل المجهول، وما حدث حين كان مع ابن عمك.»

أومأ بيراجمي إيماءةً يائسة، وقال: «لكن الرجل قد اختفى، ولم يرَه أحد! ماذا بوسعنا أن نفعل؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «دَعنا ننظر حولنا ونرى ما إذا كان بوسعنا اكتشاف ما حدث في هذه الغرفة. ما هذا على سبيل المثال؟»

التقط شيئًا جِلديًّا صغيرًا من رُكنٍ قريب إلى الباب، وناوَله إلى السيد بيراجمي، فأمسكه الهندي بلهفة، وصاح قائلًا: «آه! إنها الصُّرَّة الصغيرة التي كان ابن عمي يحفظ فيها الياقوتة؛ إذن، فقد أخذها من حزامه.»

فاقترحت قائلًا: «أليس من المُمكن أن تكون قد سقطت؟»

وهنا سرعان ما جثا السيد بيرامجي على ركبتَيه، وبدأ يُحدِّق إلى الأرض ويتلمَّسها، وانضممت أنا وثورندايك إليه بحثًا عن الياقوتة، لكننا لم نجد لها أثرًا مِثلما كان متوقَّعًا على الأرجح، ولا وجدنا أي شيء آخر في حقيقة الأمر عدا قبعة التقطتُها من أسفل المِنضدة.

نهض السيد بيرامجي مُغتمًّا، وقال: «لا. لقد ذهبت أدراجَ الرياح، لقد ذهبت بالطبع، والقاتل الشرير ...»

حينئذٍ لمح القبعة، التي كنتُ قد وضعتها على المنضدة، وانحنى إلى الأمام ليتأمَّلها.

سأل وهو يُلقي نظرةً خاطفة على الكرسي الذي كانت قبعتي وقبعة ثورندايك موضوعتين عليه: «قُبعة مَن هذه؟»

فسأله ثورندايك: «أليست قبعة ابن عمك؟»

ردَّ قائلًا: «نعم، ليست قبعته بالتأكيد. لقد كانت قبَّعته مثل قبعتي؛ فقد اشتريناهما معًا، وهي مُبطَّنة ببطانةٍ حريرية بيضاء، وتحمل الأحرُف الأولى من اسمه: «دي بي» مكتوبين بخطٍّ ذهبي. أما هذه القبعة، فهي بلا بطانةٍ وأقدم بكثير. لا بد أنها قبعة القاتل.»

قال ثورندايك: «إذا صحَّ ذلك، فستكون هذه حقيقةً مهمة للغاية، وستكون مهمةً من ناحيتين. أتسمح لنا برؤية قبعتك؟»

أجاب بيرامجي وهو يمشي نحو الباب بخطواتٍ سريعة هادئة: «بكل تأكيد.» وعندما خرج مُغلِقًا الباب وراءه بصمت، أمسك ثورندايك القبعة المتروكة، وجرَّبها بسرعةٍ على رأس الرجل الميت. وقد كنتُ أرى أنها مناسبةً لحجم رأسه، وهذا ما أكَّده ثورندايك وهو يُعيد وضعها على المنضدة.

قال لي: «إنها تُناسِب حجم رأسه مِثلما ترى، وإن كان ذلك بدرجةٍ ما على الأقل، وتلك حقيقةٌ تحمل قدرًا من الأهمية.»

وحينها عاد السيد بيرامجي بقبعته، ووضعها على المنضدة بجوار القبعة الأخرى، وبعدما صارت القبعتان موضوعتين على ذلك النحو، بحوافِّيهما في الأسفل وتاجَيهما في الأعلى، بدا أن بينهما تشابهًا كبيرًا؛ فقد كانت كلتاهما سوداء مصنوعة من اللباد الصلب على طراز «قبَّعات بولر» الشائع، ومن نوعيةٍ فاخرة، ولم يكن الفارق في العمر والحالة العامة بينهما لافتًا، لكن حين قلَبهما بيرامجي رأسًا على عقب، وعرَض تجويفَيهما الداخليَّين، لاحَظنا أن تجويف القبعة الغريبة لم يكن مُبطَّنًا باستثناء عصابة الرأس الجِلدية، فيما كانت قبعة بيرامجي مُبطَّنة ببطانةٍ حريرية بيضاء، وتحمل الحرفين الأوَّلَين من اسم صاحبها بكتابةٍ مُطرَّزة مُذهَبة.

قال ثورندايك وهو يُقارن بين القبعتَين بإمعان: «ما حدث يبدو واضحًا بعض الشيء. حين دخل الرجلان إلى الغرفة، وضعا قبعتَيهما، بحوافِّهما في الأسفل وتاجَيهما في

الأعلى، على المنضدة. وبطريقةٍ ما — ربما في أثناء شجارٍ بينهما — سقطَت قبعة الزائر وتدحرجت إلى أسفل المنضدة. وحين همَّ ذاك الرجل الغريب بالمغادَرة بعد ذلك، أخذ القبعة الوحيدة التي كانت في مَرمى بصره آنذاك — والتي تكاد تُشبِه قبعته تمامًا — واعتمرها.»

فسألته: «أليس غريبًا بعض الشيء أنه لم يشعر بإحساسٍ مختلف حين اعتمر قبَّعةً غريبة على رأسه؟»

أجاب ثورندايك: «لا أظنُّ ذلك. وإذا كان قد شعر بأي شيء غريب، فالأرجح أنه افترض أنه اعتمرها بوضعيةٍ مُعاكِسة. تذكَّرْ أنه كان مُتعجِّلًا ومُرتبكًا للغاية، ولم يكن ليجرؤ على المجازَفة بالعودة إلى المنزل بعد أن غادَره، مع أنه أدرك خطورة الخطأ الذي ارتكبه بلا شك.» ثم أضاف مُخاطِبًا السيد بيرامجي: «والآن، هلَّا تُعطِينا بضع تفاصيل. لقد تحدَّثت عن ياقوتةٍ كبيرة كانت لدى ابن عمك، ويبدو أنها مفقودة.»

«نعم، فلتتفضَّلا بالمجيء إلى غرفتي، وسأُحدِّثكما عنها، لكن دعونا أولًا نضع ابن عمي المسكين على فراشه في وضعيةٍ لائقة احترامًا له.»

قال ثورندايك: «أعتقد أنه لا يَنبغي تحريك الجثة إلى أن تتفحَّصها الشرطة.»

وافَق بيرامجي على مضض قائلًا: «ربما تكون مُحِقًّا، غير أن تركه مُستلقيًا هناك بهذه الطريقة يبدو قاسيًا.» توجَّه بعد ذلك إلى الباب بتنهيدةٍ مُتحسِّرة، وتبعه ثورندايك حاملًا القبعتَين.

قال مُضيفنا حين جلسنا في غرفته الكبيرة المخصَّصة للنوم والجلوس: «كنت أنا وابن عمي مُهتمَّين بالأحجار الكريمة؛ فأنا أُتاجر في كل أنواع الأحجار التي توجد في الشرق، أما ديناناث فقد كان يُتاجر في الياقوت وحده تقريبًا. لقد كان خبيرًا شديد البراعة في هذه الأحجار الكريمة الجميلة، وكان من عادته أن يذهب إلى بورما في جولاتٍ استكشافية دورية بحثًا عن ياقوتٍ غير مصقول ذي حجم غير عادي أو جودة استثنائية. ومنذ حوالَي أربعة أشهر، حصل من مدينة موجوك، في بورما العُليا، على ياقوتةٍ رائعة ذات لون خلَّاب للغاية وخالية تمامًا من العيوب تَزِن أكثر من ثمانية وعشرين قيراطًا. وصحيحٌ أنها لم تكن مصقولة، لكن ابن عمي كان يعتزم إعادة صقلها ما لم يتلقَّ عرضًا مُربِحًا لشرائها قبل ذلك.»

فسألته: «ما قيمةُ حجرٍ كريم كهذا؟»

«من المُستحيل الجزم بذلك؛ فياقوتةٌ كبيرة فاخرة ذات لون مثالي أثمنُ بأضعافٍ مُضاعفة من أفخر ماسة بالحجم نفسه. إنها أثمن الأحجار الكريمة، ربما باستثناء الزمرد؛ فياقوتةٌ فاخرة تَزِن خمسة قيراطات تُقدَّر بثلاثة آلاف جنيه تقريبًا، لكن الثمن يرتفع بشدة مع زيادة الحجم بالتأكيد؛ ومن ثَم فربما يكون الثمن المعتدل لياقوتة ديناناث هو خمسين ألف جنيه.»

وفي أثناء هذا السَّرد، لاحظتُ أن ثورندايك كان يُقلِّب قبعة الرجل الغريب بين يديه مُتفحِّصًا إيَّاها بدقةٍ من الداخل والخارج وهو يُصغي باهتمام. وحين اختتم بيرامجي كلامه، علَّق ثورندايك قائلًا:

«يجب أن نُبلغ الشرطة بما حدث، لكن لأننا سنُستدعى أنا وصديقي بصفتنا شاهدَين، فأنا أرغب في تفحُّص هذه القبعة بدقةٍ أكبر قبل أن تُسلمها إليهم. هلَّا تتكرَّم بإحضار فرشاة صغيرة صلبة لي. أظنُّ أن فرشاة أظافر جافَّة ستَفي بالغرض.» فامتثل مُضيفنا على الفور، وبلهفة في حقيقة الأمر. كان من الواضح أن طريقة ثورندايك الموثوقة الهادفة قد بَهرَته؛ ذلك أنه تحدَّث إلى زميلي وهو يُعطيه فرشاة أظافر جديدة، وقال: «إنني أشكرك على مساعدتك وأقدِّرها. يجب ألا نتَّكل على الشرطة فقط.»

ولأنني كنت قد أَلِفتُ أساليب ثورندايك، فلم يُفاجِئني تصرُّفه. أما السيد بيرامجي فقد ظلَّ يُراقبه باهتمامٍ شديد ودهشةٍ كبيرة وهو يضع ورقةَ كتابة على المنضدة ويُقرِّب القبعة منها ويَفرشها بقوة على مهل؛ كي يتساقط التراب المُتطاير عنها على الورقة. ولأن القبعة لم يكن مُعتنًى بها جيدًا، فقد كانت كمية التراب الناتج كبيرة، لا سيَّما حين سحب ثورندايك الفرشاة أسفل الطرف المُلتوي من حوافِّ القبعة، وسرعان ما أصبحت الورقة تحمل كومةً صغيرة من التراب. طوى ثورندايك الورقة على هيئة ظرف صغير، وبعدما كتب عليها «الخارج» وضعها في محفظته.

سأله السيد بيرامجي: «لماذا تفعل ذلك؟ ما الذي ستعرفه من التراب؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «قد لا يُخبرني بأي شيء، لكن هذه القبعة هي مفتاحنا المباشر الوحيد لمعرفة هُوية الرجل الذي كان مع ابن عمك، ويجب أن نستفيد منها بأقصى استفادة. ومِثلما تعلم، فالتراب ليس سوى مجموعة من فُتاتٍ منفصِلة عن الأشياء المُحيطة. وإذا كانت هذه الأشياء غير عادية، فربما يكون التراب مميَّزًا جدًّا؛ لذا يُمكنك أن تُميِّز قبعة الطحَّان أو المُشتغل بالأسمنت بسهولة.» وبينما كان يتكلم، قلَب القبعة، وطوى بطانة عصابة الرأس الجلدية إلى الأسفل، فسقطت عدة قصاصات ورقية مطوية داخل تجويف التاج.

فصاح بيرامجي قائلًا: «آه! ربما سيدلُّنا ذلك إلى شيء.»

أمسك القصاصات المطوية وبدأ يفتحها بلهفة، وتفحَّصناها نحن بنظام، واحدةً تِلو الأخرى، غير أنها كانت مُخيِّبة لآمالنا بشدة، وخالية من أي معلومات مفيدة. كان معظمها يتألف من أشرطةٍ مُقتطَعة من صُحُف، مع منشور إعلاني أو اثنين، وصفحةٍ من قائمة أسعار لمواقد الغاز، وقطعةٍ من ظرفٍ كبير كان يحمل بقايا عنوان تُقرَأ هكذا: «...ن ...دن، دبليو سي» وقصاصة ورقية كان من الواضح أنها اقتُطعت رأسيًّا، وتحمل النصف الأيمن من قائمةٍ ما، وقد جاء فيها:

«...يل ٣ أوقيات. ٥ وحدات وزن بنس ترويسي.

...اسة ٩ أوقيات ونصف.»

سألت ثورندايك وأنا أُعطيه الورقة: «هل تستطيع أن تفهم أيًّا من هذا؟»

فتأمَّلها، وأجاب وهو يُدوِّن مضمونها في دفتر ملاحظاته: «إنها تحمل طابعًا ما، على الأقل. وإذا وضعناها في الحُسبان مع المُعطَيات الأخرى، سنستخلص منها تلميحًا ما، لكنَّ هذه القُصاصات الورقية لا تُخبِرنا بالكثير. ربما تكون أكثر سماتها إيحاءً بشيءٍ معَّين هي كميتها والكيفية التي رُتِّبت بها في جوانب القبَّعة الداخلية، كما لاحظتَ بلا شك. من الأفضل أن نُعيدَها إلى مكانها كما وجدناها، من أجل مصلحة الشرطة.»

لم تكن طبيعة الإيحاء الذي أشار إليه واضحةً لي، لكن وجود السيد بيرامجي أثناني عن مناقشة زميلي بشأن هذا الأمر، وكذلك لم تسنح أي فرصة لذلك؛ فحالما أعَدنا القصاصات إلى مكانها في القبعة، شعرنا بعددٍ من الأشخاص يصعدون الدَّرج، ثم سمعنا صوت قرع آمِر بعضَ الشيء على باب غرفة الرجل الميت.

فتح السيد بيرامجي باب غرفته المُقابلة وخرج إلى بسطة الدرج، حيث كان يُوجد عدة أشخاص مجتمعين، من بينهم الخادمة والخادم وشُرطي.

فقال الشرطي: «عرفتُ أن ثَمة مُشكلةً هنا، أهذا صحيح؟»

أجاب بيرامجي: «لقد وقع حادثٌ شديد الفظاعة، لكن الطبيبَين يستطيعان إخبارك بما حدث أفضل منِّي.» وحينها نظر باستنجاد إلى ثورندايك، فخرجنا وانضممنا إليه.

قال ثورندايك: «ثَمة رجلٌ مُهذَّب — يُدعى السيد ديناناث بيرامجي — قد لقيَ حتفَه في ظروفٍ مُريبة بعضَ الشيء.» وبعدما ألقى نظرةً خاطفة على زمرة الأشخاص الذين دفعهم فضولهم الطبيعي إلى الاحتشاد في ردهة الطابق، أضاف قائلًا: «إذا تفضلتَ بدخول الغرفة التي وقعت فيها الوفاة، سأعطيك الحقائق التي نعرفها حتى الآن.»

فتح الباب، ودخل الغرفة معي ومع السيد بيرامجي والشرطي. ومع فتح باب الغرفة، مدَّ المُتفرِّجون الواقفون أعناقهم إلى الأمام ليرَوا ما بداخل الغرفة، وأطلقت امرأةٌ في منتصف عُمرها صرخةَ ذُعْر، وتبعتنا إلى داخل الغرفة.

صاحت وهي تنظر نظرةً سريعة مُرتعِدة إلى الجثة: «هذا مُروِّع! لقد أخبرني الخُدَّام بذلك حين أتيت إلى النُّزل للتَّو، فأرسلتُ ألبرت إلى الشرطة في الحال، ولكن ماذا يعني ذلك؟ أتظنون أن السيد ديناناث المسكين قد قُتِل؟»

قال الشُّرطي وهو يُخرِج دفتر ملاحظات أسود كبيرًا ويضع خوذته على المنضدة: «من الأفضل أن نجمع الحقائق يا سيدتي.» ثم التفت إلى السيد بيرامجي، الذي كان قد ارتمى على كرسي وجلس يُحدِّق إلى جثَّة ابن عمه بحزنٍ عميق، وسأله: «هلا تتفضَّل بإخباري بما تعرفه عن كيفية حدوث ذلك.»

كرَّر بيرامجي خُلاصة ما قاله لنا، وحين دوَّن الشُّرطي أقواله، أدليتُ أنا وثورندايك بالتفاصيل الطبية القليلة التي استطعنا تقديمها بخصوص الحادث، وأعطينا الشرطي بطاقتَينا. وبعدما ساعدنا في وضع الجثة على الفراش وغطَّيناها بملاءة، تهيَّأنا للرحيل.

قال السيد بيرامجي وهو يُصافحنا بحرارة: «لقد كُنتما كريمَين معي للغاية. خالصُ امتناني لكما.» واختتم كلامه بنبرةٍ مُتكتِّمة، قائلًا: «إذا سمحتما لي، فربما أزوركما لأعرف ما إذا ... إذا توصَّلتُما إلى أي شيء جديد.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «سنَسعد برؤيتك وتقديم أي مساعدة ممكنة لك.» رحلنا بعد ذلك وظلَّ النزلاء والخُدَّام، الذين كانوا ما يزالون منتظرين بجوار غرفة الوفاة، يُراقبون نزولنا على الدَّرج بفضول.

قلت بينما كنا نسير عائدين إلى مكتبنا: «إذا لم يكن لدى الشرطة معلوماتٌ أكثر ممَّا لدينا، فلن يكون لديهم خيوطٌ كثيرة يُمكنهم الانطلاق منها في التحقيق.»

قال ثورندايك: «لا، لكن يجب أن تتذكَّر أن هذه الجريمة — التي يحقُّ لنا افتراض أنها هكذا بناءً على أسبابٍ وجيهة — ليست جريمةً مُنعزلة، بل هي الجريمة الرابعة من النوع نفسه تقريبًا في الأشهر الستة الأخيرة. وأنا أعرف أن الشرطة لديها معلوماتٌ ما عن المشتبَه به، مع أنها قد لا تكون ذات قيمة كبيرة؛ نظرًا إلى عدم إلقاء القبض على أحد حتى الآن، لكن يُوجد بعض الأدلة الجديدة هذه المرة؛ فتبديل القبعتَين قد يُساعد الشرطة مساعدةً جمَّة.»

«كيف؟ ما الدليل الذي تُقدِّمه؟»

«إنها تُشير في المقام الأول إلى رحيله على عَجَل، وهو ما يَربط بين الرجل المفقود والجريمة على ما يبدو. وثانيًا، فهو يعتمر قبعة الرجل الميت، وصحيحٌ أنه من المُستبعَد أن يُواصِل اعتمارها، لكنها قد تُرى وتُقدِّم دليلًا. ونحن نعرف أيضًا أن تلك القبَّعة تُناسب حجم رأسه جدًّا، ونعرف حجمها؛ أي أننا نعرف حجم رأسه. وأخيرًا، لدينا القبَّعة الخاصة بالرجل نفسه.»

قلت له: «لا أظنُّ أن الشرطة ستستخلص من هذا معلوماتٍ كثيرة.»

اتَّفق مع رأيي قائلًا: «هذا صحيح على الأرجح، لكنه يُقدِّم تلميحًا مُهمًّا أو اثنين، ولعلك لاحظتَ ذلك.»

قلت له: «كلا، لم أستخلص من ذلك أيَّ تلميحات على الإطلاق.»

فقال ثورندايك: «إذن، لا يُمكنني إلا أن أوصيك بتذكُّر الفحص البسيط الذي أجريناه، والتفكير في دلالة ما وجدناه.»

كان عليَّ تقبُّل إنهاء نقاشنا آنذاك بهذه العبارة، ولأنني كنت مضطرًّا إلى الذهاب إلى المكتبة لأتسلَّم بعض التقارير التي تركتها كي تُغلَّف، فقد افترقت عن ثورندايك عند ناصية زقاق «تشيتشستر رينتس»، وتركته يُواصل طريقه وحده. استغرق قضاء حاجتي في المكتبة وقتًا أطول ممَّا كنت أتوقَّع؛ إذ كان عليَّ الانتظار حتى إتمام الكتابة على الأغلفة الخلفية، وحين وصلت إلى مكتبنا في شارع «كينجز بنش ووك»، وجدت ثورندايك في المرحلة الأخيرة على ما يبدو من تجربةٍ كان من الواضح أنها مرتبطة بالمغامرة التي خُضناها مؤخرًا. كان المِجهر على الطاولة، فيما كانت توجد شريحةٌ على منضدته وشريحةٌ أخرى بجواره، ولكن كان من الواضح أن ثورندايك أنهى فحوصه المجهرية؛ إذ كان يحمل أنبوب اختبار مليئًا بمائعٍ دُخاني اللون حين دخلت عليه.

قلت له: «أرى أنك كنت تفحص الغبار الذي استخرجته من القبَّعة. أيوضِّح أي شيء جديد في القضية؟»

أجاب: «قليلًا جدًّا. إنه مجرَّد غبار شائع: أليافٌ متنوِّعة وجُسيماتٌ عضوية معدنية، غير أنني قد وجدت في تجويف القبَّعة الداخلي شعرتين كلتاهما بُنِّية فاتحة، وإحداهما من نوع الشعر الضامر الشبيه بعلامة التعجُّب الذي يجده المرء على حوافِّ بُقَع الصَّلع، فيما يُظهِر الغبار المُستخلَص من سطح القبعة الخارجي آثارًا دقيقة للرصاص، في شكل الأكسيد حسب ما يبدو. ما رأيك في ذلك؟»

فاقترحت قائلًا: «ربما يكون الرجل سبَّاكًا أو دهَّانًا.»

ردَّ قائلًا: «كلاهما مُمكن وجدير بأن نضعه في حُسباننا.» لكن نبرته أوحت إليَّ بأن هذا لم يكن استنتاجه الشخصي، وكنت قد رأيت صفًّا من خمسة سجلات مُتتالية من «سجلات دليل مكاتب البريد» مُمتدةً بطول حافَّة المنضدة، فأدركت منها أنه قد شكَّل فرضية بخصوص القضية بالفعل، وربما أكَّدها أو دحضها أيضًا؛ ذلك أن دليل مكتب البريد كان أحد الكتب المَرجعية المُفضَّلة لدى ثورندايك، وقد كان مقدار المعلومات الغريبة المُستعصية التي نجح في استخلاصها من صفحاته، والتي تحوي حقائق مُثبَتة، لتُفاجئ جامعي هذا الدليل أنفسهم أكثر ممَّا قد تُفاجئ أيَّ شخصٍ آخر.

حينئذٍ سمعنا صوت خطوات أقدام تصعَد الدَّرج المؤدي إلى مكتبنا. كان الوقت متأخرًا على مجيء زُوَّار من أجل العمل، لكننا كذلك لم نكن مُعتادين استقبال ضيوف في وقتٍ متأخر، ثم سمعنا طَرقةً مألوفة بمطرقة بابنا النُّحاسية الصغيرة تُفسِّر هذه الزيارة التي جاءت في وقتٍ غير مناسب.

قال ثورندايك وهو يسير بخطواتٍ طويلة عبر الغرفة ليفتح الباب: «تبدو هذه كطَرقة المُشرِف ميلر.» واتَّضح أن المُشرِف هو الطارق بالفعل، لكنه لم يكن وحده.

فحين فُتِح الباب، دخل المُشرِف الشرطي مع رجلين مُهذَّبين، كلاهما مواطنٌ هندي، وكان أحدهما هو صديقنا السيد بيرامجي.

قال ميلر: «ربما من الأفضل أن آتيَ بعد قليل.»

قال بيرامجي: «أتمنَّى ألا يكون ذلك بسببي؛ فليس لديَّ سوى بضع كلمات سأقولها، ولا يوجد سرٌّ في المسألة التي أتيتُ من أجلها. هل تأذنان لي بأن أقدِّم قريبي، السيد خامباتا، أحد طُلاب جمعية «إنر تمبل»؟»

انحنى رفيق السيد بيرامجي انحناءةً رسمية متأدِّبة، ثم قال: «لقد أتى بيرامجي إلى مكتبي للتَّو ليَستشيرني بشأن هذه القضية المُروِّعة، وتصادَف أنه أراني بطاقتك. لم يكن قد سمع عنك، وإنما ظنَّ أنك مجرد طبيب عادي. لم يُدرك أنه قد استضاف ملاكًا دون أن يعرف، لكنني لَمَّا كنت على دراية بصِيتك العظيم، فقد نصحته بأن يأتمنك على قضاء حاجته.» ثم أضاف بسرعة وهو ينحني للمُشرِف الشرطي: «دون الإضرار بالتحقيقات الرسمية.»

فقال السيد بيرامجي: «وأنا قرَّرت على الفور أن آخُذ بنصيحة قريبي. لقد جئت لأتوسَّل إليك أن تبذل قصارى جهدك لضمان مُعاقبة قاتل ابن عمي. ولا تكترث بشأن النفقات؛ فأنا ثريٌّ، وممتلَكات ابن عمي المسكين ستُصبِح مِلكي. أما بخصوص الياقوتة،

فاسترجعها إن استطعت، لكنها ليست مهمة. ما أطلبه هو الانتقام، العدالة. سلِّمْ ذاك الحقير إلى يديَّ، أو أيدي العدالة، وسأُعطيك الياقوتة، أو ثمنها طواعيةً وبكل سرور.»

قال ثورندايك: «لا داعي إلى هذا الإغراء الاستثنائي. إذا كنتَ تُريدني أن أحقِّق في هذه القضية، فسأفعل ذلك وسأستخدم كلَّ الوسائل المُتاحة لديَّ، دون الإضرار بالحقوق الأصيلة للسُّلطات مِثلما يقول صديقك، لكنك تعي أنني لا أستطيع تقديم أي وعود؛ إذ لا يُمكنني ضمان النجاح.»

فقال السيد خامباتا: «إننا نتفهَّم ذلك، لكننا نعلم أنك إذا تولَّيت القضية، فستفعل كل ما هو مُمكِن. والآن، يجب أن نترككما لتَتشاوَرا.»

وحالَما رحل عميلانا، نهض ميلر من كرسيِّه وهو يضع يده في جيبه المُلاصق لصدره، وقال: «أعتقد أيها الطبيب أنك تستطيع تخمين سبب مجيئي. لقد أُرسلتُ للتحقيق في قضية بيرامجي، وسمعت من السيد بيرامجي أنك كنت هناك، وأنك تفحَّصت قبعة الرجل المفقود فحصًا دقيقًا. لقد فحصتها أنا أيضًا، وأستطيع إخبارك بأنني لم أعرف أي معلومة منها.»

فقال ثورندايك: «أنا نفسي لم أعرف الكثير منها.»

فحثَّه ميلر على الحديث بقوله: «لكنك توصَّلت إلى شيءٍ ما، حتى وإن كان مجرَّد تلميح طفيف، أما نحن فلا نملك سوى خيطٍ ضعيف. إننا نكاد أن نكون مُتأكِّدين في أن هذا هو الرجل نفسه الذي نفَّذ تلك السرقات الأخرى: «أبو هول نيوجيرسي.» كما تُسمِّيه الصُّحف. وهو من نوعية المُجرمين الذين يستعصون للغاية على قبضة الشُّرطة؛ فهو جريء وحذِر ويرتكب جرائمه بمفرده، ويفعل أي شيء قد يخطر ببالك لتحقيق غايته. ليس لديه شركاء، وهو يقتل في كل سرقة يرتكبها. إن الشرطة الأمريكية لم تقترب من القبض عليه أبدًا سوى مرةٍ واحدة، وتلك المرة هي التي أعطتنا الخيط الوحيد الذي نملكه.»

فسأله ثورندايك: «بصمات أصابع؟»

«نعم، وبصماتٌ رديئة للغاية أيضًا؛ فهي ضبابيةٌ جدًّا لدرجةٍ تُعجزك عن رؤية نمطها، بل إننا لسنا متيقِّنين تمامًا من أنها بصماته، غير أن بصمات الأصابع لا تُفيد كثيرًا على أي حال إلى أن نقبض على الرجل. توجد أيضًا صورةٌ فوتوغرافية للرجل نفسه، لكنها مجرد لقطة خاطفة، فضلًا عن أنها صورةٌ رديئة أصلًا؛ فكل ما تُظهِره هو أن لديه شعرًا كثيفًا أشعث ولحيةً مدبَّبة، أو هكذا كان على الأقل وقت التقاط الصورة، لكنها بلا

جدوى تقريبًا في تحديد هويته. على أي حال، هذه هي حقيقة الموقف، وها هو الاقتراح الذي أقدِّمه إليك: نحن نريد هذا الرجل كما تُريده أنت، وقد عملنا معًا من قبل، ويستطيع كِلانا أن يثق بالآخر. سأكشف أوراقي، وأطلب منك أن تردَّ بالِمثل.»

قال ثورندايك: «لكنني يا عزيزي ميلر لا أملك أي أوراق. ليس لديَّ أي حقيقة راسخة واحدة.»

حينها بدا الإحباط جليًّا على المُحقِّق، غير أنه وضع صورتين على الطاولة ودفعهما نحو ثورندايك، الذي تفحَّصهما عبر عدسته، ومرَّرهما إليَّ.

علَّق ثورندايك عليهما قائلًا: «نمط البصمات ضبابيٌّ جدًّا ومتقطِّع.»

قال ميلر: «نعم، لا بد أن هذه البصمات تُركت على سطحٍ شديد الخشونة، وإن كان من المُمكِن الحصول على بصماتٍ مُشابهة من أصابع الميكانيكيِّين أو غيرهم من الرجال الذين يستخدمون المَبارد أو يشتغلون بالمعادن الخشنة. والآن، أيُّها الطبيب، ألا يُمكنك أن تُعطينا خيطًا استرشاديًّا من أي نوع؟»

فكَّر ثورندايك بضع ثوانٍ، ثم قال: «أنا فعلًا لا أمتلك أيَّ حقيقة راسخة، ولا أرغب في افتراض محض تخمينات تكهُّنية.»

ردَّ ميلر بابتهاج: «آه، لا بأس في ذلك. أعطِنا طرف الخيط، ولن أتذمَّر إذا لم يُوصِّلنا إلى شيء.»

قال ثورندايك على مضض: «حسنًا، كنت أفكِّر في الحصول على بضع تفاصيل بخصوص المُستأجرين المختلفين في المبنى رقم ٥١ في مجمع «كليفوردز إنَّ». لعلَّك إذن تستطيع فعل ذلك بسهولةٍ أكبر، ولعله يستحقُّ عناءك.»

صاح ميلر ببهجة الانتصار: «رائع! لقد «أعطى المجهول المُطلَق سكنًا محليًّا واسمًا.»»

ذكَّره ثورندايك قائلًا: «إنه الاسم الخاطئ على الأرجح.»

قال ميلر: «أنا لا أمانع ذلك، لكن لمَ لا نذهب معًا؟ لقد صار الوقت مُتأخرًا جدًّا على الذهاب الليلة، ولن أستطيع الذهاب في صباح الغد، لكن ما رأيك أن نذهب عصرًا؟ فرأسانِ أفضلُ من رأسٍ واحد كما تعلم، لا سيَّما إذا كان الثاني هو رأسَك أنت.» ثم أضاف بنظرةٍ خاطفة إليَّ: «أو ربما ستكون ثلاثة رءوس أفضل بكثير.»

فكَّر ثورندايك ثانيةً أو اثنتين، ثم نظر إليَّ.

وسألني: «ما رأيك يا جِرفيس؟»

ولمَّا لم يكن لديَّ أي مشاغل في عصر اليوم التالي، فقد وافقت بحماسة؛ إذ كنت أنا أيضًا كالمُشرِف أرغب في معرفة الكيفية التي تمكَّن بها ثورندايك من ربط هذا المكان

تحديدًا بالمُجرم المجهول المختفي. وهكذا رحل ميلر سعيدًا بموعد في الساعة الثالثة من عصر الغد.

وبعد مغادَرة المُشرِف، جلست لبعض الوقت مُستغرِقًا في تفكيرٍ عميق؛ فبطريقةٍ غامضةٍ ما، انبثق العنوان، أي المبنى رقم ٥١ في مجمع «كليفوردز إنَّ»، من البيانات العديمة المَعالم التي أسفرت عنها القبعة المتروكة، لكن ما هي العلاقة بين هذا وذاك؟ يبدو أنَّ قصاصة الظرف المُعنوَن قد قدَّمت هذا الخيط، لكن كيف فسَّر ثورندايك كلمة «...ن» على أنها تعني «المبنى رقم ٥١ في مجمع كليفورد إنَّ»؟ كان ذلك لُغزًا مستغلقًا عليَّ للغاية.

وفي هذه الأثناء، كان ثورندايك قد جلس أمام منضدة كتابة، ولاحظتُ أن إحدى الرسالتين اللتين كتبهما قد كُتِبت على ورقةٍ معنوَنة من الأعلى بشعار مكتبنا، وكُتِبت الأخرى على ورقةٍ فارغة عادية. وبينما كنت أحاول تخمين سبب ذلك، نهض من كرسيه، وقال لي وهو يَلصق الطوابع البريدية: «سأخرج الآن لأُرسل هاتين الرسالتين. هل تودُّ الخروج في نزهةٍ قصيرة عبر ظلال أشجار شارع «فليت ستريت»؟ ما زال المساء في بدايته.»

أجبته وأنا آخذ قبَّعتي من على المكتب المُجاوِر: «إن الأماكن الريفية المنعزلة من شارع «فليت ستريت» تجذبني في كل الأوقات.» وبهذا قد انطلقنا معًا، وتمشَّينا في شارع «كينجز بنش ووك»، ثم دخلنا شارع «فليت ستريت» عَبر طريق «ميتر كورت». وحين ألقى ثورندايك رسالتَيه في صندوق مكتب البريد، وقف يُحدِّق بُرهةً إلى الأعلى في اتجاه بُرج كنيسة سانت دونستان.

وسألني: «هل زُرْت مجمع «كليفوردز إنَّ» من قبلُ يا جِرفيس؟»

فأجبته (وقد كنا نمرُّ عليه حواليَ عشر مرات في الأسبوع): «كلا، لكن الأوان لم يفُت على إجراء زيارة استكشافية.»

فعبَرنا الطريق، وبعدما دخلنا زقاق «كليفورد إن باساج»، مررنا عبر البوَّابة التي كانت ما تزال مُواربة، وعبَرنا الفناء الخارجي، ثم دلَفنا خلال المَدخل النفقي مرورًا بالرواق إلى الفناء الداخلي، حيث توقَّف ثورندايك في منتصفه، وقال بينما كان ينظر إلى الأعلى نحو منزل قديم: يحمل «رقم ٥١».

قلت: «إذن، هنا يسكُن صديقنا.»

فاحتجَّ قائلًا: «آه، كُنْ منطقيًّا يا جِرفيس. إنني مُتفاجئ منك، فأنت سيئ مثل ميلر تمامًا. إنني لم أقترح سوى علاقة محتملة بين هذه المباني والقبعة التي تُرِكت في نُزُل

«بيدفورد بليس». أما بخصوص طبيعة هذه العلاقة، فأنا لا أعرف عنها أيَّ شيء، وربما يتبيَّن عدم وجود علاقة أصلًا. أؤكِّد لك يا جِرفيس أنني أسير على أرقِّ حبلٍ ممكن. أعمل على فرضيةٍ تخمينية للغاية، وكان ينبغي ألا أُعطي ميلر أيَّ تلميح، لكنه كان مُتلهِّفًا جدًّا، وراغبًا بشدة في تقديم المساعدة، إضافةً إلى أنني كنت أريد الحصول على بصمات الأصابع التي يَحُوزها، غير أننا ما زِلنا في البداية فقط في حقيقة الأمر، وقد لا نتقدم قيد أنملة أبدًا.»

نظرتُ إلى النُّزل القديم فوجدته مُعتمًا تمامًا باستثناء الطابق العُلوي، حيث ظهر من وراء نافذتين مُضاءتين ظلُّ رجلٍ يتحرك بسرعة في أرجاء الغرفة. عبَرنا إلى المدخل وتفحَّصنا الأسماء المَطلية على إطار الباب. كان الطابق الأرضي تشغله شركة لنقش الصور، وكان الطابق الأول يسكنه السيد كارينجتون، الذي كان اسمه بارزًا بوضوحٍ لافت على خلفيَّته المستطيلة ذات الطلاء الجديد نسبيًّا. أما الطابق الثاني، فقد كان يسكنه السيدان بيرت وهايلي خبيرا المعادن، واللذان بدا أنهما ساكنان قديمان؛ لأن اسمَيهما كانا مكتوبين بطلاءٍ باهت تغيَّر لونه.

وبينما كنت أقرأ الأسماء، قال ثورندايك مُشيرًا إلى شَطبتَين حمراوَين لم ألحظهما في الضوء الخافت: «لقد رحل بيرت؛ لذا فمن المفترض أن ذاك الرجل النشيط في الأعلى هو السيد هايلي، وبوسعنا أن نفترض أنه يستأجر هنا محلًّا لسَكنه ولعمله أيضًا. أتساءل الآن عمَّن يكون السيد كارينجتون وما تكون مهنته، لكنني أظنُّ أننا سنعرف ذلك غدًا.»

بعد ذلك، انصرف عن الحديث عن الجوانب المهنية في مجمع «كليفوردز إن»، وراح يتحدَّث عن تاريخ المجمع والمؤسَّسات التي شغلته، وظلَّ يُدردش بأسلوبه الخلَّاب الذي لا يُضاهى حتى أوصلنا تسكُّعنا المُتمهل أخيرًا إلى بوَّابة مجمع «إنر تمبل».

وفي صباح اليوم التالي، أنجزنا عملنا على عجَل لئلا يكون لدينا أي مَشاغل في وقت العصر؛ فأجرينا عدة زيارات مشتركة إلى مُحامين كنا نتلقَّى منهم توجيهات. وبينما كنا عائدين من زيارتنا الأخيرة، والتي كنا قد قصدنا فيها أحدَ محاميِّ المدينة، دخل ثورندايك مبنى «سانت هيلين بليس»، وتوقَّف عند مدخل يحمل اللوحة النحاسية لإحدى شركات المُقايَسة والتكرير. تبعته إلى المكتب الخارجي، حيث جاء رجلٌ مُسِنٌّ إلى النُّضُد عند ذكر اسمه.

تحدَّث قائلًا: «لقد ترك لك السيد جرايسون بعض العيِّنات يا سيدي. إن تركيزها يبلغ حوالَي ثلاثين حبَّةً في الطن — لقد قلتَ إن محتوى العيِّنات نفسه ليس مُهمًّا —

وأودُّ إخبارك بأنك لست مُضطرًّا إلى إعادتها؛ فهي لا تستحقُّ المعالَجة.» اتَّجه بعد ذلك إلى خزنةٍ كبيرة أخذ منها كيسًا كتَّانيًّا، وحين عاد إلى النُّضُد، أفرَغ عليه محتويات الكيس التي كانت تتمثَّل في اثنتَي عشرة كتلةً كبيرة من الكوارتز وكَسرةٍ صفراء مُتلألئة أخذها ثورندايك ووضعها في جيبه.

سأله الرجل: «هل ستَفي هذه المجموعة بالغرض؟»

أجاب ثورندايك: «ستُلبِّي غرضي تمامًا.» وحين أُعيدَت العيِّنات إلى الكيس، ووضعه ثورندايك في حقيبة يده، شكر المُساعد، ومَضينا في طريقنا.

قلت له: «يبدو أننا نُوسِّع نشاطنا إلى مجال علم المعادن.»

فابتسم ثورندايك ابتسامةً غامضة، وقال: «ونستخدم أيضًا مضخَّة الشفط كأداةٍ بحثية. على أي حال، فإن الاستخدامات الاستراتيجية لكُتَل الكوارتز — بخلاف استخدامها كقذائف — ستكشف عن نفسها في الوقت المُناسب، ويُمكن اغتنام الوقت المتبقِّي حتى ذلك الحين في التفكير.»

فعلتُ ذلك، لكن تفكيري لم يُسفر عن إجابة. ومع ذلك، فقد لاحظتُ حين خرجنا في الساعة الثالثة عصرًا مع المُشرِف أن الكيس قد جاء معنا، وبعدما عرضتُ أن أحمله، وقبِل ثورندايك عرضي بلمعةٍ خبيثة في عينَيه، أكَّد لي وزنه أن الكوارتز ما يزال داخله.

قرأ ثورندايك بصوتٍ عالٍ ونحن ندنو من حجرة البوَّاب: «غُرَف ومكاتب للإيجار. أظنُّ أن ذلك يسمح لنا بالدخول. والبوَّاب يعرف الدكتور جِرفيس ويعرفني من مَظهرنا؛ لذا سيتكلَّم بحرِّيةٍ أكبر.»

قال المُشرِف: «إنه لا يعرفني، لكني مع ذلك سأبقى في الخلفية.»

سَحبنا الجَرس، فخرج رجلٌ ذو مَظهرٍ أشبه برجال الدين يعتمر قبَّعةً طويلة، ويرتدي سترةً طويلة مشقوقة الذيل، وكان يُحدِّق عبر نظارته إلى ثورندايك وإليَّ بانطباعٍ ودِّيٍّ يوحي بأنه عرفنا.

قال ثورندايك: «مساء الخير يا سيد لاركن. لقد طُلِب منِّي معرفة تفاصيل غُرَف شاغرة؛ فما الغُرف المُتاحة للإيجار لديك؟»

فكَّر السيد لاركن، ثم قال: «دعني أرى. يوجد طابقٌ أرضي مُتاح في المبنى رقم ٥ — مُعتِمٌ بعض الشيء — وتوجد شقةٌ صغيرة من غرفتَين في الطابق الثاني بالمبنى رقم ١٢. وتوجد أيضًا … آه، تذكَّرت، توجد شقةٌ جيدة من غرفتين في الطابق الأول بالمبنى رقم ٥١. كان من المفترض ألا تُصبحا شاغرتَين قبل عيد الملاك ميخائيل، لكن

السيد كارينجتون، المستأجِر، اضطرَّ إلى السفر خارج البلاد فجأةً. لقد تلقَّيتُ صباح اليوم رسالةً منه تحوي المفتاح، وهي رسالةٌ مُضحِكة أيضًا بالمناسبة.» ثم غاص بيده في جيبه، وأخرج حزمة من الرسائل، واختار منها واحدة، وسلَّمها إلى ثورندايك بابتسامةٍ عريضة.

ألقى ثورندايك نظرةً خاطفة على الختم البريدي («لندن. إي»)، وبعدما أخذ المفتاح من الظرف، أخرج الرسالة التي فتحها، وأمسكها بوضعيةٍ تُمكِّنني أنا وميلر من رؤيتها. كانت الورقة تحمل العنوان المطبوع: «شركة بالتيك شيبينج للشحن، حيِّ وابينج.» والعنوان الآخر المكتوب: «إس. إس. مدينة جوتنبرج.» وكانت الرسالة موجَزة وفي صُلب الموضوع، وجاء فيها:

سيدي العزيز

سأترك غرفتيَّ في المبنى رقم ٥١ لأنني قد استُدعيت فجأةً إلى خارج البلاد. وقد أرفقتُ المفتاح مع رسالتي، لكني لن أُزعجك بدفع الإيجار؛ فبيعُ أثاثي الغالي سيُغطِّي قيمة الإيجار وزيادة، ويُمكنك إنفاق الفائض على طلاء سياج الحديقة الحديدي.

خالص تحيَّاتي،
إيه. كارينجتون

فأعاد ثورندايك وضع الرسالة والمفتاح في الظرف مُبتسمًا، وسأل البوَّاب: «ما حالة الأثاث؟»

قال البوَّاب ضاحكًا: «سترى بنفسك، إذا كنت ترغب في رؤية الغرفتَين. وأظنهما ربما يُناسبانك؛ فهُما غرفتان رائعتان.»

«هل هما هادئتان؟»

«نعم، هادئتان جدًّا. يقع فوقهما مكتبُ خبيرٍ مُتخصص في المعادن — هايلي — وقد كان المكتب يُدعى «بيرت وهايلي»، لكن بيرت ذهب إلى المدينة، ولا أظنُّ أن هايلي يُمارس الكثير من العمل الآن.»

قال ثورندايك: «دعني أخمِّن، أظنني كنت أقابل هايلي أحيانًا، أهو رجلٌ طويل القامة وأسمر البشرة؟»

«لا، لقد كان هذا بيرت. أما هايلي، فهو رجلٌ قصيرٌ أشقر أصلع بعض الشيء وذو بشرةٍ نضرة.» وهنا نقَر على أنفه بطريقةٍ تُوحي بدرايته بسرٍّ ما، ورفع إصبعه الأصغر ثم أكمل قائلًا: «وربما كان هذا سببًا في تدهور العمل.»

فقاطَعه ميلر بشيءٍ من نفاد الصبر، قائلًا: «أليس من الأفضل أن نتفقَّد الغرفتَين؟»

سأله ثورندايك: «هل يُمكننا رؤيتهما يا سيد لاركن؟»

أجابه قائلًا: «بالطبع. لديك المفتاح. رُدَّه إليَّ حين تنتهي من رؤية الغرفتين.» ثم أضاف بابتسامةٍ عريضة: «وأيًّا كان ما ستفعله، فاحرص على عدم المساس بالأثاث.»

قال المُشرِف ونحن نعبر الفناء الداخلي: «يبدو كما لو أن السيد كارينجتون قد أمطَر رذاذًا خلفه. هذا مُبشِّر.» وأضاف وهو يُلقي نظرةً خاطفة على الطلاء الجديد على إطار الباب بينما كنا نعبر المدخل: «وأرى أنه لم يكن مُقيمًا هنا منذ فترةٍ طويلة. وهذا أيضًا مُبشِّر.»

صعدنا إلى الطابق الأول، وحين فتح ثورندايك القفل، وفتح الباب، قهقه ميلر؛ إذ كان «الأثاث الغالي» يتألَّف من طاولة مطبخ صغيرة، وكرسي وندسور، وكرسيٍّ قابل للطيِّ مُتهالك. وكان المطبخ يحوي موقدًا غازيًّا صغيرًا ذا عينٍ واحدة، وقِدرًا صغيرة، ومِقلاة. أما غرفة النوم، فقد كان أثاثها يتمثَّل في سرير تخييم بلا مُلاءات أو لِحاف، وحوضٍ صغير موضوع على صندوق شحن، ووعاء مياه بلاستيكي.

فصاح المُشرِف: «أهلًا! لقد ترك وراءه قبَّعة، بل قبعةً جيدة جدًّا أيضًا.» أخذها من على المشجب، وألقى نظرةً خاطفة عليها من الخارج، ثم قلَّبها وتفحَّص داخلها؛ ففغر فاه بارتعاشة.

وشهق قائلًا: «يا نسر سليمان العظيم! أترى أيُّها الطبيب؟ إنها تلك القبَّعة التي نبحث عنها.»

أبرزها لنا ليُرينا إيَّاها، وكما توقَّعنا، كان الحرفان المُذهبان «دي. بي.» مُطرَّزين على البطانة الحريرية البيضاء للتاج، مِثلما وصفهما السيد بيرامجي تمامًا.

وبينما انتزع المُشرِف كيسَ خضروات ورقي من أرضية المطبخ وأقحَم القبَّعة داخله، اتفق معه ثورندايك قائلًا: «نعم، إنها الحلقة المفقودة بلا شك، لكن ماذا ستفعل الآن؟»

صاح ميلر: «أفعل! حسنًا، سأُمسك بخِناقه؛ إذ ترسو هذه السفن البلطيقية عند ميناءَي هال ونيوكاسل — وهو ربما لا يعرف ذلك — وهي سُفنٌ بطيئة جدًّا أيضًا. سأبعث ببرقية إلى نيوكاسل لاحتجاز السفينة، وسأصطحب المُفتش بادجر إلى هناك

لاعتقال الرجل المطلوب. سأتركك لتُوضِّح للبوَّاب ما حدث، وأنا مَدين لك بألف شكر على تلميحك القيِّم.»

انطلق بعد ذلك مُتشبِّثًا بالقبعة الثمينة، ورأيناه من النافذة يُهرِول عبر الفناء، ويندفع عبر الباب الخلفي إلى شارع «فيتر لين.»

قال ثورندايك: «أظنُّ أن ميلر كان مُتسرِّعًا بعض الشيء. كان ينبغي أن يتأنَّى ليعرف أيَّ وصفٍ للرجل وبعض التفاصيل الأخرى.»

قلت: «نعم، كان من الأفضل أن ينتظر ميلر حتى تُنهي الأمر مع السيد لاركن، لكنك قد تحصل على مزيدٍ من المعلومات حين نُعيد المفتاح.»

«بل سنحصل على مزيدٍ من المعلومات من الرجل الفاضل الذي يسكن في الطابق العلوي، وأظنُّ أننا سنصعد الآن ونُحاوِره. لقد بعثت إليه برسالة في الليلة الماضية، وحدَّدت معه موعدًا لإجراء محادثة عن المعادن، ووقَّعت على الرسالة باسم دبليو. بولتون. وإذا سأل عن اسمك، فسوف نقول إنه ستيفنسون.»

وبينما كنا نصعد الدَّرج إلى الطابق التالي، فكَّرت في الحِيَل المُلتوية بعض الشيء التي اتبعها زميلي، الذي عادةً ما يكون مُستقيمًا. لقد اتَّضحت آنذاك فائدة كتل الكوارتز، ولكن ما فائدة هذه الحِيَل الغامضة؟ ولماذا، قبل أن يطرقَ ثورندايك الباب، قرأ قراءة عدَّاد الغاز الموجود في رواق الطابق بعناية؟

فُتِح الباب ردًّا على طَرْقنا، وبدا منه رجلٌ قصير القامة حليق الذقن، تبدو في سيمائه النباهة، ويرتدي حُلةَ عملٍ بيضاء كان ينظر إلينا نظراتٍ حادَّةً غير مرحِّبة، غير أن ثورندايك كان اللطف كله مُجسَّدًا في إنسان.

قال وهو يمدُّ يده، التي صافَحها خبير المعادن ببرودة: «تشرَّفت بلقائك يا سيد هايلي. أعتقد أنك قد تلقَّيت رسالتي، أليس كذلك؟»

«بلى، لكنني لست السيد هايلي. إنه في الخارج وأنا أُواصل العمل. أفكِّر في تولِّي العمل الذي كان سيُنجزه، إن كان يوجد عملٌ يحتاج إلى من يتولَّاه. اسمي شيروود. هل أحضرت العيِّنات؟»

أخرج ثورندايك الكيس الكتَّاني، الذي أخذه منه السيد شيروود وأفرغه على دِكَّة، ثم أمسك كتل الكوارتز واحدةً تِلو الأخرى وتفحَّصها من كثب. وفي أثناء ذلك، مسح ثورندايك المكان بعينَيه سريعًا؛ إذ كان يوجد أمام الجدار فُرنان للتنقية البوتقية وفرنٌ ثالث أكبر

يُشبه أتونًا فخَّاريًّا صغيرًا، وكانت توجد مجموعةٌ من الأرفف الضيِّقة تحمل عدة صفوف من البوتقات المصنوعة من رماد العظام تُشبِه أُصص الزهور البيضاء الصغيرة، ويُوجَد بالقُرب منها مَكبس البوتقات — وهو جهازٌ يُنقَل إليه مسحوق رماد العظام، ويُضغَط بمكبس لتشكيل البوتقات — بينما كان يوجد بجوار المكبس حوضٌ يحوي مسحوقًا من رماد العظام، لاحظت أنه أخشن كثيرًا من المسحوق الناعم المُعتاد. وقد لاحظ ثورندايك هذه الخشونة أيضًا، فتقدَّم نحو الحوض وغمس يده في الرماد، ثم مسح أصابعه على منديله.

قال السيد شيروود مُتحدِّثًا عن العيِّنات: «لا يبدو أن هذه المادة تحوي الكثير من الذهب؛ لكننا سنتيقَّن حين نتفحَّصها.»

أخرج ثورندايك من جيبه تلك القطعة الصغيرة من المعدن اللامع ذي المظهر الذهبي التي انتقاها من بين العيِّنات الأخرى عند خبير المقايَسة، وسأله: «ما رأيك في هذه؟» فأخذها السيد شيروود وتفحَّصها من كثب، ثم قال: «تبدو هذه مُبشِّرةً بخيرٍ أوفر، إنها غنيةٌ بعض الشيء في الواقع.»

تلقَّى ثورندايك هذه العبارة بمُحيًّا جامدٍ كالصخر. أما أنا، فحدَّقت إلى السيد شيروود بذهول؛ وذلك لأن هذه القطعة من المعدن اللامع كانت مجرَّد كسرة من بيرت الحديد الشائع! فهي لم تكن لتخدع تلميذًا صغيرًا، لا خبيرًا مُتخصصًا في المعادن.

أخذ السيد شيروود عدسةَ ساعاتيٍّ من على أحد الأرفف وهو ما يزال مُمسكًا بالعيِّنة، وتوجَّه إلى النافذة. وفي الوقت نفسه، سار ثورندايك بهدوءٍ نحو أرفف البوتقات، وطاف بعينَيه سريعًا بين صفوف البوتقات. وسرعان ما توقَّف عند أحدها، وتفحَّصه من كثب، ثم أخذه من على الرف وبدأ ينبش فيه بظفره.

وحينئذٍ استدار السيد شيروود ورآه، فاكتسى وجه خبير المعادن بمزيجٍ من أمارات الغضب والانزعاج.

أمره بلهجةٍ قاطعة قائلًا: «اتركه من يدك!» لكن ثورندايك واصَل فَرْكه بظفره، فصاح الرجل غاضبًا: «أتسمع؟ دَعه!»

فنفَّذ ثورندايك قولَ الرجل حرفيًّا، وترك البوتقة تسقط على الأرض، فتحطَّمت إلى فتاتٍ لا حصر لها، وتفرَّقت واحدةٌ من أكبر هذا الفتات عن البقية؛ فانقضَّ عليها ثورندايك، وبينما كان يرفعها عن الأرض، تبيَّن لي بلمحةٍ سريعة أنها سنٌّ مُكلَّس.

خيَّم صمتٌ دراميٌّ غريب لبضع لحظات. وقف ثورندايك، وهو يُمسِك السنَّ بين سبَّابته وإبهامه، مُحدِّقًا إلى عينَي خبير المعادن، بينما وقف الأخير، الذي كان شاحبًا كجثَّة، ينظر إلى ثورندايك بغضب، وراح يفكُّ أزرار حُلَّة العمل خلسةً.

وفجأةً تحوَّل هذا الصمت إلى جلبةٍ مُذهِلة كجلبة اصطدام قطارَين؛ فقد دفع شيروود يده اليمنى أسفل حُلَّته، فانتزع ثورندايك بوتقةً أخرى ورماها بدقَّةٍ بالغة حتى إنها تكسَّرت على جبين خبير المعادن. وحالَما أطلق تلك القذيفة، اندفع إلى الأمام، وسدَّد لكمةً سريعة إلى الرجل. وحينها دوَّى صوت ارتطام كالرعد، وتصاعدت غيمة من الغبار الأبيض، وانزلق مسدسٌ آلي على الأرض مُقعقِعًا.

انتزعت المسدَّس وهرعت لمساعدة صديقي، لكنه كان في غِنًى عن مساعدتي؛ فبفضل قوَّته الهائلة وبراعته الخارقة — فضلًا عن تأثير اللكمة القاضية — كان ثورندايك قد ثبَّت الرجل على الأرض بلا حراك.

قال بنبرةٍ رزينة هادئة بدت مُتنافِرة مع الظروف المحيطة تنافرًا مُثيرًا للسخرية: «حاوِلِ العثور على حبلٍ إن استطعت يا جِرفيس.»

لم يكن ذلك صعبًا في حقيقة الأمر؛ إذ كان أحد أركان المُختبَر يحتوي على عدة صناديق مربوطة بالحبال؛ فقطعت قطعتين طويلتين، ثم قيَّدت بإحداهما ذراعَي الرجل المُنبطِح أرضًا، وربطت بالأخرى ركبتَيه وكاحلَيه.

قال لي ثورندايك: «والآن، إذا تولَّيتَ إمساك يدَيه، سنُجري تفتيشًا أوَّليًّا. دعنا نرى أولًا ما إذا كان يرتدي حزامًا، أم لا.»

فكَّ أزرار صِدار الرجل ورفع القميص إلى أعلى، فكشف عن حزامٍ شبكي عريض على الطراز العسكري مُزوَّد بعدة جيوب جِلدية، وتحسَّس أغطية هذه الجيوب المُقفلة بأزرار، غير مُبالٍ بسيل التهديدات واللعنات الذي كان يُغدق من شفتَي ضحيتِنا المتورِّمتين. أنهى التفتيش في الجيوب الأمامية، ثم انتقل إلى الجيوب الخلفية ممرِّرًا يده الاستكشافية أسفل الجسد المتلوِّي.

ثم صاح فجأةً: «آه! اقلبه حالًا، وانتبِه لعقبَيه.»

دحرجنا أسيرنا وقلبناه على بطنه، وبينما كان ثورندايك «يسلخ الأرنب»، رأينا جيبًا في وسط الحزام، فدسَّ ثورندايك أصابعه فيه بعدما فكَّ زرَّه، وأضاف: «نعم، أظنُّ أن هذا ما نَبحث عنه.» ثم أخرج أصابعه، حاملًا بينها صرَّةً ورقيةً صغيرة من الورق الياباني المَطوي، فراقبته بإثارةٍ محمومة وهو يفكُّ هذه التغليفة الليِّنة طبقةً تِلو الأخرى. وبينما

كان يبسط الطيَّة الأخيرة، لمحتُ بريقًا قرمزيًّا رائعًا أخبرني بأننا عثرنا على «الياقوتة الكبيرة».

قال ثورندايك وهو يحمل الجوهرة الرائعة في راحة يده: «أرأيتَ يا جِرفيس! انظر إلى هذا الشيء الجميل المشئوم المُحمَّل بشرورٍ كامنة لا تُعَد ولا تُحصى، واشكر الآلهة على أنه ليس مِلكك.»

غلَّفها مرةً أخرى بعناية، وبعدما دسَّها في جيبٍ داخلي، قال: «والآن، أعطِني المسدس، واركض إلى مكتب التليغراف، وحاول إيقاف ميلر إن استطعت؛ فأنا أودُّ أن يُنسَب إليه الفضل في ذلك.»

أعطيته المسدس، وشققت طريقي خارجًا إلى شارع «فيتر لين»، ثم نزولًا إلى شارع «فليت ستريت»، حيث أرسلت رسالتي العاجلة من مكتب البريد إلى مَقرِّ شرطة سكوتلانديارد في الحال. وفي غضون بضع دقائق، جاء الردُّ بأن المُشرِف ميلر لم يكن قد غادَر حتى ذلك الحين، وأنه توجَّه على الفور إلى «كليفورد إن». وبعد ذلك بربع ساعة، وصل إلى بوَّابة شارع «فيتر لين» في عربةٍ يجرُّها حِصان، فأخذته إلى الطابق الثاني، حيث عرَّفه ثورندايك إلى سجينه، وشهد الاعتقال الرسمي.

قال لي ثورندايك ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل بعدما أعدنا المفتاح: «يبدو أنك لا تفهم كيف توصَّلت إليها. حسنًا، لستُ مُتفاجئًا؛ فقد كان الدليل الأوَّلي ضعيفًا للغاية، ولم يكتسب أهمية إلا بتأثيرٍ تراكمي. لنُعِدْ بناءه مِثلما تَراكَم تدريجيًّا.

كانت القبَّعة المتروكة هي نقطة البداية بالطبع؛ فأول ما لاحظته فيها أنها قد بدت مِلكًا لرجلَين؛ فلا يوجد رجلٌ سيَشتري قبعةً جديدة غير مُناسبة لحجم رأسه بهذه الدرجة التي تجعلها في حاجة إلى كل هذا الحشو، وكانت وضعية ترتيب هذا الحشو تُشير إلى أن رجلًا طويل الرأس يعتمر قبعةً كان يملكها رجلٌ قصير الرأس. وبعد ذلك جاءت التلميحات التي قدَّمتها قصاصات الورق؛ إذ كان العنوان المتقطِّع يُشير إلى مكانٍ ينتهي اسمه بحرف الـ «ن»، وكان واضحًا أن بقية العنوان هي «لندن، دبليو سي» والآن، ما الأماكن التي تقع في حي «وست سنترال» وينتهي اسمها بحرف الـ «ن»؟ لم يكن شارعًا ولا ميدانًا ولا ساحة، ومنطقة «باربيكان» لا تقع في حي «وست سنترال»؛ ولهذا فقد كان من شِبه المؤكَّد أنه أحد المجمَّعات السكنية الستة المُتبقية التي ينتهي اسمها بكلمة «إن» في مجمعات «إنز أوف كورت» أو مجمعات «إنز أوف تشانسري»، لكنه بالطبع كان من المُمكن ألا يكون عنوان صاحب القبعة.

وكانت القصاصة الورقية الأخرى تحمل نهاية كلمة تنتهي بـ «يل»، وكلمة أخرى تنتهي بـ «اسة»، وكانت هاتان الكلمتان مرتبطَين بكميَّتين مذكورتَين بالأوقيات ووزن البنس الترويسي، لكنَّ الأشخاص الوحيدين الذين يستخدمون وحدات الوزن الترويسي هم أولئك المُشتغلون بالمعادن النفيسة؛ ومن ثَم فقد استنتجت أن «يل» كانت جزءًا من «ليميل»، وأن «اسة» كانت جزءًا من «كِناسة الأرضية»، وما دعَّم هذا الاستنتاج هو الكمِّيات المعنية المذكورة: ثلاث أوقيات، وخمس وحدات وزن بنس ترويسي من الليميل، وتسع أوقيات ونصف من كناسة الأرضية.»

فسألته: «وما هو الليميل؟»

«إنه الاسم التجاري لبُرادة الذهب أو الفضَّة التي تتجمَّع في «جِلد» مقعد صانع المُجوهَرات. أمَّا كناسة الأرضية، فهي الغبار الذي يُكنَس من على أرض وِرش صُناع المُجوهَرات أو الصاغة بالطبع. ويُعَد الليميل معدنًا حقيقيًّا، وإن لم يكن على درجةٍ موحَّدة من النعومة، أما الكناسة فهي خليطٌ من الغبار والمعادن، وكلاهما يُحفَظ ويُرسَل إلى خبراء التكرير لاستخراج الذهب والفضة منهما.

إذن، فإما أن هذه الورقة كانت مُرتبِطة بأحد صاغة الذهب أو أحد مُكرِّري الذهب، الذي قد يُطلِق على نفسه خبير مُقايسة أو خبير معادن. وما دعَّم هذا الارتباطَ هو القصاصةُ التي كانت تحمل قائمةً بأسعار مواقد الغاز؛ فمن دأب خبير المعادن أن يُداوم على الاحتفاظ بقوائم مَواقد الغاز والأفران. وقد أعطتنا آثار الرصاص التي وُجِدت في الغبار المُستخرَج من القبعة خيطًا آخر يؤدي إلى الاتجاه نفسه؛ لأن الذهب الذي يُقايَس بالمُعالجة الجافَّة يُصهَر في فرن البوتقة مع الرصاص، ولأن الرصاص يتأكسد والأكسيد يتطاير، فغالبًا ما تظهر في الغبار المترسِّب في المختبَر آثار رصاص.

وكانت الخطوة التالية التي يتوجَّب أخذها هي الاستعانة بالدليل، وحين فعلت ذلك لم أجد أي صائغ ذهب في أيٍّ من مجمَّعات «إن»، ووجدت خبيرَ مقايسة واحدًا فقط، هو السيد هايلي، في «كليفورد إن»؛ ومن ثَم فقد أشارت الاحتمالات، بالرغم من ضآلتها، إلى وجودِ صلةٍ ما بين هذه القبعة الضالَّة والسيد هايلي. وكانت هذه هي المعلومة الوحيدة الأكيدة لدينا حين خرجنا عصر اليوم.

بالرغم من ذلك، فحالَما وصلنا إلى «كليفورد إن»، بدأ الدليل يتضخَّم مثلَ كرةٍ ثلجية مُتدحرجة؛ فأولًا: جاء الإسهام الذي قدَّمه لنا لاركن، ثم اكتُشفت القبعة المفقودة. وفورَ أن رأيت تلك القبعة آنذاك، وقعت شكوكي على الرجل الموجود في الطابق العُلوي؛ إذ شعرت

يقينًا بأن القبعة قد تُركت هناك عمدًا، وأن الرسالة التي أُرسلت إلى لاركن كانت طُعمًا مُضلِّلًا لخلق خيط زائف يقودنا إلى سراب، غير أنَّ وجود تلك القبعة قد أكَّد الدليل الآخر تمامًا؛ إذ بيَّن أن الصلة الظاهرية كانت صلةً حقيقية.»

سألته: «ولكن ما الذي جعلك تشكُّ في الرجل الموجود في الطابق العلوي؟»

صاح قائلًا: «عزيزي جِرفيس! تأمَّلِ الحقائق. لقد كانت هذه القبعة كافية لشَنقِ الرجل الذي تركها هناك، فهل تتصوَّر أن ذلك الشرير المتيقِّظ الداهية قد يرتكب خطأً أحمق كهذا؟ أيرحل ويترك دليل إدانته ليجده أي أحد؟ لكنك نسيت أنه بالرغم من عثورنا على القبعة المفقودة في الطابق الأول، كانت قبعة القاتل مرتبطةً بالطابق الثاني؛ فقد كان الدليل يُشير إلى أنها قبعة هايلي. والآن، قبل أن ننتقل إلى المرحلة التالية، دعني أذكِّرك ببصمات الأصابع تلك. لقد ظنَّ ميلر أن مَظهرها الضبابي كان بسبب السطح الذي تُركت عليه، لكن ذلك لم يكن صحيحًا، بل كانت بصمات شخص مُصاب بالسُّماك أو الصدفية الراحيَّة أو الْتهاب الجِلد الجاف.

وتوجد نقطةٌ أخرى أيضًا، وهي أن الرجل الذي كنا نبحث عنه قاتل؛ أي أن حياته كانت هالكةً بالفعل؛ ومن ثَم فإقدامُ رجلٍ كهذا على جريمة قتل أخرى لن يُحدِث أيَّ فارق له تقريبًا. وإذا كان هذا الرجل، بعدما وضع الطُّعم المُضلِّل، قد اعتزم أن يلوذ إلى غرفة هايلي، فمن المرجَّح أنه قد تخلَّص من هايلي بالفعل. ولتتذكرْ أن أي خبير معادن لديه وسائل لا مَثيل لها للتخلُّص من جثَّة؛ فليس الأمر أن كل فرن من أفرانه اللافعة يُعَد بمثابة محرقة صغيرة للجثث فحسب، بل إن رفات الجثة المحترقة نفسه — أي رماد العظام — من المواد المستخدمة في مهنته.

وحين صعدنا إلى الطابق العلوي، كان أول ما فعلته أنني تفحَّصت قراءة عدَّاد الغاز، وتيقَّنت من أن كميةً كبيرة من الغاز قد استُخدمت مؤخرًا، ثم انتهزت الفرصة حين دخلنا لمصافحة السيد شيروود، فأدركت فورًا أنه مُصابٌ بسُماكٍ حاد. وقد كان هذا أول ما أكَّد صحة ظنوني. وقد اكتشفْنا بعد ذلك أنه لم يستطع التمييز في الواقع بين بيريت الحديد والكوارتز المحتوي على الذهب؛ أي إنه لم يكن خبيرَ معادن على الإطلاق، بل مُتنكِّر، ثم إنني وجدت أن رماد العظام الموجود في الحوض مختلطٌ بفتاتٍ من عظمٍ مُكلَّس، ورأيت فتاتًا مُشابهة لها في جميع البوتقات. وقد رأيت أيضًا في أحدها جزءًا من تاجِ سِنٍّ. وقد كان هذا من حسن الحظ فحسب، لكن لاحِظْ أنني بحلول ذلك الوقت كنت أملك ما يكفي من الأدلة لتسويغ إلقاء القبض عليه. كل ما أسفر عنه السن أنه أوصل المسألة إلى أزمةٍ

حرجة، وردُّ فعل الرجل على اتهامي الضمني قد وفَّر علينا عناءً مزيدًا من البحث عن أدلةٍ مؤيِّدة.»

فقلت له: «ما لا أعرفه تمامًا حتى الآن هو الموعد الذي تخلَّص فيه من هايلي، والسبب الذي دفعه إلى ذلك؛ فلا بد أن هايلي قد مات منذ بضعة أيام على الأقل؛ إذ تحوَّلت جثته بأكملها إلى رماد عظام.»

اتَّفق معي ثورندايك قائلًا: «بالتأكيد. أظنُّ أن سير الأحداث كان كالآتي: كانت الشرطة تبحث بحثًا حثيثًا عن هذا الرجل، ولا بد أن كل جريمة جديدة كانت تجعله أكثر عُرضةً لخطر الاعتقال؛ لأن المجرم لا يُمكنه التيقُّن أبدًا من أنه لم يُسقِط وراءه خيطًا يقود إليه. وبدأ يُصبِح ضروريًّا له أن يتخذ بعض الترتيبات لمغادرة البلاد ويلوذ إلى مخبأٍ آمنٍ في أثناء ذلك تحسُّبًا لاحتمالية اكتشاف مكانه. وقد كانت غرفة هايلي مُمتازة لكلا الغرضَين؛ إذ كان يسكنها رجلٌ مُنعزل نادرًا ما يأتيه زائر، وكان من المستبعَد أن يشعر أحدٌ بغيابه فترةً طويلة، فضلًا عن أن الغُرفة تحوي الوسائل اللازمة للتخلُّص السريع والتام من الجثة. لقد كانت فعلة القتل بحدِّ ذاتها تفصيلةً تافهة لهذا الوحشي.

أظنُّ أن هايلي قد مات قبل أسبوع على الأقل، وأن القاتل لم ينتقل إلى مسكنه الجديد إلا بعد أن تحوَّلت الجثة إلى رماد. ونظرًا لوجود هذا الفرن الكبير مع الأفران الصغيرة، لم يستغرق ذلك وقتًا طويلًا. وحين صار المكان الجديد جاهزًا، نسج حيلة الاختفاء الوهمي ليُشتِّت الأنظار عن هروبه الفعلي لاحقًا، ولا بد أنك ترى التضليل التام الذي كان هذا الاختفاء الوهمي سيُحدِثه؛ فلو كانت الشرطة قد عثرت على هذه القبعة في الغُرفة الفارغة بعد أسبوعٍ واحد فقط، لصارت متيقنةً من أنه هرب إلى أحد موانئ بحر البلطيق، وبينما كانت ستتعقَّب خط سيره المُفترَض، كان سيُصبح بإمكانه السفر خارج البلاد عَبر ميناء «فولكستون» أو ميناء «ساوثهامبتون» بكل ارتياح.»

«أتظنُّ إذن أنه كان قد انتقل لتوِّه إلى غرفة هايلي؟»

«أظن أنه انتقل إليها الليلة الماضية؛ فالأرجح أن القاتل قد خطَّط لقتل بيرامجي بناءً على بعض المعلومات التي عرفها عنه، وحالَما نفَّذ جريمته، بدأ على الفور في نصب خط السير المُضلِّل. وحين وصل إلى غرفته عصر أمس، لا بد أنه كتب الرسالة إلى لاركن وغادر فورًا إلى حي «إيست إند» لإرسالها بالبريد. ومن المرجَّح أنه قد قام بقصِّ شعره الكثيف، وحلق لحيته وشاربه بعد ذلك — مما أعجَز لاركن عن معرفة هُويته الحقيقية — وانتقل إلى غرفة هايلي، التي كان سيُغادرها بهدوءٍ تام في غضون بضعة أيام ليشقَّ طريقه إلى

قارة أوروبا. وقد كانت هذه خطةً مُحكَمة، ولولا أنه أخذ القبعة الخاطئة سهوًا، كان من شِبه المؤكَّد أنه سينجح.»

في الثاني من أغسطس في كل عام، وبمواظَبة لا تفتر، صار يصلنا إلى مكتبنا في المبنى رقم «٥ إيه» في «شارع كينجز بنش ووك» صندوقٌ كبير من خشب الصندل المنحوت مُمتلئ بأفضل سيجار تريتشنوبولي، ومصحوب برسالةٍ مُحِبة من زبوننا السابق السيد بيرامجي؛ ذلك أن الثاني من أغسطس يُوافق الذكرى السنوية لوفاة كورنيليوس بارنيت، المعروف أيضًا بلقب «أبو هول نيوجيرسي» (في حجرة الإعدام في سجن «نيوجيت»).

الفصل الرابع

المحك

كان يحدث أحيانًا أن تُلزِم مقتضيات المهنة صديقي ثورندايك بإجراء تحقيقات هي أنسَب لنطاق اختصاص الشرطة؛ ذلك أن المشكلات التي كانت تنشأ ضِمن العواقب الثانوية لفعلٍ إجرامي لم تكُن تُحَل عادةً إلا عند توضيح ملابسات هذا الفعل تمامًا، وتحديد هوية الفاعل أيضًا. ومن بين هذه النوعية من المشكلات، كانت مشكلة اختفاء وصية جيمس هاروود، والتي عرَضها علينا صديقنا القديم السيد مارشمونت حين زارنا وفق موعد سابق بمرافقة العميل الذي تحدَّث عنه في مذكِّرته.

كانت عقارب الساعة تُشير إلى تمام الساعة الرابعة حين وصل المُحامي إلى مكتبنا، وحين أذِنت له بالدخول، أدخل رجلًا يبدو عليه نبل المَحتد، في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، وقد عرَّفه إلينا بأنه السيد ويليام كروهورست.

قال بنظرةٍ مستحسَنة حين لمح صينية الشاي على المنضدة: «سأبقى فقط حتى أحتسي كوبًا من الشاي معكما وأمنحكما نبذةً عامة عن القضية، لكنني سأرحل بعد ذلك وأترك السيد كروهورست يسرد التفاصيل.»

جلس على كرسيٍّ مُريح على مقربةٍ من الطاولة، وبينما كان ثورندايك يصبُّ الشاي، ألقى نظرةً خاطفة على بضع ملاحظات مكتوبة بخطٍّ عشوائي على ورقة.

استهلَّ الكلام وهو يُقلِّب الشاي بعناية، قائلًا: «أعتقد أن هذه القضية ميئوسٌ منها. وبالرغم من أنني قد عرضت القضية عليك، فليس لديَّ أيُّ أمل في أنك ستستطيع مُساعدتنا.»

فعلَّق ثورندايك قائلًا: «عقليةٌ رشيدة للغاية. آمُل أن تكون هي العقلية التي يتحلَّى بها عميلك أيضًا.»

قال السيد كروهورست: «إنها كذلك بالفعل، بل أرى أن تحقيقك في القضية سيكون مضيعةً لوقتك، ولعلَّك سترى هذا أيضًا حين تسمع التفاصيل.»

قال ثورندايك: «حسنًا، لنسمع التفاصيل؛ فالقضايا الميئوس منها تتَّسم على الأقل بتلك النوعية المُحفِّزة من الصعوبة؛ فلتُخبرنا بنبذتك يا مارشمونت.»

بعدما شرب المُحامي آخر جرعة في كوبه، ودفعه إلى الصينية لإعادة ملئه، ألقى نظرةً على ملاحظاته، وقال: «إن أبسط طريقة لعرض المشكلة هي تقديم سرد موجَز للأحداث التي أسفرت عنها، وهي كالآتي: في الساعة الثانية إلا الربع من عصر أوَّل أمس، أي يوم الإثنين الماضي، وقَّع السيد جيمس هاروود على وصية في بيته بمنطقة «ميربريدج» التي تبعُد حوالَي ميلَين عن بلدة «ويلزبري». وكان الحاضرون أربعة: اثنان من خُدَّامه وقَّعا شاهدَين، والمُستفيدان الرئيسيان؛ وهما السيد آرثر باكسفيلد، ابن شقيق الموصي، وصديقنا الحاضر معي هنا السيد ويليام كروهورست. كانت الوصية مكتوبة بخط يد الموصي على صفحتَين من ورق الرسائل. وحين وقَّع الشاهدان، كانت الوصية مُغطَّاة بورقةٍ أخرى لم تكشف إلا عن المكان المخصَّص للتوقيع؛ أي إن الوصية لم يقرأها أيٌّ من الشاهدَين ولا أيٌّ من المُستفيدين، وما أعرفه أن أحدًا لم يكن يعرف بنودها الفعلية سوى الموصي نفسه، وإن كان السيد هاروود قد أوضح مضمونها العام للمُستفيدَين بعدما غادَر الخادمان الغرفة.»

سأله ثورندايك: «وما كان مضمونها العام؟»

أجاب مارشمونت: «بوجهٍ عام، قسَّمت التركة إلى جزأين متفاوتَين جدًّا بين السيد باكسفيلد والسيد كروهورست. كانت توجد بعض الموروثات الصغيرة التي لا يعرف أحدٌ كمياتها ولا أسماء وارثيها المذكورين في الوصية. وهي تُوصي أيضًا بمنح السيد باكسفيلد ألف جنيه إسترليني لتمكينه من دخول شراكة بالمال أو إنشاء مصنع صغير — فهو يمتهن صناعة القبعات اللبادية — وتُوصي بالباقي لكروهورست الذي عُيِّن وصيًّا على تنفيذها ووارثًا لبقية التركة. أما مقدار بقية التركة، فهو غير معروف بالطبع؛ لأننا لا نعرف عدد الموروثات ولا مقاديرها.

وبعد وقتٍ قصير من توقيع الوصية، انفضَّ الجمع حين طواها السيد هاروود، ووضعها في محفظةٍ جِلدية دسَّها في جيبه، قائلًا إنه ينوي أخذها فورًا ليُودِعها لدى مُحاميه في ويلزبري. وبعدما رحل ضيفاه ببضع دقائق، شاهَده أحد الخُدام يُغادر البيت، ثم رآه أحد الجيران يسير على طول مَمشى يمتدُّ عبر غابة صغيرة، ثم يلتقي بالطريق

الرئيسي على بُعدِ حوالَي ميل ورُبع من ويلزبري. ومنذ ذلك الحين، لم يُرَ حيًّا مرةً أخرى؛ فهو لم يزُر المُحامي قط، ولم يرَه أحدٌ في ويلزبري أو بالقرب منها أو في أي مكان آخر.

ولأنه لم يعُد إلى منزله في تلك الليلة، شعُرت مُدبِّرة منزله (إذ كان أرمل وبلا أبناء) بقلقٍ شديد، واتصلت بالشرطة في الصباح. شُكِّل فريق بحث، واتَّبعوا الممرَّ الذي شُوهد فيه آخر مرة وصولًا إلى الغابة — التي تُعرَف باسم «جيلبرتس كوبس» — ومشَّطوها، وهناك، في قاع محجر طباشير قديم، وجدوه جثَّةً هامدة بجمجمةٍ مكسورة وعُنقٍ مخلوع. لا يعرف أحدٌ حتى الآن كيفية تعرُّضه لهذه الإصابات، لكن لأن كل الأشياء الثمينة قد سُرقت من الجثة، بما فيها ساعة يده وحافظة نقوده وخاتم ألماس والمحفظة التي تحوي الوصية، يوجد شكٌّ قويٌّ بالطبع في أنه قُتِل، غير أن هذا ليس شُغلنا الشاغل حاليًّا، أو على الأقل ليس شغلي الشاغل، بل ما يشغلني هو الوصية، التي اختفت كما ترى، ولأن الذي أخذها قد يكون لصًّا يُشتبه في ارتكابه جريمة قتل حسب ما يبدو، فمن المستبعَد أن تُرَد.»

قال السيد كروهورست: «من شِبه المؤكَّد أنها أُتلِفت تمامًا بحلول وقتنا هذا.»

اتَّفق معه ثورندايك قائلًا: «يبدو ذلك مُرجَّحًا بالتأكيد، لكن ما الذي تريدني أن أفعله؟ لا أعتقد أنك قد أتيت لمعرفة الرأي القانوني في هذه المسألة؟»

أجاب مارشمونت: «لا؛ فأنا أعرف الموقف القانوني تمامًا، وأستطيع القول إنه في ظل افتراض أن الوصية قد أُتلِفت، يجب تنفيذ رغبات الموصي بقدر المعروف منها، غير أنني أشكُّ في الرأي الذي قد تتَّخذه المحكمة؛ إذ ربما تُقرِّر أن رغبات الموصي غير معروفة، وأن بنود الوصية غير مؤكَّدة على الإطلاق بما لا يسمح بتنفيذها.»

سأله ثورندايك: «وما تأثير ذلك القرار؟»

قال مارشمونت: «في تلك الحالة، ستُصبح التركة كلها من نصيب باكسفيلد؛ لأنه أقرب الأقرباء، ولا توجد وصيةٌ سابقة.»

«وما الذي تُريدني أن أفعله؟»

ضحك مارشمونت بشيء من تقليل قيمة الذات، وقال: «عليك أن تدفع ضريبة قدراتك الخارقة يا ثورندايك. إننا نطلب منك أن تفعل شيئًا مستحيلًا، لكننا في الحقيقة لا نتوقَّع أنك ستنجح في تحقيقه؛ فنحن نطلب منك أن تُساعدنا في استعادة الوصية.»

قال ثورندايك: «إذا كانت الوصية قد أُتلِفت تمامًا، فلا يُمكن استعادتها، غير أننا لا نعرف ما إذا كانت قد أُتلِفت أم لا؛ أي إن المسألة تستحق الاستقصاء على الأقل، وإذا كنت تريد منِّي أن أُحقِّق فيها، فسأُلبِّي رغبتك.»

نهض المُحامي بهيئةٍ تنمُّ عن ارتياحٍ واضح.

وقال: «شكرًا لك يا ثورندايك. أنا لا أتوقَّع شيئًا، أو أُهوِّن على نفسي بهذا القول على الأقل، لكن بوسعي الآن الاطمئنان إلى أن كل ما هو ممكن سيُبذَل. والآن، يجب أن أرحل، ويستطيع كروهورست أن يُعطيَك أي تفاصيل تُريدها.»

وحين غادَر مارشمونت، التفت ثورندايك إلى عميلنا وسأله: «ما الذي تظنُّ أن باكسفيلد سيفعله إذا ضاعت الوصية بلا رجعة؟ هل سيتشبَّث بحقِّه باعتباره أقرب الأقرباء؟»

أجاب كروهورست: «أعتقد أنه سيفعل ذلك؛ فهو يشتغل بمجال الأعمال والتجارة وحقوقه الطبيعية أكبر من حقوقي. ومن المستبعَد أن يرفض حقًّا يكفله له القانون. والحق أنني أعتقد أنه قد شعر بأن عمه قد ظلمه بالتصرف في التركة.»

«أكان هناك من سبب لهذا التغيير في مجرى التركة الطبيعي؟»

أجاب كروهورست: «حسنًا، كنت أنا وهاروود صديقَين حميمَين، وكان مَدينًا لي ببعض الديون، فضلًا عن أن باكسفيلد لم يستطع أن يحظى لنفسه بقَبولٍ كبير لدى عمه، غير أن السبب الأساسي في رأيي هو نزعة باكسفيلد القوية إلى المقامَرة؛ إذ خسر أموالًا طائلة بالرهان في سباقات الخيول، ولم يرغب رجلٌ حريصٌ مُقتصِد مثل هاروود في أن يترك مدَّخَراته لُمقامِر. وحتى الجنيهات الألف التي تركها لباكسفيلد، قد تُركت تحديدًا لغرض الاستثمار في العمل.»

«هل يعمل باكسفيلد في الوقت الحالي؟»

«أجل، لكنه لا يعمل لحسابه الخاص. إنه رئيس عُمال أو مدير ورشة أو شيء من هذا القبيل في مصنع خارج ويلزبري، وأظنُّه عاملًا بارعًا ويُتقِن الإلمام بمهنته.»

قال ثورندايك: «والآن، بخصوص وفاة السيد هاروود؛ فحسب ما يبدو، قد تكون الإصابات نتيجة حادث عرَضي أو اعتداء بهدف القتل، فما احتمالات وقوع حادث، بصرف النظر عن السرقة؟»

«أرى أنها قوية جدًّا؛ فهذا مكانٌ خطر للغاية؛ إذ يمتدُّ المَمشى بالقرب من حافة محجر طباشير مهجور جوانبه عمودية أو معلَّقة، والحافَّة مُستترة بشُجيرات وأعشاب؛

أي إن أي شخص يسير هناك غافلًا قد يسقط من فوق تلك الحافَّة بسهولة أو يُدفَع من فوقها أيضًا.»

«هل تعلم متى سيُجرى التحقيق؟»

«نعم، بعد غد. لقد تلقَّيت صباح اليوم استدعاء حضور التحقيق في الثانية والنصف من عصر الجمعة في مبنى بلدية ويلزبري.»

في هذه اللحظة، سمعنا صوت خطوات تصعد الدَّرَج على عجَل، ثم تلقَّى بابنا طَرقًا صاخبًا آمرًا. انطلقت عبر الغُرفة لأرى من يكون الطارق، وحين فتحت الباب بقوةٍ اندفع السيد مارشمونت إلى الداخل لاهثًا ومُلوِّحًا بصحيفة في يده.

صاح قائلًا: «ثَمة تطورٌ جديد في القضية. لا يبدو أنه يُسعفنا كثيرًا، لكني رأيت أن الأفضل أن تعرف بشأنه فورًا.» جلس وارتدى نظارته وبدأ يقرأ الآتي بصوتٍ عالٍ: «معلومات جديدة وغريبة بشأن لُغز وفاة السيد هاروود، الذي عُثر على جثَّته أمس في محجر طباشير مهجور بالقُرب من «ميربريدج»؛ فقد شهد يوم الإثنين، وهو اليوم الذي شهد مقتل السيد هاروود على الأرجح، انزلاق أحد الركَّاب وسقوطه بين القطار والرصيف حين كان ينزل منه في محطة تحويلة «باروود». انتُشل بعد ذلك سريعًا ونُقِل إلى المستشفى المحلي؛ إذ كان من الواضح أنه قد تعرَّض لإصاباتٍ داخلية، وقد اتَّضح بالفعل أنه مُصاب بكسرٍ في الحوض. قال إن اسمه توماس فليتشر، لكنه رفض ذكر أي عنوان له، قائلًا إنه بلا أي أقرباء، ثم تُوفي صباح اليوم. وفي أثناء تفتيش ملابسه بحثًا عن أي عنوان، عُثِر في جيبه على صُرَّة من منديلين مربوطين برِباط. وحين فُتِحت، وُجِد أنها تحوي خمس ساعات يد، وثلاثًا من سلاسل ساعات، ودبوس رابطة عنق، وعدة أوراق نقدية. وقد عُثِر في الجيوب الأخرى على كمية من العملات المعدنية الذهبية والفضية، وإحدى بطاقات سباقات «ويلزبري ريسز»، التي أقيمَت يوم الإثنين. وقد اتَّضح أن إحدى الساعات الخمس هي الساعة المسروقة من السيد هاروود، وأن الأوراق النقدية كانت ضِمن رزمة أعطاه إيَّاها صرَّاف بنكه في ويلزبري يوم الخميس الماضي، وأغلب الظن أنه كان يحملها في محفظته الجِلدية التي سُرِقت من جيبه. وقد عُثِر أيضًا على هذه المحفظة فارغةً في الليلة الماضية على جسر السكة الحديدية خارج محطة ويلزبري مباشرةً؛ وبهذا فإن الشواهد الظاهرية تُشير إلى أن ذاك الرجل، فليتشر، حين كان في طريقه إلى السباقات، صادَف السيد هاروود في الغابة الصغيرة المهجورة، وقتله وسرقه، أو ربما وجده ميتًا في محجر الطباشير وسرق المتعلقات من الجثة، غير أن الإجابة القاطعة على هذا التساؤل قد صارت الآن في طيِّ الغيب إلى الأبد على الأرجح.»

وحين انتهى مارشمونت من القراءة، نظر إلى ثورندايك وقال: «هذا لا يُسعِفنا كثيرًا، أليس كذلك؟ فبما أن المحفظة قد وُجِدت فارغةً، بات من شِبه المؤكَّد أن الوصية قد أُتلِفت.»

فقال ثورندايك: «أو ربما رُمِيت بعيدًا فحسب. وقد تظهر في هذه الحالة إذا نشرنا إعلانًا عن مكافأةٍ كبيرة لمن يجدها.»

هزَّ المُحامي كتفَيه مُشكِّكًا، لكنه وافق على نشر الإعلان، ثم استدار ليَرحل مرةً أخرى. ولمَّا لم يكن لدى السيد كروهورست أيُّ معلوماتٍ أخرى ليُقدمها، فقد رحل مع مُحاميه.

جلس ثورندايك لبعض الوقت بعد رحيلهما أمام مسودات ملاحظاته الموجزة صامتًا يتفكَّر بعمق، وتحلَّيت أنا أيضًا بالصمت الحكيم؛ إذ كنت قد عرفت من واقع خبرتي الطويلة أن ذاك الوضع الساكن والوجه الصامت الجامد هي أماراتٌ خارجية تدلُّ على عقلٍ مُنهمِك في عملٍ سريع شاق، وأدركت بالغريزة أن ثورندايك كان يُنظِّم حينها أركان هذه القضية الفوضوية ويُرتبها ترتيبًا منطقيًّا في صمت، وأنه كان كلاعب شطرنج بارع «يتخيَّل التحركات في عقله ويُجربها» قبل أن يضع يده على القِطع.

رفع رأسه بعد فترة قصيرة، وسألني: «حسنًا. ما رأيك يا جِرفيس؟ أتستحق هذه القضية العناء؟»

أجبته قائلًا: «هذا يتوقَّف على وجود الوصية من عدمه؛ فإذا كانت قد أُتلِفت، فسيكون التحقيق مضيعةً لوقتنا وأموال زبوننا.»

اتَّفق معي قائلًا: «نعم، لكن يوجد احتمالٌ كبير في أنها لم تُتلَف؛ فربما وُضِعت في المحفظة بغير إحكام، أو قد أُخِذت ورُمِيت بعيدًا قبل تفحُّص المحفظة، غير أننا لا يجب أن نركِّز كثيرًا على الوصية. وإذا تولَّينا القضية — وهذا ما أميل إلى فعله — فيجب أن نتيقَّن من التسلسل الفعلي للأحداث. لدينا يومٌ كامل واحد قبل التحقيق. وإذا هرعنا إلى «ميربريدج» غدًا ومشَّطنا المنطقة، ثم انتقلنا إلى بلدة «باروود» واكتشفنا كلَّ ما نستطيع معرفته عن الرجل المدعو فليتشر، فقد نستنير بضوءٍ ما من الشهادات التي سيُدلى بها في التحقيق.»

وافقتُ بلا تردُّد على اقتراح ثورندايك، ولا يعني هذا أنني استطعت تخيُّل أي خيط قد يُرشدنا في حل القضية، لكنني شعرت بقناعةٍ ما بأن زميلي قد استخلص حقيقةً مهمة معيَّنة، ويُبطِن في عقله خيطًا محددًا يعتزم اتباعه في عملية التحقيق. وقد تعمَّقت هذه القناعة حين وضع حقيبة استقصاءاته، في وقتٍ لاحق من مساء اليوم، على المنضدة،

وأعاد ترتيب محتوياتها بغرضٍ واضح في نفسه. راقبتُ الجهاز الذي كان يحزمه ويضعه فيها بفضول، وحاولت — بلا جدوى — تخمين طبيعة الاستقصاء الذي يعتزم إجراءه. كان الغرض من صندوق شمع البارافين المسحوق والحملاج الكحولي واضحًا لي تمامًا. أما الأدوات الأخرى التي رأيته يضعها في الحقيبة بعنايةٍ متأنِّية، مثل شفَّاط الغبار — وهو جهازٌ أشبه بمكنسةٍ كهربائية صغيرة — والمجهر المحمول، وحبل «مانيلا» الملفوف والمجدول من أحد طرَفَيه، ولا سيَّما ذلك العدد الهائل من الشرائح المجهرية التي تحمل ملصقاتٍ بيضاءَ فارغة، فلم أستطع فَهْم غرضه منها على الإطلاق.

وفي حوالَي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ترجَّلنا من القطار في محطة «ويلزبري»، وبعدما استعدنا درَّاجتَينا من عربة الأمتعة، دفعناهما عبر حاجز التذاكر وركبناهما. وكنا قد درسنا في رحلة القطار أحد خرائط هيئة المساحة للمنطقة ذات مقياس يبلغ بوصةً واحدة لكل ميل، حتى شعرنا وكأننا في مكانٍ مألوف لنا، وكنا في غنًى عن سؤال سكانها عن الاتجاهات. وبينما كنا نجوب البلدة على درَّاجتَينا، لمحنا الطريق الجانبي الواسع الواقع على يسارنا والمؤدِّي إلى مضمار السباق، ثم واصلنا السير بدرَّاجتَينا بسرعة لمسافة ميل واحد؛ فوصلنا إلى المنطقة التي يلتقي فيها الممشى المؤدِّي إلى «ميربريدج» بالطريق. وهنا ترجَّلنا ورفعنا درَّاجتينا فوق مرقى سياج الممشى الخشبي، ثم تابعنا السير في الممشى نحو غابة صغيرة كنا نستطيع رؤيتَها أمامنا على قمة تلَّة منخفِضة.

علَّق ثورندايك بينما كنا نقترب من الغابة قائلًا: «من الغريب جدًّا أن يكون مثل هذا الممشى الجيد مهجورًا على هذا النحو؛ فأنا لم أرَ رُوحًا واحدة منذ أن تركنا الطريق.» ألقى نظرةً خاطفة على الخريطة حين بدأ المَمشى يدخل بنا إلى الغابة، وحين واصلنا السير حوالَي مائتَي ياردة، توقَّف وأسند دراجته إلى شجرة، وقال: «ينبغي أن يكون محجر الطباشير في مكانٍ ما هنا، وإن كان من المستحيل رؤيته.» أمسك بعد ذلك بجذع إحدى الشُّجيرات الصغيرة التي تكاثفت حتى غطت الممشى وسحبها جانبًا، ثم صاح قائلًا:

«انظر إلى هذا يا جِرفيس. إنَّ ترك ممشًى عامٍ في مثل هذه الحالة فضيحةٌ بكل المقاييس.»

تأكَّد لنا هنا أن السيد كروهورست لم يكن يُبالغ؛ إذ كان المكان خطرًا للغاية. لقد كشفت الفروع التي فرَّق ثورندايك بينها عن هوَّةٍ يبلغ عمقها ما يقرب من ثلاثين قدمًا، ولم تكن حافتها، المستترة بالشجيرات، تبعُد عن حافَّة الممشى سوى بوصات قليلة.

قال ثورندايك: «من الأفضل أن نعود ونجد مدخل المحجر، والذي يبدو أنه على اليمين؛ فأول ما ينبغي لنا فعله هو التيقُّن تمامًا من الموضع الذي سقط فيه هاروود. ويُمكننا أن نعود بعد ذلك لتفحُّص المكان من الأعلى.»

عُدْنا إلى الوراء، وسرعان ما وجدنا مسارًا باهتًا تبعناه فانحدر بنا حتى أخرجنا إلى وسط المحجر. كان واضحًا أنه محجرٌ قديم؛ إذ اسودَّت جوانبه بفعل الدهر، وامتلأت أرضيته بأشجارٍ كبيرة. أسندنا درَّاجتَينا إلى إحدى هذه الأشجار، ثم سِرنا ببطء بمُحاذاة سفح الجرف العابس.

قال ثورندايك وهو يُلقي نظرةً خاطفة إلى الأعلى نحو الجدار الرمادي الذي برز من الأعلى بروزًا متدرِّجًا كأنه دَرجٌ قصير مقلوب: «يبدو أن هذا المكان يقع أسفل الممشى. من المُفترَض أن نجد بعض آثار المأساة في مكانٍ ما هنا.»

وبينما كان يتكلم، وقعت عيني على بقعةٍ بيضاء على كتلة من الطباشير، ورأيت على ذلك السطح المكسور حديثًا بقعةً حمراء تميل إلى اللون البُني. كانت تلك الكتلة تقع مُقابل فتحة كهف صناعي بدا أنه كان كُنَّة قديمة لعربات نقل الصخور، لكنه صار فارغًا، وكان يقع مباشرةً أسفل جزء من حافَّة الجُرف يمتدُّ في الهواء إلى مسافةٍ ملحوظة.

قال ثورندايك: «لا شكَّ أن هذا موضع سقوطه؛ إذ يُمكن رؤية المكان الذي وُضِعت في نقَّالة الإسعاف، والتي يبدو أنها نقَّالة من طرازٍ قديم ذات عجلات، ويوجد أيضًا في الأعلى موضع جزء صغير مكسور من أرضية حافَّة الممشى عند المكان الذي سقط منه. حسنًا، بصرف النظر عن السرقة، فإن السقوط الحر من ارتفاع يتجاوز ثلاثين قدمًا كفيلٌ بكسر الجمجمة. هلَّا بقيت هنا يا جِرفيس حتى أركض إلى الأعلى وأتفحَّص الممشى.»

انطلق نحو المدخل، وسرعان ما سمعته بالأعلى يُنحِّي الشجيرات جانبًا، وبعد سحبة أو اثنتين، ظهر فوق رأسي مباشرةً.

قال: «يوجد الكثير من آثار الأقدام على الممشى، لكني لا أجد فيها أي شيء غير طبيعي؛ لا علامات دهس ولا علامات صراع. سأتعمَّق قليلًا في الفحص.»

توارى خلف الشجيرات، وشرعت أنا في تفحُّص باطن الكهف، حيث لاحظتُ السقف الذي اسودَّ من تأثير الدخان وبقايا نار حديثة. وقد بدا أن هاتين الملحوظتين، إلى جانب عدد من عظام أرنب وغلاية شاي مهجورة من النوع الذي يستخدمه شخصٌ يمتهن التشرُّد، لا تخلوان من علاقةٍ محتملة بتحقيقنا. كنتُ مُنهمكًا مع هذه الأفكار حين سمعت

ثورندايك يُناديني من الأعلى، وعندما خرجت من الكهف، وجدت رأسه محشورًا بين الأغصان. بدا أنه مُنبطح؛ إذ كان وجهه في مستوى قمة حافَّة الجرف تقريبًا.

صاح قائلًا: «أريد أن أرفع بصمةً. هلَّا أحضرت لي البارافين والحملاج؟ ويُستحسن أن تُحضِر الحبل أيضًا.»

هرعت إلى المكان الذي تركنا فيه درَّاجتَينا، وفتحت حقيبة أدوات الاستقصاء، وأخذت منها الحبل وعلبة شمع البارافين والحملاج الكحولي، وبعدما تيقَّنت من أن وعاء الحملاج كان مُمتلئًا، ركضتُ صاعدًا المنحدر، وشققت طريقي بطول الممشى. وبعد أن قطعت مسافةً ما، وجدت زميلي شِبه مُختفٍ بين الشجيرات، حيث كان مُنبطحًا على الأرض ورأسه فوق شفا الجُرف.

قال لي بينما كنت أزحف بجانبه، وأنظر من فوق شفا الجرف: «أترى يا جِرفيس؟ هذا دربٌ يمكن أن يؤدي إلى الأسفل، وقد استخدمه شخصٌ ما منذ وقتٍ قريب جدًّا. لقد هبط ووجهه باتجاه الجرف؛ إذ يُمكن رؤية بصمة مُقدِّمة حذاء في التربة الطفلية بهذا الجزء الناتئ، ويمكن حتى أن نُلاحظ وجود شكل صفيحة واقية حديدية كانت مُثبَّتة في مُقدِّمة الحذاء من الأسفل. المشكلة التي تُواجهنا الآن هي كيفية رفع البصمة دون إزاحة التربة فوقها. أعتقد أنني سأربط نفسي بالحبل.»

فقلت له: «إنها لا تستحقُّ المُجازَفة بالتعرُّض لكسرٍ في الرقبة؛ فمن المُرجَّح أن تكون بصمة قدم تلميذ ما.»

ردَّ قائلًا: «إنها قدم رجل. من المرجَّح جدًّا ألا يكون لها صلة بقضيتنا، لكنها قد تكون متصلة بها مع ذلك، ولأن المطر قد يطمسها إذا هطل، فيجب أن نرفعها.» وبينما كان يتكلم، مرَّر طرف الحبل عبر الفتحة المُضفَّرة في طرفه الآخر، وأنزل الحلقة الناتجة حول كتفَيه، وأحكَم رَبطها أسفل ذراعَيه. وبعدما ربط الحبل بإحكامٍ في جذع شجرة صغيرة، أنزل نفسه بحذرٍ من فوق شفا الجُرف، وهبط تدريجيًّا حتى وصل إلى الجزء الناتئ. وحالَما استقرَّت قدماه على موطئ آمن، مرَّرت الجزء الفائض من الحبل عبر الحلقة الموجودة على غطاء علبة الشمع وأنزلتها إليه، وحين حرَّرها من الحبل، سحبت الحبل إلى الأعلى، وأنزلت إليه الحملاج بالطريقة نفسها. وظللتُ بعد ذلك أُراقب إجراءاته المنهجية المُنظَّمة. في البداية، أخرج ما يُعادل ملء ملعقة من الشمع المسحوق، أو المبشور، ونثره برفقٍ كبير على بصمة مقدمة الحذاء حتى غطَّاها بطبقةٍ رقيقة مُتساوية السُّمك. بعد ذلك، أشعل موقد الحملاج، وحالَما بدأ اللهب الأزرق يُدوِّي من الأنبوب، وجَّهه إلى

بصمة مقدمة الحذاء؛ فذاب المسحوق على الفور تقريبًا، وغطَّى البصمة بلمعان كأنه طبقة من الورنيش. أبعدَ ثورندايك اللهب، فتصلَّبت الطبقة الشمعية فورًا، وصارت باهتة ومُعتِمة. نثر عليها كميةً ثانية أكبر من المسحوق، وأتبعها باللهب مرةً أخرى؛ فازداد سُمْك طبقة الشمع، وأسفرت هذه العملية في النهاية، بعد تكرارها أربع مرات أو خمسًا، عن قالبٍ صلب. وحينئذٍ أطفأ ثورندايك موقد الحملاج، وبعدما ربطه هو والعلبة بالحبل، أمرني بسحبهما إلى الأعلى، وأضاف: «هلَّا تُنزِل إليَّ المنظار. يوجد شيءٌ أبعد في الأسفل لا أستطيع رؤية تفاصيله بوضوح.»

نزعت حقيبة المنظار عن كتفي، وبعدما فتحتها ربطتُ الحبل بحمَّالة المنظار الجِلدية، وأنزلته إلى أسفل الجرف، ثم ظللت أُراقب ثورندايك وهو يقف على موطئه العالي غير المستقر مُحدِّقًا عبر المنظار، الذي ينتمي إلى طراز «زايس» وتبلغ قوَّته المنشورية ثماني درجات، إلى أجمةٍ من زهور المنثور قد نبتت من كتلةٍ ناتئة من الطباشير تقع في منتصف الطريق إلى أسفل تقريبًا. وسرعان ما أنزل المنظار عن عينَيه، وبينما كان يُعلِّقه من حبله القصير حول رقبته، التفتَ إلى القالب الشمعي. كان قد أصبح صلبًا تمامًا بحلول ذلك الوقت، وبعدما تحسَّسه رفعه بحرص، ووضعه في حقيبة المنظار الفارغة، فسحبتها إلى الأعلى.

ناداني قائلًا: «أريد منك يا جِرفيس أن تُثبِّت الحبل. سأهبط نحو هذه الأجمة.»

بدت هذه الخطوة خطرةً للغاية، لكني كنت أعرف أن لا جدوى من الاعتراض؛ لذا ربطت الحبل حول جذع ضخم، وأحكمت قبضتي عليه للسيطرة على «السقوط».

صِحت قائلًا: «أنا جاهز.» فبدأ ثورندايك بالزحف عبر سطح الجرف مُشبِّثًا قدمَيه ويدَيه بنتوءاتٍ غير مرئية تقريبًا. ومن حسن الحظ أنه لم يكن يوجد في هذا الجزء أي نتوءات معلَّقة في الهواء بلا دعمٍ من الأسفل، ومع أن رُوحي بلغَت حلقومي وأنا أشاهده، فقد رأيته يجتاز المنطقة الخطرة بأمان. وحين وصل إلى أجمة الزهور، سحب ظَرفًا من جيبه، ثم انحنى والتقط شيئًا صغيرًا وضعه في الظرف، ثم أعاد الظرف إلى جيبه. وبعدها جعلني أمرُّ بخمس دقائق عصيبة أخرى وهو يُعيد عبور السطح شِبه الرأسي إلى النقطة التي انطلق منها، اجتاز هذه الخطوة أيضًا بأمان في النهاية. وحين صعد أخيرًا إلى فوق الحافة، ووقف بجواري على أرضٍ صلبة، تنفَّست الصُّعداء والتفتُّ لأسبَّه.

سألته مُتهكِّمًا: «حسنًا؟ ما الذي نِلتَه مقابل المجازَفة برقبتك؟ أهو نبات السَّمفاير أم نبات الإديلفايس؟»

أخرج الظرف من جيبه ودسَّ يده فيه، ثم أخرج حامل سجائر بدا عاجيًّا زهيدًا، وكان أسود ورطبًا ومزوَّدًا بيدٍ طويلة، وما يزال يحمل عقب سيجارة يدوية الصنع. أعطاني إيَّاه، فقلَّبته وشممته وأعدته إليه سريعًا، وقلت له: «عن نفسي، لم أكن لأُجازف حتى بالفقرة العنقية لسمكة سلور من أجل هذا. ما الذي تتوقَّع أن تعرفه منه؟»

«أنا لا أتوقَّع شيئًا بالطبع، وإنما نجمع الحقائق فقط تحسُّبًا لأن يتَّضح لاحقًا أنها متعلقة بالقضية؛ فهنا على سبيل المثال، نجد أن رجلًا ما قد هبط على بُعدِ بضع ياردات من موضع سقوط هاروود، وقد عبَر هذا الدَّرب الشديد الوعورة، بدلًا من أن يسلك المسار المُلتفَّ المؤدِّي إلى مدخل المحجر. لا بد أن سببًا ما قد دفعه إلى أن يهبط بهذه الطريقة المكروهة. ربما كان في عجلةٍ من أمره، ومن المرجَّح أنه من أهل المنطقة؛ لأن الغريب لن يعرف بوجود هذا الدرب المختصَر. ويبدو أيضًا أن هذا كان حامل سجائره على الأرجح. إنك إذا أمعنت النظر، ستُدرِك من هذه الخدوش الرأسية على الطباشير أنه قد انزلق، ولا بد أنه كاد يسقط أيضًا. ومن المرجَّح أنه قد أسقط حامل السجائر حينها؛ فأجمة الزهور تقع أسفل علامات مُقدِّمة حذائه مباشرةً، كما ترى.»

«ولماذا لم يستردَّ حامل السجائر يا تُرى؟»

«لأنَّ دَرب الهبوط ينحدر بعيدًا عن مكان الأجمة، ولأنه لم يكن معه «جِرفيس» يمكن الوثوق به يُمسِك حبلًا قويًّا ليُساعده في اجتياز هذا الفراغ. وإذا كان قد هبط عبر هذا الدرب لأنه كان في عجلةٍ من أمره، فمن المؤكَّد أنه لم يكن لديه وقتٌ للبحث عن الحامل. وحتى إذا لم يكن هذا الحامل حامله، فهو ما يزال مِلكَ شخصٍ آخر كان هنا مؤخرًا.»

«أيوجد أيُّ شيء يقودك إلى ربط هذا الرجل بالجريمة؟»

أجاب قائلًا: «لا شيء سوى الزمان والمكان؛ فقد هبط الرجل إلى المحجر بالقرب من المكان الذي سُرِق فيه هاروود، وربما قُتِل فيه أيضًا. ولمَّا كانت الآثار حديثة جدًّا، فلا بد أنه كان هناك بالقرب من وقت السرقة. هذا كل ما في الأمر. وأنا أفكِّر في هذا الرجل تحديدًا لعدم وجود آثار لأيِّ شخصٍ آخر، غير أننا يجب أن نُلقي نظرةً على الممشى أيضًا؛ إذ يحمل قدرًا كبيرًا من آثار الأقدام كما ترى.»

مشينا ببطء على طول الممشى باتجاه «ميربريدج» مُلازِمين الحواف ومُتفحِّصين السطح من كثب. وفي النُّقَر شِبه المستترة في الأرض، كانت التربة الطفلية الرخوة تحمل العديد من آثار الأقدام، وقد استطعنا أن نُميِّز من بينها أثَر حذاء ذي مُقدمةٍ مكسوَّة من الأسفل بصفيحةٍ حديدية واقية، لكنه كان شِبه مطموس ببصمةِ حذاءٍ آخر ذي نعلٍ مُرصَّع من الأسفل بمسامير.

قال ثورندايك وهو يلتفت مُعرِضًا عن تلك الآثار: «لن نحصل على كثير من المعلومات هنا. لقد داس فريق البحث الآثار المُهمَّة، فلنحاول معرفة المكان الذي ذهب إليه صاحب الحذاء ذي المُقدمة المكسوَّة من الأسفل بصفيحةٍ حديدية واقية.»

مشَّطنا الممشى على طول حافَّة محجر الطباشير المُجاورة لمدينة «ويلزبري»، لكننا لم نجد له أي أثر. نزلنا بعد ذلك إلى المَحجر، وبعد أن وجدنا الموضع الذي هبط فيه، بحثنا عن مخرجٍ آخر غير ذلك الدَّرب المؤدِّي إلى الممشى. وسرعان ما وجدنا عند مُنتصَف المسافة نحو أعلى المنحدر دَربًا ثانيًا يمتدُّ بعيدًا ناحية «ميربريدج». وبعدما اتبعناه ومشينا فيه لبعض الوقت، وصلنا إلى نُقرةٍ صغيرةٍ ذات قعرٍ مُوحِل. وهنا توقَّف كِلانا فجأةً؛ إذ رأينا أن الأرض الرطبة في القعر كانت تحمل بصماتٍ واضحةً لفردتَي حذاء كان مزوَّدًا، إلى جانب الصفيحتَين الواقيتَين أسفل مقدمته، بصفيحتين واقيتين نِصفيتين عند الكعبَين.

قال ثورندايك: «من الأفضل أن نصنع قالبين شمعيين لهاتين البصمتين كي نُقارنهما بحذاء ذاك الرجل المدعو فليتشر. سأصنعهما ريثما تعود وتُحضِر الدرَّاجتين.»

وحين عُدتُ بالدرَّاجتين، كانت بصمتان من بصمات الأقدام مغطَّاتَين بقالبَين شمعيَّين، وكان ثورندايك قد ترك الدَّرب، ووقف يُحدِّق بين الشجيرات؛ فسألته عمَّا يبحث عنه.

فأجاب قائلًا: «إنه أملٌ ميئوس من تحقيقه، كما قال مارشمونت، لكني أنظر لأرى ما إذا كانت الوصية قد أُلقِيت هنا؛ فثَمة احتمالٌ كبير بأن السارق تخلَّص منها فورًا، وهذا هو أرجح الدروب المحتملة التي يمكن أن يكون قد سلكها، إن كان يعرفه؛ فأنت ترى من الخريطة أنه يؤدِّي إلى مضمار السباق مباشرةً تقريبًا، ولا يمرُّ عبر الممشى أو الطريق الرئيسي. ربما يُستحسَن أن نتفقَّد المنطقة ريثما يجفُّ الشمع.»

بدا ذلك مَسعًى لا أمل منه، وقد وافقت عليه دون أي حماسة. وبعدما تركتُ الدرب وذهبت إلى الجانب المُقابل لهذا الذي كان يبحث فيه ثورندايك، تجوَّلت بين الشجيرات والفراغات الضيقة، وأنا أحدِّق فيما حولي وأذكِّر نفسي بذلك «الرجل الشديد الهرَم» الذي:

«كان يبحث أحيانًا في الرُّبى العُشبية،

عن آثار عجلات عربات تجرُّها الخيول.»

ظللتُ أتمشَّى ببطء باحثًا عن ضالَّتنا حتى عُدتُ تقريبًا إلى حيث رأيت ثورندايك، الذي كان عائدًا هو أيضًا، وحينها لمحت شيئًا بُنيًّا صغيرًا عالقًا بين أغصان إحدى

الشجيرات. كانت حافظة نقود رجل مصنوعة من جلد الخنازير، وبينما كنت أنتزعها من بين الأغصان رأيتها مفتوحةً وخاوية.

هرعتُ حاملًا غنيمتي في يدي إلى حيث كان ثورندايك يرفع القالبَين الشمعيَّين؛ فرفع ناظرَيه نحوي وسألني: «لم تجدْها، أليس كذلك؟»

مددتُ إليه الحافظة التي انقضَّ عليها بلهفة، وصاح قائلًا: «لكن هذه مُهمَّة للغاية يا جِرفيس. من شِبه المؤكَّد أنها حافظة نقود هاروود؛ إذ يُمكننا أن نرى هنا الحرفين الأوليين «ج. هـ.» مدموغين على غطائها القلَّاب. لقد كنا مُحِقَّين إذن بشأن الاتجاه الذي سلكه السارق. وسيكون من المفيد أن نُمشِّط هذا المكان تمشيطًا شاملًا بحثًا عن الوصية، وإن كنا لا نستطيع ذلك الآن؛ لأننا يجب أن نذهب إلى بلدة «باروود»، لقد بعثتُ برسالة إخطار بأننا ذاهبون إلى هناك. من الأفضل أن نعود إلى الممشى حالًا، ونتوجَّه نحو الطريق. إن «باروود» لا تبعد عن هنا سوى نصف ساعة سيرًا بالدرَّاجة.»

حزمنا القالبَين في حقيبة أدوات الاستقصاء (التي كانت مربوطة بدرَّاجة ثورندايك بحزام)، ثم عُدنا وشققنا طريقنا نحو الممشى. ولأنه كان ما يزال مهجورًا، فقد هممنا بركوب الدرَّاجتين، وسرعان ما وصلنا إلى الطريق الذي انطلقنا فيه بسرعةٍ كبيرة نحو باروود.

أوصلتنا رحلتنا التي استغرقت نصف ساعة إلى شارع البلدة الصغيرة الرئيسي، وحين ترجَّلنا من درَّاجتَينا عند قسم الشرطة، وجدنا المأمور نفسه ينتظر في استقبالنا، وقد أبدى حماسته بلُطفٍ لمساعدتنا، غير أن الفضول قد تملَّك منه؛ مما كان مُزعجًا بعض الشيء.

قال: «لقد فعلت ما طلبته منِّي في رسالتك يا سيدي. جثَّة فليتشر في المشرحة بالطبع، لكني أحضرت كل ثيابه وأغراضه إلى هنا، وأمرت بوضعها في مكتبي الخاص؛ كي تستطيع تفقُّدها في راحةٍ تامَّة.»

فقال ثورندايك: «هذه بادرةٌ لطيفة للغاية منك، ومفيدة جدًّا أيضًا.» فكَّ حقيبة أدوات الاستقصاء من الدرَّاجة، وتَبِع الضابط حتى معتكَفه، حيث نظر حوله باستحسانٍ عميق؛ إذ وجد منضدةً كبيرة قد أُخليَت وهُيئت لإجراء الفحص عليها، وكانت ثياب النشَّال الميت وأغراضه مُرتَّبة بنظامٍ عند أحد طرَفَيها.

كان أول ما فعله ثورندايك أنه أمسك فردتَي حذاء الرجل الميت، اللتين كانتا أنيقتَين لكنهما من خامةٍ رديئة من الجلد البُنِّي الفاتح، وقد بَلِيَتا من عند الكعبين وتحتاجان

إلى نعلَين جديدين. لم تكن مُقدِّمتاهما أو كعباهما يحملان أيَّ صفائح واقية إضافية أو مسامير سوى مسامير التثبيت الصغيرة. وبعدما أراني ثورندايك إيَّاهما دون تعليق، وضعهما على ورقةٍ بيضاء، ورسم إطار النعلين رسمًا تتبُّعيًّا بحرصٍ شديد، وقد بدا أن هذا التصرُّف أذهل المأمور؛ إذ علَّق قائلًا: «لم يخطُر ببالي أن مسألة آثار الأقدام ستظهر في هذه القضية؛ فلا يُمكن توجيه الاتهام إلى رجلٍ ميت.»

وافَق ثورندايك على كلامه قائلًا إنه يبدو صحيحًا، ثم شرع في إجراءٍ آخر جعل عينَي الضابط تجحظان من الدهشة؛ فبعد أن فتح حقيبة أدوات الاستقصاء — التي ألقى الضابط نظرةً فضوليةً خاطفة داخلها — أخرج شفَّاط الغبار، ثم أدخل فوَّهة خرطومه في جيوب اللص الميت واحدًا تِلو الآخر، بينما كنت أتولَّى تشغيل المضخَّة. وبعد أن أدخل الخرطوم فيها كلها، فتح وعاء تجميع المشفوطات، واستخرج منه كرةً كبيرةً بعض الشيء من الزغب المُترَّب. وضعها على شريحةٍ زجاجية، ومزَّقها إلى نصفين بإبرتين مزوَّدتين بمقبضٍ معدني، ومرَّر إلى أحد النصفين، فبدأ كلانا بالعمل على «ندفِ» كلٍّ من النصفين إلى نسيجٍ شبكيٍّ مُفرَّغ، ثم فصلنا أجزاءً منه ووضعنا كلًّا منها في بِركةٍ صغيرة من قطرات الجلسرين على الشرائح الزجاجية ذات المُلصقات البيضاء الفارغة، وغطَّينا كل شريحة بغطائها الزجاجي، ثم كتبنا على المُلصَق: «غبارٌ من جيوب فليتشر.»

وحين أتممنا الكتابة على كل المُلصقات، أخرج ثورندايك المجهر، وبعدما ركَّب عدسةً شيئية قياسها بوصةٌ واحدة، فحص الشرائح واحدةً تِلو الأخرى بسرعة، ثم دفع المجهر نحوي. وبقدر ما استطعت رؤيته، كان الغبار مجرد غبار عادي يتألَّف بصفةٍ أساسية من أليافٍ قطنية مُتكسرة وبضع ألياف من الصوف والكتان والخشب والخيش ومواد أخرى لم أستطع تحديد اسمها، وبعض الجسيمات المعدنية الأخرى التي لا يُمكن تمييزها، غير أنني لم أذكر أيَّ تعليق، وبعد أن تركت المجهر للمأمور الذي حدَّق من خلاله لاهثًا، وقال إن الغبار «يبدو غريب الشكل»، ظللت أُشاهد إجراءات ثورندايك التالية، وقد كانت إجراءاتٍ شديدةَ الغرابة.

في البداية، رصَّ الساعات الخمس المسروقة صفًّا، وتفحَّص قرصَ كلٍّ منها بدقة باستخدام عدسة «كودينجتون»، ثم فتح الغطاء الخلفي لكلٍّ منها بالترتيب، ونَسخ في مذكرته النقوش التي يخدشها مُصلِّحو الساعات عليها من الداخل. وبعد ذلك، أخرج من الحقيبة عدة قضبان صغيرة من المطاط المُقسَّى، ثم رصَّ خمس شرائح زجاجية مزوَّدة بمُلصقاتٍ فارغة، وأسقط قطرةً صغيرة من الجلسرين على كلٍّ منها، وغطَّاها فورًا بطبق

مختبرٍ زجاجي ليحميَها من الغبار المُتساقط. لصق مُلصَقًا صغيرًا على كل ساعة، وكتب رقمًا عليه، ورقَّم الشرائح الخمس أيضًا. وبعد ذلك، نزع زجاج الساعة الأولى، وأمسك أحد قضبان المطاط المُقسَّى، وفرَكه بسرعة على منديلٍ حريري، ومرَّره عبر قرص الساعة وحوله، ثم قرَّب القضيب إلى الجلسرين الموجود على الشريحة الأولى، ونقر عليه نقرًا عنيفًا بنصلِ سكين الجيب الخاص به. وبعد ذلك، وضع غطاءً زجاجيًّا على الجلسرين، وفحص العيِّنة بالمجهر سريعًا.

كرَّر هذا الإجراء على الساعات الأربع الأخرى، مُستخدِمًا قضيبًا جديدًا لكلٍّ منها، وحين انتهى من ذلك، التفت إلى المأمور الذي كان فاغرًا فاه، وقال: «أظنُّ أن الساعة ذات السلسلة المرتبطة بها هي ساعة السيد هاروود، أليست كذلك؟»

«بلى يا سيِّدي. لقد ساعدَنا ذلك في تمييزها من بين الساعات الأخرى.» فتأمَّل ثورندايك الساعة، التي كان يوجد في حلقتها مفتاحٌ صغير منمَّق مُعلَّق بشريطٍ أخضر قصير. أمسك صديقي هذا المفتاح، وأخذ إبرةً جديدة ذات مقبض معدني، وأدخلها في أسطوانة المفتاح، ثم سحبها منه حاملةً كرةً صغيرة من الزغب المُترَّب على طرَفها. فأعددت شريحةً زجاجية بسرعة وأعطيته إيَّاها، بينما قطع هو قطعةً من ذلك الزغب بمقصٍّ تشريحي، وتركها تسقط في الجلسرين. كرَّر هذا الإجراء البارع على شريحتين أُخريَين، وألصق بالشرائح الثلاث مُلصقاتٍ كتَب عليها: «المفتاح من الخارج» و«المنتصف» و«الداخل»، وفحصها بهذا الترتيب أسفل المجهر.

حين فحصت العيِّنات بنفسي، لم يُسفِر فحصي إلا عن أقل القليل؛ إذ بدت أنها لا تحمل سوى الغبار المُعتاد، وإن كان الغبار المأخوذ من وجه الساعة «رقم ٣» قد احتوى على بضع شذرات ممَّا بدا أنه شعر حيوان قد يكون قطة، وقد احتوى عليه أيضًا زغب المفتاح الموسوم بالملصق المكتوب عليه «من الخارج»، غير أنني لم أستطع تخمين دلالة ذلك، إن كان يحمل أي دلالة أصلًا. أما المأمور، فمن الواضح أنه كان يرى هذه الإجراءات برمَّتها على أنها ألعاب خفَّة ليس لها أي غرض واضح؛ ذلك أنه قال بينما كنا نحزم أغراضنا للرحيل: «لقد سُررتُ برؤية الطريقة التي تعمل بها يا سيدي، لكنني أظنُّ أنك تنفخ قِربةً مثقوبة؛ فنحن نعرف مُرتكب الجريمة، ونعرف أنه بعيدٌ عن طائلة القانون.»

قال ثورندايك: «حسنًا، يجب على المرء أن يقوم بعمله ليستحقَّ الأجر الذي يكسبه، كما تعرف. سأقدِّم حذاء فليتشر والساعات الخمس ضِمن الأدلة في التحقيق غدًا، وأطلب منك أن تترك المُلصقات على الساعات.» وودَّع المأمور اللطيف بشُكرٍ مُجدَّد ومُصافحةٍ ودِّية، وانطلقنا للحاق بالقطار المتجه إلى لندن.

في ذلك المساء، بعد العَشاء، أخرجنا العيِّنات وتفحَّصناها في وقت فراغنا، وأضاف ثورندايك عيِّنةً أخرى؛ إذ مرَّر قطعة من خيطٍ مفتول قد عقدها عبر حامل السجائر الذي انتشله من محجر الطباشير، وفصل المادة السوداء الكريهة التي خرجت على الخيط في جلسرين موضوع على شريحة، ثم مرَّرها إليَّ بعدما فحصها. وصحيحٌ أن السائل القاتم القطراني قد حجَب التفاصيل بعض الشيء، لكني استطعت رؤية شذرات من الشَّعر الحيواني نفسه الذي لاحظته في العيِّنتَين الأُخريَين، باستثناء أن تلك الشذرات كانت أكثر بكثير في هذه العيِّنة. ذكرت ملاحظتي لثورندايك قائلًا: «لا شكَّ في أنها أجزاء من شَعر حيوان من الثدييات، وهي تبدو من شَعر قطة. أهو شعر قطة؟»

أجاب ثورندايك باقتضاب: «أرنب.» وكم يُخجلني الاعتراف بأنني حتى ذلك الحين، لم أكن أفهم مغزى الاستقصاء الذي أجريناه.

كانت قاعة التحقيق في مبنى بلدية «ويلزبري» قد امتلأت قبل بضع دقائق من الوقت المحدَّد لاستهلال التحقيق، وفي ذلك الفاصل الزمني، حين خرج أعضاء هيئة المُحلِّفين من القاعة لمُعاينة الجثة في المشرحة المُجاورة، استعرضتُ الحاضرين. كان السيد مارشمونت والسيد كروهورست حاضرَين، وكذلك رجلٌ شابٌّ له مَظهر الفُرسان يرتدي بنطالًا قصيرًا من القماش المضلع وطماقًا خمَّنت أنه آرثر باكسفيلد، وكنت مُحقًّا بشأن ذلك. وكان صديقنا، مأمور «باروود»، حاضرًا أيضًا، وتبادل معه ثورندايك بضع كلمات في رُكنٍ مُنزوٍ. أما بقية الحضور، فقد كانوا غرباء عنِّي.

وحالَما جلس قاضي التحقيق وأعضاء هيئة المُحلِّفين في أماكنهم، استُدعي الطبيب الشاهد الذي ذكر أن سبب الوفاة كان خَلعًا في العُنق مصحوبًا بكسر في الجمجمة. وقال إن الكسر إما أن يكون قد نجم عن ضربة بسلاحٍ ثقيل أو سقوط المتوفَّى على رأسه، وتبنَّى هو الرأي الثاني؛ إذ أوضح الخلع أن المتوفَّى قد سقط بتلك الطريقة.

كان الشاهد التالي هو السيد كروهورست، وقد كرَّر لهيئة التحقيق ما قاله لنا، وأضاف عليه أنه ذهب إلى بيته مباشرةً بعدما غادَر بيت المتوفَّى؛ إذ كان مُرتبطًا بموعد مع صديق. شَهِد من بعده باكسفيلد، الذي أدلى بأقوالٍ ذات مضمونٍ مُماثل، وذكر أنه ذهب إلى محلِّ عمله في «ويلزبري» حين غادَر بيت المتوفَّى. همَّ بعد الإدلاء بشهادته بالعودة إلى مقعده، غير أن ثورندايك نهض ليستجوبه هو أيضًا.

وسأله: «متى وصلت إلى محل عملك؟»

فتردَّد الشاهد بضع ثوانٍ، ثم أجاب قائلًا: «في الساعة الرابعة والنصف.»

«ومتى غادرت بيت المتوفَّى؟»

فأجاب: «في الساعة الثانية.»

«وكم تبلغ المسافة بينهما؟»

«ميلَين تقريبًا في خط السير المباشر، غير أنني لم أسلك هذا الطريق المباشر، بل ذهبت عن طريق الأرياف المُجاورة لبلدة «لينفيلد».»

«من المؤكَّد أنك كنت قريبًا من مضمار السباق في طريق العودة؛ فهل ذهبت إلى السباقات؟»

«كلا، كانت السباقات قد انتهت للتَّو حين كنتُ عائدًا.»

خيَّم صمتٌ قصير ثم سأله ثورندايك قائلًا: «هل تُدخِّن كثيرًا يا سيد باكسفيلد؟»

بدا الشاهد مُتفاجئًا، وكذلك أعضاء هيئة المحلِّفين، لكن الشاهد أجاب قائلًا: «قدرًا مُتوسطًا: خمس عشرة سيجارة في اليوم تقريبًا.»

«ما نوع السجائر التي تُدخِّنها؟ وما نوع التبغ الذي تحشوها به؟»

«أصنع سجائري بنفسي، وأحشوها بالتبغ المفروم.»

وهنا سُمِعت همساتٌ احتجاجية من أعضاء هيئة المُحلِّفين، وعلَّق قاضي التحقيق بصرامة قائلًا: «لا يبدو أن هذه الأسئلة ذات صلةٍ كبيرة بموضوع هذا التحقيق.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «أرجو أن تعتبرها ذات صلةٍ مباشرة للغاية به يا سيدي.» ثم التفت إلى الشاهد وسأله: «هل تستخدم حامل سجائر؟»

فأجابه قائلًا: «أستخدمه أحيانًا.»

«هل فقدت حامل سجائر مؤخرًا؟»

نظر الشاهد إلى ثورندايك بعينَين مصعوقتين، وأجاب بعد بعض التردد: «أظنُّ أنني أضعتُ واحدًا منذ وقتٍ قريب.»

سأله ثورندايك: «متى فقدتَ هذا الحامل وأين؟»

أجاب باكسفيلد بينما اكتسى وجهه بشحوبٍ ملحوظ: «أنا … أنا لا أعرف حقًّا.»

ففتح ثورندايك حقيبته الرسمية، وأخرج منها الحامل الذي انتشله من محجر الطباشير بمجازَفةٍ كبيرة، ثم سلَّمه إلى الشاهد، وسأله قائلًا: «أهذا هو الحامل الذي فقدته؟»

وعند سماع هذا السؤال، صار باكسفيلد شاحبًا كجثةٍ هامدة، وراحت يده التي أخذ بها الحامل ترتعش وكأنَّ بها شللًا، ثم قال مُتلعثمًا: «ربما. لا أستطيع الجزم بذلك. إنه شبيهٌ بذلك الذي فقدتُه.»

فأخذه ثورندايك منه، وسلَّمه إلى قاضي التحقيق قائلًا: «أطلب وضعَ هذا الحامل ضِمن الأدلة يا سيدي.» ثم خاطَب الشاهد قائلًا: «لقد ذكرتَ أنك لم تذهب إلى السباقات، فهل دخلت المضمار أو ساحة السباق على أي حال؟»

بلَّل باكسفيلد شفتَيه، وأجاب قائلًا: «دخلتُ دقيقةً أو اثنتين فقط، لكني لم أبقَ هناك؛ إذ كانت السباقات قد انتهت، وكان المكان مكتظًّا بحشدٍ هائج للغاية.»

«حين كنتَ وسط هذا الحشد، هل نُشِل شيءٌ من جيبك؟»

خيَّم صمتُ الترقب على القاعة، بينما أجاب باكسفيلد بصوتٍ خافت: «نعم، لقد فقدتُ ساعتي.»

ففتح ثورندايك حقيبته الرسمية مرةً أخرى، وأخرج منها ساعة (هي التي كانت تحمل المُلصَق المكتوب عليه «رقم ٣»)، وسلَّمها إلى الشاهد، ثم سأله: «أهذه هي الساعة التي فقدتها؟»

أمسك باكسفيلد الساعة بيده المُرتجفة، وأجاب بتردُّد: «أعتقد أنها هي، لكني لا أستطيع الجزم بذلك.»

خيَّم صمتٌ لحظي، ثم قال ثورندايك بنبرةٍ جادَّة باهرة: «الآن يا سيد باكسفيلد، سأطرح عليك سؤالًا يجوز لك ألا تُجيب عنه إذا كنت ترى أن إجابتك ستمسُّ بموقفك في القضية بأي شكل من الأشكال. والسؤال هو: حين نُشِل ما في جيبك؟ هل سُرِقت أيُّ أغراضٍ أخرى من حوزتك غير هذه الساعة؟ لا تتعجَّل. فكِّر في الإجابة بإمعان.»

ظلَّ باكسفيلد صامتًا بضع لحظات بينما كان يُحدِّق إلى ثورندايك رامقًا إيَّاه بنظرةٍ مسعورةٍ مذعورة، ثم قال أخيرًا بشيءٍ من التلعثم: «لا أتذكَّر أنني فقدت أيَّ شيء ...» ثم سكت فجأةً.

فسأل ثورندايك القاضي: «أيُسمَح للشاهد بالجلوس يا سيدي؟» وحين مُنِح الإذن ووُضِع للشاهد كرسي، ارتمى عليه باكسفيلد وألقى نظرةً خاطفة متحيِّرة على أرجاء القاعة من حوله، ثم قال مُخاطبًا ثورندايك: «أظنُّ أن الأفضل أن أُخبرك بما حدث بالضبط، وأتقبَّل العواقب. حين غادرت بيت عمي يوم الإثنين، سلكت مسارًا غير مباشر عبر الحقول، ثم دخلت غابة «جيلبرتس كوبس» لأنتظر عمِّي وأُخبره برأيي حيال تصرُّفه المتمثِّل في ترك الجزء الأكبر من تركته لشخصٍ غريب. وصلت إلى الممشى الذي كنت أعرف أن عمي سيَسلكه، ومشيت على طوله ببطءٍ لألتقيه، وقد التقيته بالفعل. كان لقاؤنا هذا على الممشى فوق المكان الذي عُثِر فيه على جثته بالضبط. بدأت أبوح بما في نفسي، لكنه لم

يُنصِت إليَّ، بل استشاط غضبًا. وبينما كنت أقف في منتصَف الممشى، حاوَل دفعي بالقوة ليُواصِل سيره، وعندها عَلِقت قدمه في إحدى شجيرات العُلَّيق وترنَّح إلى الوراء، ثم اختفى وسط الشجيرات، وبعد ذلك ببضع ثوانٍ، سمعت صوت ارتطام قوي مكتوم بالأسفل. نحَّيتُ الشجيرات جانبًا، ونظرت إلى الأسفل داخل محجر الطباشير، حيث وجدته مُمدَّدًا على الأرض ورأسه كله مرتكز على جانبٍ واحد. وتصادَف أنني كنت أعرف دَربًا مختصرًا إلى أسفل المحجر. صحيحٌ أنه كان دَربًا منحدرًا خطرًا، لكني سلكته لأنزل إلى هناك بأسرع ما يُمكِن. وقد أسقطت حامل السجائر هناك. وحين وصلت إلى عمي، رأيت أنه قد مات؛ إذ كانت جمجمته مُهشَّمة، وعنقه مكسورًا. وحينئذٍ وسوس الشيطان إليَّ بسرقة الوصية والهرب، لكني كنت أعرف أنني لو أخذت الوصية فقط، لأحاطت بي الشُّبهات؛ ولهذا أخذت معظم مقتنَياته الثمينة: المحفظة وساعته وسلسلتها وحافظة نقوده وخاتمه. أفرغت الحافظة وألقيتها بعيدًا، ورميت الخاتم من بعدها، وأخرجت الوصية من المحفظة — حيث كانت موضوعةً بلا إحكام — ودسستها في جيبي الداخلي، ثم وضعت المحفظة والساعة والسلسلة في جيب المعطف الخارجي.

مشيت عبر الريف قاصدًا مضمار السباق، وعازمًا على إسقاط تلك الأشياء بين الحشد؛ لعلَّ أحدًا ما يلتقطها ويأخذها بعيدًا بأمانٍ تام. وحين وصلت إلى هناك، وفَّرت عليَّ عصابةٌ من النشَّالين هذا العناء؛ إذ أحاطوا بي، وتدافعوا نحوي، وجرَّدوا جيوبي من كل شيء عدا مفاتيحي والوصية.»

سأله ثورندايك: «وما مصير الوصية؟»

«إنها لديَّ هنا.» دسَّ يده في جيب صدره، وأخرج ورقةً مطوية سلَّمها إلى ثورندايك الذي فتحها، وألقى نظرةً خاطفة عليها، ثم سلَّمها إلى القاضي.

كانت هذه نهاية التحقيق تقريبًا؛ إذ قرَّرت هيئة المحلفين قبول إقرار باكسفيلد، وقيَّدت القضية على أنها «جريمة قتل بالخطأ»، تاركةً مصير باكسفيلد في يد السُّلطات المختصَّة.

علَّق ثورندايك حين جلسنا لنتناول عشاءً متأخِّرًا بعض الشيء: «قضيةٌ مُثيرة للاهتمام ومُرضية للغاية. والحق أنها بسيطة في جوهرها؛ إذ تكشَّف غموضها بحقيقةٍ واحدة هي التي أنارت لنا الطريق، ولعلَّك لاحظتَ ذلك على الأرجح.»

فقلت له: «لقد استنتجتُ أنها كذلك بالفعل، وإن كان نور هذه الحقيقة لم يصل إليَّ بعد.»

قال ثورندايك: «حسنًا، دعنا نبدأ أولًا باستعراض الجانب العام للقضية كما عرضها مارشمونت. كان أول ما لفت انتباهي بالطبع أن فقدان الوصية ربما كان سيحوِّل باكسفيلد بمنتهى السهولة من مُستفيدٍ ذي نصيب ضئيل من التركة إلى الوريث الوحيد. وحتى إذا كانت المحكمة ستُوافق الاعتراف بالوصية، فقد كان سيتعيَّن عليها الاسترشاد بأقوال الرجلين الوحيدين اللذين كانا يعرفان بنودها، وإن كانت معرفتهما تقريبية. وحينها كان باكسفيلد سيستطيع قول ما يشاء؛ لذا كان من المستحيل تجاهُل حقيقة أن فقدان الوصية يصبُّ في مصلحة باكسفيلد بشدة.

وحين عُثِر على المقتنَيات المسروقة بحوزة فليتشر، بدا للوهلة الأولى أن لغز الجريمة قد كُشِف، غير أن ذلك كان ينطوي على عدد من التناقضات الصارخة. كيف أمكن لفليتشر على سبيل المثال أن يذهب إلى هذه الغابة المهجورة، بعيدًا عن أي خط سكك حديدية أو أي طريق حتى؟ لقد كان يبدو نشَّالًا من لندن. وحين مات، كان مُتجهًا إلى لندن بالقطار. وبدا من المُرجَّح أنه جاء بالقطار من لندن لممارسة حِرفته وسط حاضري السباقات، ثم إن الخبرة في علم الجريمة توضِّح أن مُعتاد الإجرام متخصصٌ متزمِّت؛ فكلٌّ من اللص وصانع العملات المعدنية المزوَّرة والنشَّال يلتزم بتخصُّصه الإجرامي ولا يحيد عنه. ولمَّا كان فليتشر نشَّالًا، ومن الواضح أنه كان ينشل ما في جيوب الحاضرين في ساحة السباق، فقد كانت الاحتمالات تستبعد أن يكون هو اللص الأصلي، وتُرجِّح أنه نشل جيب الشخص الذي سرق هاروود، غير أنه إذا كان الأمر كذلك، فمن كان هذا الشخص يا تُرى؟ وهنا أشارت الاحتمالات مرةً أخرى إلى باكسفيلد؛ إذ كان لديه الدافع، كما قلت، وفضلًا عن ذلك، بدا أن النشل قد وقع عند مضمار السباق، وكان باكسفيلد معروفًا بأنه من مُرتادي السباقات. وإذا كان باكسفيلد هو الشخص الذي نشله فليتشر، فقد كان من المرجَّح أن تكون إحدى الساعات الخمس هي ساعة باكسفيلد. وربما كان إثبات صحة ذلك من عدمه ليصبح صعبًا للغاية، لكن هنا أتت الحقيقة الوحيدة التي قلت إنها قد أنارت لنا الطريق.

لعلَّك تتذكَّر أن مارشمونت قال في مَعرض سرد وقائع القضية إن باكسفيلد كان يمتهن صناعة القبعات اللبادية، وإن كروهورست أخبرنا بأنه كان رئيس عُمال أو مدير ورشة أو شيئًا من هذا القبيل في مصنع.»

«نعم، تذكرتُ ذلك الآن وأنت تتحدث عنه، لكن ما تأثير هذه الحقيقة؟»

فصاح مُتعجبًا: «يا عزيزي جِرفيس! ألا ترى أنها أعطتنا مَحكًّا؟ فلتُفكِّر الآن. ما ماهية القبعة اللبادية؟ إنها مجرد كتلة من شَعر الأرانب المُلتصق بالغراء، وتقوم صناعتها

على نفخ تيَّار من الشَّعر شِبه المُتكسر داخل مخروط فولاذي دوَّار يُرطَّب بمحلولٍ كحوليٍّ من مادة الشيلاك، غير أن كمية من الشُّعيرات الأصغر والأدق تتطاير بالطبع بعيدًا عن المخروط وتطفو في الهواء؛ فيُصبح هواء المصنع محمَّلًا بغبارٍ من شُعيرات الأرانب يستقرُّ على ملابس العمال ويتغلغل فيها. وحين تُصبح الملابس محمَّلة بالغبار، فإنه غالبًا ما يتراكم في الجيوب، ويصل في نهاية المطاف إلى فجوات أي شيء محمول في هذه الجيوب وفتحاته؛ ومن ثَم فإذا كانت إحدى الساعات الخمس هي ساعة باكسفيلد، كان من شِبه المؤكَّد أنها ستحمل آثارًا حيث تسلَّل هذا الغبار المميَّز من أسفل حافَّة غطاء الساعة الزجاجي واستقرَّ على قُرصها. وقد تبيَّن أن هذا هو ما حدث بالفعل؛ فحين تفحَّصتُ تلك الساعات الخمس بعدسة «كودينجتون»، رأيتُ على قرص الساعة «رقم ٣» كميةً من غبارٍ يحمل هذا الطابع. وقد التقطتُه كلَّه بسلاسة باستخدام قضيب المطَّاط المُقسَّى المشحون بكهرباء ساكنة، ونقلته إلى الشريحة، فاتَّضحت طبيعته تحت الميكروسكوب؛ ومن ثَم كان من شِبه المؤكَّد أن صاحب هذه الساعة يعمل في مصنع قبعات لبادية. وكان من الضروري بالطبع ألا أكتفي بإثبات وجود شعر الأرنب في هذه الساعة، بل إثبات عدم وجوده في الساعات الأخرى وجيوب فليتشر أيضًا، وهذا ما فعلتُه.

وثَمة أمرٌ آخر بخصوص ساعة هاروود، وهو أن شعر الأرنب لم يكُ موجودًا على قُرصها، وإنما وُجِدت كميةٌ ضئيلة منه على الزغب المستخرَج من أسطوانة المفتاح. ولو كان شعر الأرنب ذاك قد أتى من جيب هاروود، لوجدناه موزَّعًا توزيعًا منتظمًا في الزغب، غير أنه لم يكن موزَّعًا على هذا النحو، بل اقتصر وجوده على الجزء المكشوف من الزغب. ومعنى هذا أنه قد جاء من جيبٍ آخر غير جيب هاروود، ومن شِبه المؤكَّد أن صاحب هذا الجيب كان يعمل في مصنع قبَّعات لبادية، وأنه صاحب الساعة الثالثة على الأرجح. وذلك إضافةً إلى حامل السجائر؛ إذ كان تجويفه مليئًا بشعر الأرانب، لكن صاحبه كان موجودًا في مسرح الجريمة بلا أي شك. وكانت تُوجَد إشارةٌ واضحة إلى أن جيب هذا الرجل هو الجيب الذي حُمِلت فيه الساعة المسروقة، وأنه كان صاحب الساعة «رقم ٣»، غير أن المشكلة كانت تكمن في كيفية جمع هذه الأدلة معًا وإثبات هُوية ذلك الشخص إثباتًا قاطعًا، وهذا ما استطعتُ فعله من خلال دليل جديد حصلتُ عليه حين رأيت باكسفيلد في التحقيق. أظنُّ أنك لاحظت حذاءه، أليس كذلك؟»

اضطررت إلى الاعتراف قائلًا: «يؤسفني القول إنني لم أُلاحظه.»

«حسنًا، لقد لاحظته أنا؛ إذ كنت أُراقب قدمَيه باستمرار، وحين وضع إحدى ساقَيه على الأخرى، رأيت أن مقدمة حذائه مكسوةٌ من الأسفل بصفيحةٍ حديدية. وهذا ما منَحني الثقة للشروع في استجوابه.»

قلت له: «لقد كان استجوابًا جريئًا إلى حدٍّ ما، ومُخالفًا للقانون بعض الشيء أيضًا.»

اتَّفق ثورندايك مع ذلك قائلًا: «لقد كان مُخالفًا جدًّا للقانون، وكان يجب على قاضي التحقيق ألا يسمح به، لكنه أجدى نفعًا في نهاية المطاف؛ فلو كان قاضي التحقيق قد رفض أسئلتي، كان سينبغي علينا أن نتَّخذ إجراءات رفع دعوى جنائية على باكسفيلد. أما الآن وقد استعدنا الوصية، فمن المستبعَد أن يُكلِّف أحدٌ نفسه عناء مُقاضاته.»

وهذا ما تيقَّنتُ لاحقًا من أنه حدث بالفعل.

الفصل الخامس

صيَّاد الرجال

قال ثورندايك: «إن من يرغب في تحقيق النجاح في مجال الكشف العلمي عن الجرائم يجب أن يعتبر المعارف جميعها ضِمن نطاق تخصُّصه؛ فما من حقيقةٍ واحدة لا يُمكن أن تكتسب، في ظروفٍ معيَّنة، أهميةً كبيرة في الأدلة. وفي مثل هذه الظروف، يتحدَّد النجاح أو الفشل بناءً على الإلمام بالمعرفة اللازمة لتفسير دلالة تلك الحقيقة، أو الافتقار إليها.»

قيلت هذه الحكمة العابرة بخصوص تحقيقنا في القضية التي تُشير إليها الصحافة بأسلوبها المنمَّق بعض الشيء باسم «لغز الماسة الزرقاء»، وقد قيلت على وجه التحديد في حادثةٍ وقعت في مكتب صديقنا القديم، المُشرف الشُّرطي ميلر، في مقرِّ شرطة سكوتلانديارد؛ ذلك أن ثورندايك قد قام بزيارةٍ موجَزة إلى هناك للتحقُّق من الحقائق القليلة التي أُبلِغ بها. وبعدما حمل دفتر ملاحظاته، ووضعه في مكانه المُعتاد، وأمسك حقيبة استقصاءاته الخضراء المكسوَّة بقماش القنب، ونهض ليرحل؛ وقعت عيناه على شيئين موضوعَين على منضدةٍ جانبية؛ حقيبة يد جِلدية وعصا مشي مربوطتَين معًا بحبلٍ يحمل مُلصَقًا وصفيًّا.

تأمَّلهما بضع ثوانٍ، ثم نظر نظرةً خاطفة إلى المُشرف.

وسأله: «أمهجورتان أم مطروحتان في البحر؟»

أجاب المُشرِف قائلًا: «بل مطروحتان في البحر حرفيًّا؛ إذ أُلقيَتا من سفينةٍ ما لتخفيف حمولتها.»

وحينئذٍ رفع المُفتش بادجر، الذي كان هو أيضًا من حضور هذا الاجتماع، ناظرَيه بلهفة.

وتدخَّل في الحوار قائلًا: «نعم. لعلَّ الدكتور لن يُمانع في إلقاء نظرة عليهما. إنها مشكلةٌ بسيطة صغيرة يا دكتور، وتقع تمامًا في نطاق تخصُّصك.»

فسأله ثورندايك: «ما المشكلة؟»

قال بادجر: «الأمر فقط أن لدينا هنا حقيبة. والسؤال الآن: من صاحبها؟ وأيُّ نوعٍ من الأشخاص هو؟ ومِن أين أتى وإلى أين ذهب؟»

ضحك ثورندايك، ثم قال: «يبدو ذلك بسيطًا جدًّا؛ فمِثل هذه التفاصيل التافهة يُكشَف بفحصٍ سطحيٍّ سريع، ولكن كيف حصلتم على هذه الحقيبة؟»

قال ميلر: «إليك حكاية هذين الشيئين المهجورين: في حوالَي الساعة الرابعة من صباح اليوم، رأى شرطيٌّ في أثناء مُناوَبته، في شارع «كينجز رود» بمنطقة «تشيلسي»، رجلًا يسير على الجانب المقابل من الشارع حاملًا حقيبة يد. لم يكن هناك ما يُثِير الريبة في ذلك على وجه التحديد، لكن الشرطي قد ارتأى أن يعبر الطريق وينظر إليه من كثب، وفي أثناء ذلك أسرع الرجل في خُطاه، فأسرع الشرطي في خُطاه أيضًا بالطبع، ثم بدأ الرجل يركض، وكذلك الشرطي، واندلعت مطاردةٌ رائعة حامية، وفجأةً انعطف الرجل بسرعة إلى طريقٍ جانبي، وبينما كان الشرطي ينعطف عند ناصية ذلك الطريق، رأى طريدَه ينعطف إلى زقاق. وبعدما تبعه إلى داخل هذا الزقاق واقترب منه بشدة، رأى أن الزقاق ينتهي بجدارٍ مرتفعٍ بعض الشيء. وحين وصل الطريد إلى الجدار، رمى حقيبته وعصا سيره وتسلَّقه كمُهرِّج في السيرك. وقد تسلَّق الشرطي وراءه، لكن ليس كمُهرج؛ إذ لم يكن يرتدي ثيابًا مُلائمة لهذا الدور. وبحلول الوقت الذي أتمَّ فيه تسلُّق الجدار، وهبط في حديقةٍ كبيرة تحوي الكثير من أشجار الفاكهة، كان ذلك الرجل قد اختفى؛ فاقتفى خط سيره من آثار أقدامه عبر الحديقة إلى جدارٍ آخر، وحين تسلَّق ذلك الجدار وجد نفسه في شارعٍ جانبي، لكنه لم يعثر على أي أثرٍ لصاحبنا السريع. راح الشرطي يركض جيئةً وذهابًا بطول الشارع إلى المُفترَقَين التاليَين وهو ينفخ صفارته، لكن ذلك كان بلا جدوى بالطبع؛ فعاد أدراجه عبر الحديقة، وأخذ الحقيبة والعصا، وأُرسِلا إلى هنا فورًا لفحصهما.»

«ولم يُقبَض على أحد؟»

أجاب ميلر بابتسامةٍ خافتة: «حسنًا، لقد قبض شرطيٌّ في شارع «أوكلي» على رجلٍ يحمل شيئًا يبدو مُريبًا بعدما كان قد سمع الصافرة، لكن تبيَّن أنه عازف بوق كان عائدًا إلى بيته من المسرح.»

قال ثورندايك: «حسنًا، فلنُلقِ نظرةً على الحقيبة، والتي أظن أنها قد فُحِصت بالفعل، أليس كذلك؟»

أجاب ميلر: «بلى، لقد تفحَّصنا محتوياتها، لكن كل شيء قد أُعيدَ كما وجدناه.»

أمسك ثورندايك الحقيبة، وبدأ يفحصُها فحصًا منهجيًّا من الخارج.

علَّق قائلًا: «حقيبةٌ جيدة، ويبدو أنها باهظة الثمن في الأصل، وإن كانت قد استُهلكت بشدة. هل لاحظت العلامات الطينية التي تُلطِّخ قعرها؟»

قال ميلر: «نعم، من المُرجَّح أنها تلطَّخت بها حين رماها ليقفز من فوق الجدار.»

فقال ثورندايك: «ربما، وإن كانت لا تبدو مثل طين الشوارع، لكننا قد نحصل على مزيدٍ من المعلومات حين نرى المحتويات.» فتح الحقيبة، وبعدما ألقى نظرةً خاطفة على ما بداخلها، بسط على المنضدة ورقتَي «فولسكاب» من رفِّ الأدوات المكتبية، وبدأ يضع عليهما محتويات الحقيبة بترتيبٍ منهجي، مُرفِقًا ذلك بسيلٍ من التعليقات المستمرة على خصائصها الواضحة.

تحدَّث قائلًا: «المحتوى الأول: حقيبةٌ جلدية صغيرة لمستلزمات العناية بالمظهر. صحيحٌ أنها مهترئةٌ بعض الشيء، لكنها من نوعيةٍ ممتازة في الأصل، وهي تحوي شفرتَي حلاقة سويديتَين، ومِسنًّا صغيرًا من نوع «واشيتا»، ومشحذًا جلديًّا صغيرًا جدًّا، وفرشاة حلاقة قابلة للطي كانت رطبة المَلمس قليلًا، ولها رائحةٌ تُشبِه رائحة عصا صابون الحلاقة. ويُلاحظ هنا أن المِسَن مقعَّر بوضوح عند وسطه، وأن الكتابة المنقوشة على شفرتَي الحلاقة، «أرنسبرج، إسكليستونا، السويد»، متآكِلةٌ بعض الشيء. وتوجد أيضًا علبةٌ تحوي قالبًا جافًّا جدًّا من الصابون، ومجموعةٌ صغيرة من مستلزمات العناية بالأظافر، وفرشاة أسنان مهترئة من كثرة الاستخدام، وفرشاة أظافر، وفرشاة لتنظيف ما بين الأسنان، وخُطَّاف لإغلاق الأزرار، وشفرة لإزالة ثآليل القدم، وفرشاة ملابس صغيرة، وفرشتا شعر صغيرتان. أرى، يا بادجر، أن هذه الحقيبة الجِلدية تُوحي — وأؤكِّد على القول بأنها «توحي» فقط — بإجابةٍ كاملة عن أحد أسئلتك.»

فقال المفتِّش: «لا أفهم ما ترمي إليه. قُل لي ما الذي توحي به إليك.»

أجاب ثورندايك وهو يضع من يده العدسة التي كان يتفحَّص من خلالها فرشتَي الشعر: «توحي إليَّ برجُل في منتصَف العمر، أو كهلٍ حليق الشنب طليق اللحية بصحةٍ طيِّبة لا تبدو عليه علامات التقدم في السن، وهو أنيق مُنظَّم مُقتصِد شديد الاهتمام بمظهره، قد اعتاد السفر منذ فترة طويلة. وبالرغم من أنني لا أؤكِّد على هذه النقطة التالية، فالشواهد الظاهرية توحي بأنه كان يعيش في بيتٍ ما منذ فترة معيَّنة، وأنه في الوقت الذي فقد فيه الحقيبة كان يُغيِّر محلَّ إقامته.»

ضحك المفتِّش بصوتٍ صاخبٍ فظٍّ وقال: «لقد كان كذلك بالفعل، لو صحَّت رواية الشرطي بشأن الكيفية التي قفز بها من فوق الجدار، لكني ما زِلت لم أفهم الكيفية التي توصَّلتَ بها إلى كل هذه الحقائق.»

صحَّح له ثورندايك قائلًا: «ليست حقائق يا بادجر، بل قلت إنها إيحاءات، وربما تكون هذه الإيحاءات مُضلِّلة للغاية؛ إذ توجد بضعة عوامل لم نضعها في الحسبان، مثل احتمالية ألا يكون هو صاحب المحفظة، غير أن هذا هو ما تُوحي به الشواهد إذا أخذناها بظاهرها؛ فالمحفظة نفسها على سبيل المثال قويةٌ ومتينة، لكنها مهترئة من كثرة استخدامها على مر سنوات. ولاحِظ أنها محفظةٌ مخصَّصة لحمل الأغراض عند الترحال، ولا تُستخدم إلا في أثناء الترحال. ولدينا كذلك، بخصوص ما يوضِّح عامل الزمن، المِسن وشفرتا الحلاقة؛ إذ يستغرق تآكلُ مِسنٍّ من نوع «واشيتا» لدرجة ظهور تجويف فيه، أو استهلاك نصْل شفرة حلاقة سويدية حتى اضمحلال علامة الشركة المُصنِّعة تدريجيًّا، سنواتٍ عديدة. أما ما يُشير إلى الحالة الصحية، والعُمر إلى حدٍّ ما، فهو فرشاة الأسنان وفرشاة تنظيف ما بين الأسنان؛ إذ فقد الرجل بعض أسنانه؛ لأنه يضع في فمه طقم أسنان، لكن الأسنان التي فقدها ليست كثيرة، وهو غير مُصاب بالتهاب اللِّثة أو الامتصاص السنخي؛ فالمرء لا يُبلي فرشاة أسنان بهذا الشكل على نصف دزينة من أسنانٍ مُتبقية، لكن الرجل الذي تتحمَّل أسنانه التنظيف الشديد بالفرشاة من المُرجَّح أن يكون ذا صحةٍ طيبة لا يزال مُحتفظًا بلياقته.»

فسأله المفتِّش: «لقد قلتَ إنه حليق الشارب لكنه مُلتحٍ، فكيف توصَّلت إلى ذلك؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «هذا واضح إلى حدٍّ كبير؛ فنحن نرى أن لديه شفرات حلاقة ويستخدمها، ونرى أيضًا أن لديه لحية.»

تعجَّب بادجر قائلًا: «أنرى ذلك حقًّا؟ أنَّى لنا ذلك؟»

فالتقط ثورندايك شعرةً من إحدى فرشتَي الشعر بعناية، ورفعها قائلًا: «هذه ليست شعرةً من فروة الرأس، بل أُرجِّح أنها من جانب الذقن.»

نظر بادجر إلى الشعرة بازدراءٍ واضح، وعلَّق قائلًا: «يبدو لي كما لو أنَّ مشطًا مُتقاربَ الأسنان كان ليُجدي نفعًا معها.»

اتفق معه ثورندايك قائلًا: «أجل، يبدو كذلك، لكن المظهر خدَّاع. إن هذه الشعرة من نوعٍ يُسمَّى بالشعر المُعجَّر، وهو نوعٌ تُشبِه فيه الشعرة سلسلة من الخرَز، غير أن هذه الانتفاخات الشبيهة بالخرَز هي أجزاء من الشعرة في حقيقة الأمر. وتلك حالةٌ مرَضية،

أو بالأحرى حالةٌ غير طبيعية.» ثم أعطاني الشعرة مع العدَسة التي تفحَّصتُ من خلالها الشعرة، ورأيت الانتفاخات المميزة بسهولة.

قلت: «نعم، إنها حالةٌ مُبكِّرة من «ترايكوريكسيس نودوزا» (تقصُّف الشعر العقدي).»

فتَمْتم المفتِّش قائلًا: «يا إلهي! يبدو كأنه اسم رجل نبيل رُوسي. أهو مرضٌ شائع؟»

أجبته قائلًا: «إنه ليس مَرضًا نادرًا، هذا إذا كان بالإمكان تسميته مَرضًا، لكنه حالةٌ نادرة، بالنظر إلى نسبة المُصابين مقارنةً بعدد السكان ككلٍّ.»

فقال المُشرِف: «إنه صدفةٌ لافتة أن تظهر في هذه القضية بالذات.»

فصاح ثورندايك فجأةً: «يا عزيزي ميلر، من المؤكَّد أن خبرتك قد جعلتك على درايةٍ تامَّة بالتواتر المُذهل لتكرار الفشل الاستثنائي التام لتطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية عمليًّا في مهنتك. صدِّقني يا ميلر، لقد كانت فراشة الخبز والزبدة في قصة أليس على حق؛ فالحدث الاستثنائي هو ما يحدث دائمًا.»

وبعد أن بدَّد هذه المُفارقة، غاص مُجدَّدًا في الحقيبة، وأخرج منها هذه المرة صُرةً فريدة ذات مظهر بغيض بعض الشيء، كان غلافها الخارجي مكوَّنًا ممَّا بدا أنه منشفةٌ شديدة الاتساخ، وتبيَّن بينما كان ثورندايك يحلُّ ربطتها برفقٍ أنه ليس سوى نصف منشفة مُستكمَل بمنديل ملوَّن أكثر اتساخًا ورثٍّ للغاية. وقد فتح ثورندايك هذا المنديل أيضًا؛ فكشف عن ياقةٍ متَّسخة للغاية ومهترئةٍ بعض الشيء (لم تكن تحمل أي اسم أو علامة، مِثلها في ذلك مثل الأغراض الأخرى)، وحفنة من العُشب كان من الواضح أنها وُضِعت كي تكون بطانة لتغليفِ شيءٍ ما.

فأمسك المفتِّش الياقة، واقتبس من كلام ثورندايك مُتحدثًا بنبرةٍ تأمُّلية، وقال: «إنه رجلٌ أنيقٌ مُنظَّم شديد الاهتمام بمظهره.» ثم أسقط الياقة من يده، ومسح أصابعه مُتباهيًا.

فابتسم ثورندايك ابتسامةً قاتمة، لكنه لم يردَّ إذ كان يفصل العُشب برفق عن الأشياء التي يحويها، والتي تبيَّن أنها عتلةٌ صغيرة مكوَّنة من أنابيب متحدة المركز وقابلة للإطالة والتقصير، ومثقابٌ مفصلي، ومفك مسامير، وحزمة من مفاتيح هيكلية.

علَّق ثورندايك قائلًا: «يتفهَّم المرء سبب عدم رغبة ذلك الرجل في مواجهة الشرطي وبحوزته هذه الأشياء الغريبة بعض الشيء؛ ذلك أنه سيجد صعوبةً في تفسير وجودها

معه.» رفع كومة العُشب بين يديه لتفحُّص مدى نضارتها، وبينما كان يفعل ذلك وقع على الورقة شيءٌ صغير أشبه بالسيجار.

فسأل المشرف: «ما هذا؟ يبدو كأنه شرنقة.»

قال ثورندايك: «ليست كذلك، بل صَدَفة، وأظنُّ أنها نوع من قواقع «كلوسيليا» الأرضية.» التقط الصَّدفة الصغيرة، وتفحَّص فمها من كثب من خلال عدسته، ثم أضاف قائلًا: «نعم، إنها إحدى قواقع «كلوسيليا». هل تدرس رخوياتنا البريطانية يا بادجر؟»

أجاب المفتِّش بنبرةٍ تأكيدية: «كلا، لست أدرسها.»

تمتم ثورندايك قائلًا: «هذا مؤسِف؛ فلو كنت تدرسها كنت ستهتمُّ بمعرفة أن اسم هذه الصَّدفة الصغيرة هو «كلوسيليا الثنائية الطيَّات».»

فقال بادجر: «أنا لا أكترث باسمها البغيض، بل أريد معرفة هُوية صاحب هذه الحقيبة، وشكله، ومن أين أتى وإلى أين ذهب؛ فهل تستطيع إخبارنا بذلك؟»

نظر ثورندايك إلى المفتِّش بجِدِّيةٍ جامدة، وقال: «كل ذلك واضحٌ جدًّا، واضح جدًّا، غير أنني أرغب في معرفة بضع تفاصيل قبل الإدلاء بالقول الفصل. نعم، أظنُّ أنني سأحتفظ بحُكمي النهائي حتى أمنح المسألة مزيدًا من التفكير.»

فتلقَّى المفتِّش هذا الكلام بابتسامةٍ مُتشكِّكة؛ إذ كان شِبه عالق في مأزق؛ فقد كان زميلي مولَعًا بنوع من الفكاهة الجامدة، ومن المحتمَل أنه كان يُحاول إقناع المفتش بشيءٍ زائف. وفي الوقت نفسه كنت أعرف، وكذلك كان المُحقِّقان يعرفان، أنه من الوارد جدًّا أن يكون قد توصَّل إلى حل مشكلة بادجر التي بدت مُستحيلة، ويكتم ما عرفه ريثما يرى إلى أين سيقوده.

قال ثورندايك وهو يُمسك العصا في أثناء كلامه، ويتفحَّص سماتها التي لم يكن بها شيءٌ مميز للغاية: «هلَّا نُلقي نظرةً على العصا؟» كانت عصًا عادية من خشب المُرَّان، ولها مقبضٌ مُلتوٍ مصقول قد صار داكنًا لطول ما لامَسته يدٌ عارية على ما يبدو. كانت العصا مُلطَّخة بطينٍ أصفر من فوق طرفها السُّفلي بحوالَي ثلاث بوصات، وكان النعل الحديدي لدعامة طرفها السُّفلي باليًا تمامًا، وكان هذا الاهتراء قد أُصلِحَ بدقِّ مسمارٍ فولاذي تزييني كمسامير الأحذية في الطرف المكشوف.

فعلَّق ثورندايك وهو يُشير إلى المسمار بينما كان يقيس قُطْر الدعامة السُّفلية بفرجار القياس الصغير الذي يحمله في جيبه: «إنه رجلٌ مدبِّر.» ثم أضاف وهو ينظر بجدية

إلى المفتش: «يَبلُغ القُطر ثلاثًا وعشرين على اثنتين وثلاثين. من الأفضل أن تُدوِّن ذلك يا بادجر.»

ابتسم المفتش ابتسامةً مريرة بينما ترك ثورندايك العصا، وأمسك حقيبته الخضراء الصغيرة المكسوَّة بقماش القنب، والتي تحوي أدواته الاستقصائية، مُتأهبًا للرحيل.

قال: «سنُبلغك يا ميلر إذا عرفنا أي شيء قد يُفيدك. هيَّا يا جِرفيس، لا بد أن نرحل الآن.»

وبينما كنا على متن العربة التي تجرُّها الخيول مُحدِثةً صريرًا رنَّانًا، والتي حملتنا بطول شارع «وايتهول» نحو حي «واترلو»، تحدَّثت إلى ثورندايك قائلًا: «إن بادجر يُساوره بعض الشك في أنك حجبت عنه بعض المعلومات القيِّمة بشأن تلك الحقيبة.»

اتَّفق ثورندايك معي بابتسامةٍ خبيثة قائلًا: «إنه يشكُّ في ذلك بالفعل، ولا يشكُّ إطلاقًا في أنني أعطيته تلميحًا مُفيدًا للغاية.»

استرجعت الحوار الذي دار في المكتب سريعًا، وتوصَّلت إلى أن الحقائق المستخلَصة من محفظة مستلزمات العناية بالمظهر لا يُمكن أن توصف بأنها تلميحات، فسألته: «أفعلتَ ذلك حقًّا؟»

أجاب قائلًا: «صديقي العلَّامة يرغب في التظاهر بالبلادة. هذا لا يُناسبك يا جِرفيس؛ فأنا أعرفك منذ فترةٍ طويلة.»

فابتسمت بشيءٍ من الامتعاض؛ إذ كان من الواضح أنني لم أنتبه إلى المَغزى الكامن في أحد الشروح الغامضة التي عرضها، وكنت عرفت أن لا جدوى من طرح مزيد من الأسئلة؛ فقضيت بقية رحلتنا بأكملها وأنا أُكافح عبثًا في حجرة الركَّاب بالعربة لمعرفة «التلميح المفيد» الذي لم ينتبه إليه المُحقِّقان، ولا أنا، بل إنني كنت مشغولًا جدًّا بهذه المشكلة، لدرجة أنني أغفلت أن الحقيبة التي تركها ذاك الرجل لم تكن شغلنا الشاغل في الواقع، وأننا كنا مُنخرطين بالفعل في التحقيق في جريمةٍ لم أكن أعرف عنها شيئًا تقريبًا آنذاك، ولم أتفطَّن إلى ذلك إلا فجأةً حين جلسنا في مقصورةٍ شاغرة في القطار وبدأ القطار يتحرَّك، وحينها انصرفت عن التفكير في مشكلة الحقيبة، وطلبت من ثورندايك إخباري بتفاصيل عن «لغز قطار برينتفورد».

قال: «إن وصفها بأنها لغزٌ يُمثِّل إساءةً لاستخدام هذه الكلمة؛ إذ يبدو أن مجرد سرقة بسيطة وقعت في قطار. صحيحٌ أن هُوية السارق مجهولة، لكن ما من شيءٍ شديد الغموض في ذلك، أما بقية تفاصيل الجريمة فهي عادية جدًّا، وها هي ملابَساتها:

منذ فترةٍ ما، اشترى السيد ليونيل مونتيجيو، أحد الشركاء في شركة «لَيونز ومونتيجيو وسالامان» التي تُتاجر في الأعمال الفنية، من أحد النُّبلاء الروس قلادةً ماسية ثمينة جدًّا ذات حلية مُتدلية منها. وقد كانت ميزة هذه القلادة أن فصوص الألماس كلها باللون الأزرق الباهت، ويتوافق بعضها مع بعض بدقةٍ كبيرة؛ فإضافةً إلى القيمة الإجمالية للفصوص، والتي كانت جميعها كبيرة الحجم وبعضها كبيرًا جدًّا، كانت قيمة القلادة ككلٍّ ترجع إلى هذا التجانس اللوني. وقد اشتراها السيد مونتيجيو بمبلغٍ مقداره ٧٠ ألف جنيه إسترليني، ورأى أنه قد أبرم بذلك صفقةً رابحة ممتازة. وينبغي أن أذكر هنا أن مونتيجيو كان هو المُشتري الرئيس للأشياء التي تُتاجِر فيها الشركة، وأنه قضى معظَم وقته في السفر إلى مختلف أنحاء القارَّة بحثًا عن الأعمال الفنية وغيرها من الأشياء التي تُناسب أغراض شركته، وأنه كان خبيرًا بارعًا بالطبع في مثل هذه الأشياء. والآن، يبدو أنه لم يكن راضيًا عن القِطع المعدنية التي كانت الفصوص مُثبَّتةً عليها في هذه القلادة، وحالَما اشتراها سلَّمها إلى متجر السيدان «بينكس»، الواقع في شارع «أولد بوند ستريت»؛ ليستبدل مكان تلك القِطع المعدنية قطعًا أخرى ذات تصميمٍ أفضل. وقد أخطره بينكس صباح الأمس بالانتهاء من تغيير القِطع؛ فزار متجره في عصر اليوم نفسه ليتفحَّص ذلك التغيير ويأخذ القلادة إذا ما رآه مُرضيًا له. جرى اللقاء بين بينكس ومونتيجيو في حجرةٍ خلف المتجر، لكن يبدو أن مونتيجيو قد خرج إلى المتجر ليَتفحَّص القلادة تحت ضوءٍ أقوى، وقد ذكر السيد بينكس أنه لاحظ وجود رجل يقف عند المدخل ويُراقب السيد مونتيجيو خلسةً، بينما كان زبونه يقف مقابل الباب مُتفحِّصًا القِطع الجديدة.»

قلت له: «إن ذلك لا يُمثِّل أهميةً كبيرة. إذا وقف رجلٌ عند باب متجر حاملًا في يده قلادة مرصَّعة بألماسٍ أزرق، فمن المرجَّح أن يلفت الانتباه إليه.»

اتَّفق ثورندايك معي قائلًا: «نعم، لكن المرء غالبًا ما يُصبح أكثر تقديرًا لأهمية الأحداث السابقة بعد ظهور العواقب. وبينكس يؤكِّد بشدة على رؤية ذلك المُتلصص. لنُواصِل سرد ما حدث على أي حال: حين شعر السيد مونتيجيو بالرضا عن القِطع المعدنية الجديدة، أعاد وضع القلادة في علبتها ووضع العلبة في حقيبته، والتي كان قد أحضرها معه من الحجرة الداخلية، ثم غادَر المتجر بعد ذلك بدقيقة تقريبًا. كان ذلك في حوالَي الساعة الخامسة مساءً، ويبدو أنه ذهب مباشرةً إلى شقة شريكه، السيد سالامان، والذي كان يُقيم معه منذ أسبوعين، في شارع «كوينز جيت». ظل هناك حتى الساعة الثامنة والنصف تقريبًا، ثم خرج بمرافقة السيد سالامان. كان ذلك الأخير يحمل حقيبة

سفر، بينما كان مونتيجيو يحمل حقيبة يد تحوي القلادة، ومن غير المعروف ما إذا كانت تحوي شيئًا آخر أم لا.

توجَّه الرجلان من «كوينز جيت» إلى «ووترلو»، قاطعين جزءًا من الطريق سيرًا على الأقدام قبل أن يقطعا الجزء المتبقِّي بحافلةٍ عمومية.»

صِحتُ متعجِّبًا: «بحافلةٍ عمومية! وبحوزتهما ألماس يُقدَّر بسبعين ألف جنيه إسترليني!»

«نعم، يبدو ذلك غريبًا، ولكن يبدو أن من اعتادوا التعامل مع المحمولات النفيسة يُشبِهون من اعتادوا التعامل مع المتفجِّرات؛ إذ يبدءون تدريجيًّا في إغفال المَخاطر. لقد ذهبا بهذه الطريقة على أي حال، ووصلا بأمان إلى «ووترلو» في الوقت المناسب للحاق بقطار التاسعة والربع المتَّجه إلى «أيزلورث»، وأوصل السيد سالامان شريكه إلى مقصورةٍ شاغرة بالدرجة الأولى، وبقي معه يتبادلان أطراف الحديث إلى أن بدأ القطار في التحرك.

كان السيد سالامان مُتجهًا إلى حي «أيزلورث»، والذي يملك فيه السيد جيكوب لوينشتاين، الذي كان يسكن في «شيكاجو» حتى وقت قريب ثم انتقل الآن إلى «بيركلي سكوير»، بيتًا كبيرًا فخمًا على ضفة النهر به مصفٌّ قوارب بخارية، وإن كنت أجد سُكناه في هذا الحي أمرًا غريبًا. كان لوينشتاين قد حصل على حق شراء قلادة الألماس الأزرق؛ لذا كان مونتيجيو ذاهبًا إليه ليُريه إيَّاها ويُبرم الصفقة، وكان يعتزم المكوث بضعة أيام مع لوينشتاين، وكان سيتجه بعد ذلك إلى بروكسل في إحدى جولاته الدورية، لكنه لم يصل إلى «أيزلورث» قط؛ فحين وصل القطار إلى «برينتفورد»، لاحظ أحد الحمَّالين حقيبةَ سفر على رفِّ الأمتعة في إحدى مقصورات الدرجة الأولى التي بدت فارغة. دَخل على الفور ليأخذها، وبينما كان يُحاول بلوغ الرف لامَست قدمه شيئًا ليِّنًا أسفل المقعد؛ فبُغِت بشدة، وانحنى ليُحدِّق أسفل المقعد، وانتابه ذُعرٌ شديد حين رأى جسد رجل كان هامدًا بلا حراك وبدا ميتًا، فاندفع خارج القطار، وركض بطول رصيف المحطة في حالةٍ من الهلع الشديد، حتى اصطدم، لحسن الحظ، بمدير المحطة، الذي عاد معه هو وحمَّالٌ آخر إلى المقصورة. وحين أخرجوا الجسد من أسفل المقعد، تبيَّن أنه ما يزال يتنفس، وسرعان ما حاولوا إفاقته بماءٍ بارد وهواءٍ نقي، في انتظار وصول الشرطة والطبيب بعد استدعائهم.

وفي غضون بضع دقائق، وصل أفراد الشرطة ومعهم جرَّاح الشرطة الذي قرَّر بعد فحص موجَز أنَّ الرجل الفاقد الوعي كان يُعاني من تأثيرِ جرعةٍ كبيرة من الكلوروفورم قد أُعطيَت إليه بعنفٍ وغشم، وأمر بنقله بعناية إلى دارِ تمريضٍ محلية. وفي أثناء ذلك،

كان أفراد الشرطة قد تمكَّنوا من معرفة أنه السيد ليونيل مونتيجيو بتفحُّص محتويات جيوبه.»

قلت له: «وكانت فصوص الألماس قد اختفت بالطبع؟»

«نعم؛ فلم تكن حقيبة اليد موجودة في المقصورة، ثم عُثِر بعد ذلك على حقيبةِ يدٍ فارغة على مسار السكة الحديدية بين محطتَي «بارنز» و«تشيسوِك»، ويبدو أنها تُشير إلى المكان الذي وقعت فيه السرقة.»

«وما هدفنا الحالي؟»

«نحن ذاهبان إلى دار التمريض بناءً على تعليمات من السيد سالامان لنحصل على أي معلومات يمكننا معرفتها. إذا تعافى مونتيجيو بالدرجة التي تكفي للإدلاء بأقواله عن واقعة السرقة، فسيُصبح لدى الشرطة وصفٌ للسارق، وحينها قد لا يتبقَّى لنا الكثير لنفعله، غير أنك قد لاحظتَ على الأرجح أن شرطة سكوتلانديارد لا تملك في الوقت الحالي على ما يبدو أيَّ معلوماتٍ أخرى سوى ما ذكرته لك؛ ومن ثَم فما تزال لدينا فرصةٌ لنكسب أجرنا.»

ظللنا مُنشغلين بحديث ثورندايك عن هذه الجريمة المألوفة بعض الشيء والنقاش الذي أعقبها حتى توقَّف القطار في محطة برينتفورد. وبعد ذلك ببضع دقائق، توقَّفنا في أحد الشوارع الهادئة بهذه البلدة القديمة عند بابٍ مطليٍّ بلونٍ واحد غير فاقع يحمل لوحةً نحاسية منقوشًا عليها عبارة: «دار سانت أجنيس للتمريض.» ويبدو أنه كان هناك مَن لاحظ وصولنا؛ إذ فتحت لنا البابَ سيدةٌ في منتصف العمر ترتدي زيَّ ممرضة.

استفسرت قائلةً: «دكتور ثورندايك؟» وبينما أومأ زميلي بالإيجاب، تابعَت حديثها وقالت: «أخبرني السيد سالامان بأنك قد تأتي. يؤسفني القول إنني لا أحمل لك أخبارًا سارَّة؛ فالمريض ما يزال فاقدًا للوعي.»

قال ثورندايك: «هذا غريب.»

فقالت: «أجل؛ فالدكتور كينجستون، المسئول عن الحالة، مُتحيِّرٌ بعض الشيء من هذه الغيبوبة الطويلة، ويُخالجه شكٌّ في وجود مادة مخدِّرة — قد تكون جرعةً كبيرة من المورفين — إضافةً إلى تأثير الكلوروفورم والصدمة.»

قلت: «إنه مُحقٌّ على الأرجح، والعجيب أن الرجل ما زال على قيد الحياة أصلًا بعد تعرُّضه لهذه التجربة الشنيعة.»

قال ثورندايك: «نعم، لا بد أنه ذو بأسٍ شديد. هل يمكننا رؤيته؟»

قالت رئيسة الممرضات: «آه، نعم. لقد تلقيت تعليماتٍ بتقديم كل المساعدة الُممكنة لك، والدكتور كينجستون يودُّ معرفة رأيك بشأن الحالة.»

أوصلتْنا إلى غرفةٍ لطيفة في الطابق الأول كان بها رجلٌ يرقد على فراشٍ مُغمِض العينين هادئ الأنفاس لم يُبدِ أي علامة تشير إلى وعيه بما حوله حين دخلنا الغرفة بشيءٍ من الصخَب، بينما كان الضوء القوي يسقط مباشرةً على وجهه عبر نافذة كبيرة مقابل الفراش قد تُركت دون ستار. وقف ثورندايك بعض لحظات بجوار الفراش ينظر إلى الرجل الفاقد للوعي، ويُنصِت إلى تنفُّسه مع ملاحظة معدَّل تواتر النفس بساعته، جسَّ النبض ورفع كلا الجَفنين لتفحُّص بؤبؤَي العينين.

وبعد ذلك، أدلى باستنتاجه قائلًا: «لا تبدو حالته مُقلِقة. صحيحٌ أن التنفُّس ضحلٌ بعض الشيء، لكنه منتظم جدًّا، والنبض ليس سيئًا وإن كان بطيئًا. أما البؤبؤان المتقلِّصان، فهما يرجِّحان تعرُّضه لجرعةٍ من الأفيون، أو المورفين على الأرجح، لكن ذلك قد يُحسَم بسهولة بإجراء تحليل كيميائي. هل تُلاحظ حالة الوجه يا جِرفيس؟»

«أتقصد آثار الحروق الناجمة عن الكلوروفورم؟ نعم، لا بد أن المنديل أو الضمادة كانا مُشبَّعين به، غير أنني قد لاحظت أيضًا أنه يتشابه تشابهًا ملحوظًا مع الوصف الذي ذكرته لبادجر عن صاحب حقيبة مستلزمات العناية بالمظهر؛ فهو يبلغ من العمر ما ذكرته تقريبًا — حوالَي الخمسين — ولحيته مُشذَّبة على الطراز القديم نفسه: شاربٌ محلوق، وخصلات شعر مُتهدلة أسفل الذقن. إنها صدفةٌ غريبةٌ بعض الشيء.»

فحدَّق إليَّ ثورندايك، وقال: «بل الصدفة أقرب من ذلك يا جِرفيس. انظر إلى اللحية نفسها.»

أعطاني عدسته، فانحنيت ووجَّهتها نحو لحية المريض لأسلِّطها عليها. وحينها انتصبت فجأةً من الدهشة؛ إذ رأيت بجِلاءٍ تحت الضوء الساطع أن جزءًا كبيرًا من الشعر كان من الشعر المعجَّر. لقد كانت لحية هذا الرجل هي أيضًا مُصابة بحالةٍ مُبكِّرة من تقصُّف الشعر العقدي!

صِحت مُندهشًا: «عجبًا! هذه صدفةٌ مُذهلة حقًّا. أتكون أكثر من مجرَّد صدفة يا تُرى؟»

قال ثورندايك: «يُراودني التساؤل نفسه. هل هذه أغراض السيد مونتيجيو أيتها الممرضة؟»

أجابت وهي تتجه نحو المنضدة الجانبية التي كانت أغراض المريض مرصوصةً عليها بنظام: «نعم، هذه ثيابه والأشياء التي أُخرِجت من جيوبه، وهذه حقيبتُه. لقد وُجِدت على مسار السكة الحديدية، وأُرسِلت إلى هنا قبل ساعتَين، لكنها فارغةٌ لا شيء فيها.»

ألقى ثورندايك نظرةً على الأشياء المختلفة التي أُخرِجت من جيوب المريض، والتي كانت تتضمَّن مفاتيح وحافظة بطاقات وحافظة نقود صغيرة وما إلى ذلك، ثم أمسك الحقيبة وقلَّبها بين يديه بفضول، ثم فتحها ليتفحَّصها من الداخل. لم يكن فيها شيءٌ مميز؛ إذ كانت مجرد حقيبة جِلدية مُقلَّدة عادية وجديدة، غير أن مظهرها قد ساء بعض الشيء بسببِ تغييراتٍ أُضيفت عليها مؤخرًا؛ إذ بُطِّنت ببطانةٍ كتَّانية خشنة خِيطَ بها جيبان كبيران من الجِلد اللين الماص خياطةً غير مُتقَنة. وبينما ترك ثورندايك هذه الحقيبة من يده وأمسك حقيبته القماشية، سأل قائلًا: «متى أتى السيد سالامان لزيارة المريض؟»

«أتى إلى هنا في حوالَي الساعة العاشرة من صباح اليوم، ولم يستطع البقاء أكثر من نصف ساعة؛ لأنه كان مُلتزمًا بموعد، لكنَّه قال إنه سيعرِّج على هنا سريعًا مرةً أخرى مساء اليوم. ألا تستطيع الانتظار حتى تراه؟»

أجاب ثورندايك: «بلى مع الأسف، بل يجب أن نُغادر الآن في الواقع؛ فأنا والدكتور جِرفيس ملتزمان بأمورٍ أخرى يجب أن نتولَّاها.»

سألني ثورندايك بينما كنا نسير في الشارع الرئيس نحو المحطة: «هل ستعود إلى المكتب مباشرةً يا جِرفيس؟»

أجبتُ بشيءٍ من الدهشة: «نعم. ألن تعود إلى هناك مباشرةً؟»

«بلى؛ فأنا أفكِّر في خوضِ رحلةٍ استكشافية قصيرة.»

صِحت متعجبًّا: «آه، هل تعتزم ذلك حقًّا؟» وبينما كنت أتكلَّم، بدأت أدرك أنني قد بالَغت في تقدير أهمية الأعمال الأخرى التي كنت أنوي إنجازها.

فقال ثورندايك: «نعم، الحقيقة أن … ها! أمهِلني لحظةً واحدة يا جِرفيس إذا سمحت.» كان قد توقَّف فجأةً خارج متجر لأدوات الصيد، وبعدما ألقى نظرةً سريعة عبر النافذة، دخله آنذاك بهيئةٍ تنمُّ عن رغبة في إنجازِ أمرٍ متعلِّق بالعمل. تبعته إلى داخل المتجر على الفور، ودخلت في الوقت المُناسب تمامًا لأسمعه يطلب صنَّارة صيد خفيفة رخيصة. وحين أحضرها البائع له، طلب خَيط صنَّارة وخُطَّافًا أو اثنين، وقد فُوجئت قليلًا، وفُوجئ البائع أيضًا مفاجأةً سارَّة بالطبع بعدم اهتمام ثورندايك بجودة هذه

المعَدَّات أو مواصفاتها. وأظنُّ أنه كان سيَقبل آنذاك بأي شيء يُعرَض عليه حتى وإن كان خيط صنارة لصيد أسماك القد وخُطَّافًا لصيد أسماك القرش.

قال: «والآن، أريد عوَّامة لخيط الصنَّارة.»

فأخرج صاحب المتجر صينيةً تحمل مجموعة من العوَّامات ألقى عليها ثورندايك نظراتٍ مُتفحِّصةً تحليلية، وأخيرًا أذهل صاحب المتجر باختيارِ عوامةٍ فظيعة ضخمة مُنتفِخة البطن ومُكتسية بمزيجٍ من اللونين القرمزي والأخضر هي أشبه بنسخةٍ صغيرة من العوَّامة التي تُعلِّم موضع حِزم أسلاك التليغراف التي تمرُّ أسفل المياه.

لم أستطع ترك هذه الفظاعة تمرُّ دون تعليق، فقلت له: «يجب أن تعذرني يا ثورندايك إذا تجرَّأت على القول إن الحوت المقوَّس الرأس لم يعُد يتردَّد على روافد نهر التايمز.»

فقال وهو يضع عوَّامة حِزم أسلاك التليغراف في جيبه بهدوءٍ جامد ويدفع ثمن مشترياته: «هلَّا تهتمُّ بشئونك الخاصة! فأنا أُحبُّ من العوَّامات ما أستطيع رؤيتها.»

وهنا علَّق صاحب المتجر، بعدما تعافى بعض الشيء من صدمة المُفاجأة، قائلًا باحترامٍ إن وقتًا طويلًا قد مضى منذ أن صِيدت إحدى أسماك الكراكي الضخمة في هذه المنطقة، وحينها أجهز ثورندايك عليه تمامًا بالرد قائلًا: «نعم، لا أشكُّ في ذلك؛ فهم لا يستخدمون النوع الصحيح من العوَّامات كما تعلم. أما الآن، فحين ترى أسماك الكراكي عوَّامتي، سيتدافَع بعضها فوق بعض لتعلَق بالخُطَّاف.» وتأبَّط الصنَّارة، وخرج بخُطًى متسكِّعة تاركًا صاحب المتجر يلهث بشدة ويحدق بشدةٍ أكبر.

سألته بينما كنا نسير في الشارع (تحت أنظار صاحب المتجر الذي خرج إلى الرصيف ليرانا للمرة الأخيرة): «لكن ما الذي تُريد فعله بهذه العوَّامة الضخمة بحقِّ السماء؟ عَجبًا لك، إنها تُرى على بُعدِ ربع ميل.»

قال ثورندايك: «بالضبط. وفيمَ يرغب صيَّاد رجال سوى ذلك؟»

جعلني هذا الردُّ أقف مع نفسي وأفكِّر مليًّا؛ فمن الواضح أن ثورندايك كان لديه شيءٌ يمثِّل ما هو أكثر من مصلحةٍ مُشتركة، وخطر ببالي مرةً أخرى أن الأعمال التي يجب عليَّ إنجازها ليست بالضرورية المُلحَّة. وكنت على وشك ذِكر هذه الحقيقة حين توقَّف ثورندايك مجددًا، عند متجر زيوت ومواد كيميائية هذه المرة.

قال: «سأدخل هنا، وأشتري قليلًا من الصبغة الطبيعية ذات اللون البني المحمر.»

فتبعته إلى داخل المتجر، وبينما كان البائع يَزِن الصبغة المسحوقة ويضعها في كيسٍ ورقي، رحت أفكِّر مليًّا؛ ذلك أنني لم أجد علاقةً واضحة بين معَدَّات الصيد والصبغة البُنية المحمرة، وانتابتني الحيرة بقدر ما انتابني الفضول أيضًا.

سألته حالَما خرجنا من المتجر: «لماذا تريد الصبغة البنية المحمرة؟»

أجاب فورًا: «لأخلطها بالجص.»

«ولماذا تريد تلوين الجص؟ وماذا ستفعل به؟»

وحينها أنَّبني بصرامةٍ مُصطنَعة قائلًا: «إنك لا تُظهِر قدراتك الحقيقية الآن يا جِرفيس؛ فمُحقِّق بخبرتك لا ينبغي أن يطلب تفسيرًا لما هو واضح.»

فأضفتُ: «ولماذا أردتَ أن تعرف ما إذا كنت سأعود مباشرةً إلى المكتب أم لا؟»

«لأنني قد أحتاج إلى بعض المساعدة لاحقًا. صحيحٌ أن بولتون يستطيع إنجاز كل ما أريده على الأرجح، لكني أفضِّل أن تكونا كلاكما على مقربةٍ من برقية سأُرسلها لاحقًا.»

فصِحت مُتعجبًا: «كم يبدو من العبث أن تتحدَّث عن إرسال برقية إليَّ في حين أنني هنا!»

«لكني قد لا أحتاج إلى أي مساعدة هنا في النهاية.»

قلت بإصرار: «حسنًا، ستنال المساعدة سواءٌ أأردتها أم لا. إنك تعتزم فِعلَ شيءٍ ما، وسأُشاركك فيه.»

قال وهو يضحك ضحكةً مكتومة: «أُحبُّ حماستك يا جِرفيس، لكن ثَمة احتمالًا كبيرًا ألا أجد في النهاية سوى سراب.»

فقلت له: «حسنًا جدًّا، سأساعدك إذن في العثور عليه. لديَّ خبرةٌ كبيرة في هذا الاختصاص، فضلًا عن مواهبي الفِطرية فيه؛ فهيَّا سِرْ بنا.»

سار بنا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة التصبُّر، وتوجَّه بنا نحو المحطة حيث وجدنا لحُسن حظنا قطارًا على وشك الانطلاق، غير أن رحلتنا لم تَطُل؛ إذ ترجَّل ثورندايك من القطار في محطة «تشيسوِك»، وحالَما غادَرنا المحطة اتَّجه شرقًا وقد اتخذ هيئة مَن يعتزم إنجازَ عملٍ ما، وحين دخلنا مشارف حي «هامرسميث»، انعطف إلى شارعٍ جانبي سرعان ما أخرجنا إلى طريق «بريدج رود». وهنا اتجه فجأةً إلى اليمين، وبالخُطى السريعة نفسها عَبَر جسر هامرسميث، وشقَّ طريقه إلى ممشى قطرِ القوارب. ولأنه تباطأ آنذاك تباطؤًا ملحوظًا، فقد بادرت بسؤاله عمَّا إذا كان هذا هو المكان الذي يعتزم أن يعرض فيه عوَّامته الضخمة.

وأجاب هو قائلًا: «أظنُّ أن هذه المنطقة هي البُقعة التي سنصطاد فيها، لكننا سنتفحَّصها بإمعان، ونختار موضعًا مناسبًا نطرح منه الصنارة.»

واصَل المسير بخُطًى هادئة، ولاحظتُ أنه يُمارس عادته الدائمة في تفحُّص خصائص آثار الأقدام المختلفة التي وطئت المَمشى في اليوم السابق أو اليومين السابقين؛ ولهذا فقد ظلَّ مُلازِمًا للجانب الأيمن من الممشى، حيث كانت ظلال بضع أشجار من الصفصاف قُطِعت فروعها العُلوية تتدلى فوق قناة جافَّة غير واضحة المَعالم، قد أبقت الأرض ليِّنةً بعض الشيء. ظللنا نمشي مسافة نصف ميل تقريبًا، ثم توقَّف ونظر حوله.

قال: «أظنُّ أن من الأفضل أن نعود إلى الوراء قليلًا؛ إذ يبدو أننا قد تجاوزنا الأثر المنشود.»

لم أعلِّق على هذه الملاحظة الغامضة، ورجعنا إلى الوراء مسافة مائتَي ياردة تقريبًا. ظلَّ ثورندايك مُلازمًا للجانب الأبعد عن النهر ومُحدِّقًا إلى الأرض. توقَّف مرةً أخرى بعد فترةٍ قصيرة، وألقى بنظره على الممشى الذي كنا شاغلَيه الوحيدَين آنذاك، ثم وضع حقيبته القماشية على الأرض، وفكَّ أبازيمها.

قال: «أظنُّ أن هذا هو موضعنا المنشود.»

سألته: «ماذا ستفعل؟»

«سأصنع قالبًا أو اثنين. وفي أثناء ذلك، من الأفضل أن تُركِّب أجزاء الصنَّارة معًا كي تُشتِّت انتباه أي مارَّة.»

بدأت أجهِّز معَدَّات الصيد، وظللت في الوقت نفسه أُراقب إجراءات زميلي من كثب، وقد كانت إجراءاتٍ شديدةَ الغرابة؛ فقد بدأ أولًا باغتراف القليل من مياه النهر في وعاء الخلط المطاطي الذي خلط فيه الماء بمقدار ملء إناء من الجص، ثم خفق مع هذا الخليط بضع رشَّات من الصبغة البُنية المحمرة، التي حوَّلت لونه الأبيض الناصع إلى لونٍ طيني فاتح يميل إلى الاصفرار. وبعد ذلك، نظر إلى امتداد الممشى في الاتجاهين، ثم انحنى وسكب الجص السائل بعناية في بصمتَي عصا سير كانتا ظاهرتين عند حافَّة الممشى، وأنهى إجراءاته بملءِ بصمةٍ عميقة للعصا نفسها عند حافَّة القناة، حيث كان من الواضح أنها غُرِزت في الأرض الطينية الرخوة.

وبينما كنت أشاهد هذه العملية، خطر ببالي شكٌّ مُفاجئ. تركت الصنَّارة ومشيت مُسرعًا على الممشى، حتى رأيت بصمةً أخرى للعصا، وبفحصٍ سريع لها تأكَّد شكِّي؛ ففي

وسط الحفرة الضحلة الصغيرة التي أحدثتها تلك البصمة، رأيت بصمةً شِبه دائرية كان من الواضح أنها ناجمة عن مسمارٍ تزييني شِبه بالٍ.

وحينئذٍ صِحت قائلًا: «عجبًا! هذه هي العصا التي رأيناها في سكوتلانديارد!»

فقال ثورندايك: «أتوقَّع أنها هي، بل أعتقد أنها هي بالفعل، غير أننا سنُصبِح أقدر على تحديد ذلك عند رؤية القوالب. فلتُمسِك صنَّارتك؛ يوجد رجلان قادمان على المشى.»

أغلق حقيبة استقصاءاته، وبعدما سحب خيط الصنَّارة من جيبه، بدأ يبسطه وهو مُنهمك في التفكير.

قلت: «كنت أتمنَّى أن يكون مظهرنا أكثر تماشيًا مع شخصية الصيَّاد الريفي ذي الصنَّارة، ولتُخفِ هذه العوَّامة بحق الرب، وإلا سنَجمع حولنا حشدًا من الناس بسببها.»

ارتسمت على وجهه ضحكةٌ هادئة، وقال: «العوَّامة كانت من أجل بولتون؛ إذ كان سيُحبُّها. والحشد سيُصبح ميزة إلى حدٍّ ما، وسوف تُدرك ذلك عندما يحين الوقت الذي نستخدمها فيه.»

مرَّ بنا الرجلان — اللذان كانا بنَّاءين على ما يبدو — ورمقا معَدَّات الصيد بنظرةٍ خاطفة يعتريها فضولٌ طفيف، وبينما كانا يتسكَّعان بجوارنا أدركت قيمة الصبغة البنية المحمرة؛ فلو كانت القوالب الجصية مصنوعةً من الجص الأبيض، لبرَزت بوضوح في الأرض، ومن شِبه المؤكَّد أن هذين الرجلين كانا سيتوقَّفان حينئذٍ ليتفحَّصاها ويعرفا ما كنا نفعله. أما الجص الملوَّن فقد كان غير مرئي تقريبًا.

أعلنت هذا الاكتشاف الذي توصَّلت إليه قائلًا: «أنت رجلٌ رائع يا ثورندايك. إنك تتوقع كل شيء.»

فانحنى مُعرِبًا عن امتنانه، وبعدما جسَّ أحد القوالب برفق، وتيقَّن من أن الجص قد صار يابسًا، رفعه بعنايةٍ هائلة وقد شكَّل نسخةً طِبق الأصل من طرف العصا السُّفلي. كان المسمار التزييني يظهر على النسخة بوضوح، حتى إن بقايا الشكل النمطي الذي يُزيِّنه قد ظهرت هي أيضًا. وحين أخرج ثورندايك فرجار القياس، زال من أنفسنا أيُّ شكٍّ كان من الممكن أن يظلَّ مُتبقيًا حيال هُوية العصا.

قال وهو يفتح فكَّي الفرجار ويُراجِع المُدوَّن في دفتر ملاحظاته: «أظنُّ أن القُطر كان يبلغ ثلاثًا وعشرين على اثنتين وثلاثين بوصة.» وحين وضع القالب بين الفكَّين، وانزلقا برفق حتى لامساه، كان التدريج يُشير إلى ثلاث وعشرين على اثنتين وثلاثين بوصة.

فقال ثورندايك وهو يُمسِك القالبين الآخرين، ويؤكِّد هُويتهما مُستخدِمًا القالب الذي قِسناه: «جيد. بهذا ننتهي من الإجراء الأول. وبعدما ألقى أحد القوالب في حقيبته، ورمي الاثنين الآخرين في النهر، أضاف: «لننتقل الآن إلى الإجراء التالي، ونأمل أن نُحرِز فيه نجاحًا مُشابهًا. تُلاحظ هنا أنه غَرَز عصاه في الأرض، فلماذا فعل ذلك من وجهة نظرك؟»

«ربما ليَجعل يدَيه حُرتَي الحركة.»

«نعم. والآن، لنقعد هنا ونفكر في السبب الذي جعله يرغب في أن تكون يداه حُرتَي الحركة. انظر حولك فحسب وأخبِرْني بما تراه.»

حدَّقت بنظراتٍ يائسةٍ بعض الشيء إلى الأشياء العادية جدًّا المحيطة بنا، ورحت أسردها دون تفاصيل، فقلت: «أرى أشجار صفصاف رثَّة مقطوعة الفروع العلوية، ومجموعةً متنوعة من نباتاتٍ عادية للغاية، وقِدرًا صفيحيًّا مهجورًا غير صالح للاستعمال، ورُقعةً جَرداء حيث يبدو أن شخصًا ما قد انتزع قطعةً صغيرة من العشب.»

فقال ثورندايك: «نعم، وستُلاحظ أيضًا توزيع مقدار من التراب بشيء من التساوي على قاع القناة. وقد قُطِعت رُقعتُك العُشبية من عند حوافِّها بسكينٍ كبير قبل انتزاعها؛ فلماذا انتُزِعت في رأيك؟»

هززتُ رأسي قائلًا: «لا جدوى من إطلاق محض تخمينات.»

قال: «ربما لا، غير أنها تُوحي بسببٍ واضح حين تُوضَع في الحُسبان مع الشواهد الأخرى؛ إذ تُلاحِظ بين جذور الصفصاف رقعةً عُشبية تبدو أكبر سُمكًا ممَّا قد يتوقَّعه المرء وفق مكانها. أتساءل ...»

وبينما كان يتكلَّم مدَّ عصاه إلى الأمام، وحاوَل تحريك رقعة العشب من عند حوافها بالقوة، فارتفعت الرقعة كتلةً واحدة، وحين أخذتُها وحاولت وضعها على الرقعة الجرداء، تلاءمت معها بدقةٍ بالغة لم تدَع أي مجال للشك في أصلها.

فصِحت وأنا أنظر إلى التربة التي كان اضطرابها واضحًا بين جذور الصفصاف، والتي ظهرت بعد رفع رقعة العشب الصغيرة التي كانت تُغطِّيها: «ها! الأرض تزداد سُمكًا هنا. يبدو أنها تُواري شيئًا مدفونًا، أو حُفِرت لإخراج شيء منها، والأرجح أنها تُواري شيئًا مدفونًا.»

قال ثورندايك وهو يفتح حقيبته ليُخرِج منها ملعقةً مسطَّحة كبيرة: «آمل أن يكون صديقي العلَّامة مُصيبًا، وأظنُّه كذلك.»

فسألته: «ماذا تتوقَّع أن تجد هناك؟»

أجاب قائلًا: «لديَّ بصيصٌ من الأمل في إيجادِ شيءٍ ما ملفوفٍ في نصف منشفة شديدة الاتِّساخ.»

قلت له: «من الأفضل أن تجده سريعًا إذن؛ فثَمة رجلٌ قادم على الممشى من اتجاه حي «بوتني».»

نظر نحو الرجل الآتي من بعيد، وبدأ يجرف التربة المُهلهلة ضاربًا الملعقة المسطحة فيها بهِمَّة ونشاط.»

قال وهو يحفر بضرباتٍ قوية ويجرف التراب بيديه: «أُحسُّ بشيءٍ ما.» ونظر مرةً أخرى نحو الشخص الغريب المُقترب، والذي بدا آنذاك أنه قد أسرع الخُطى، لكنه كان ما يزال على بُعد أربعمائة ياردة أو خمسمائة، ثم دفع يديه داخل الحفرة، وبدأ يشدُّ شيئًا ما بقوة. ورُويدًا ظهرت لنا علبةٌ يبلغ بُعداها حواليَ عشر بوصات في ست بوصات، قد غُلفت بجزءٍ من منشفةٍ قذِرة للغاية، ورُبطت برباطٍ دون إحكام. فكَّ ثورندايك الرباط سريعًا، وفتح المنشفة كاشفًا عن علبةٍ أنيقة من الجِلد المغربي ذات صفيحةٍ ذهبية صغيرة تحمل نقوشًا.

انقضضت على العلبة، وضغطت على قفلها، ورفعت غطاءها، ومع أنني كنت أتوقَّع محتواها فقد نظرت إلى الصف المُتلألئ والعنقود البرَّاق من الماسات ذات اللون الرمادي المزرق الداكن بشعورٍ أشبه بصدمة المفاجأة.

وبينما أغلقت العلبة، ووضعتها في الحقيبة القماشية الخضراء، ألقى ثورندايك نظرةً خاطفة على ذلك الكنز وأخرى بطول الممشى، ثم حشر المنشفة في الحفرة، وبدأ يُهيل التراب فوقها. كان الغريب المُقترِب قد غاب عن أنظارنا لبُرهة آنذاك، واختفى وراء أحد مُنعطفات الممشى وأجمة قريبة من الشجيرات، وكان من الواضح أن ثورندايك يعمل على إخفاء كل الآثار قبل أن يظهر ذلك الرجل مجدَّدًا. وبعدما ردم الحفرة أعاد وضع طبقة العشب فوقها بعناية، ثم اتَّجه إلى الرقعة الجرداء الصغيرة التي كنا قد أزلنا من فوقها طبقة العشب، وبدأ يحفرها بسرعة.

قال وهو يُلقي على الممشى دودةً استخرجها من أسفل تلك الرقعة للتَّو: «هاك! هذه ستُفسِّر ما نفعله هنا. من الأفضل أن تُواصل التنقيب بسِكِّين الجيب، ثم تشرع في صيد وحوش اللوياثان. أما أنا فيجب أن أركض إلى مركز الشرطة، ولتَلزَم أنت هذا المَوضع، لا تبرحه لأي سبب حتى أعود أو أُرسِل إليك مَن يُعفيك من هذه المهمَّة. سأُعطيك العوَّامة؛ فسوف تحتاج إليها.» رمى عوَّامته الضخمة البشعة على المَمشى بابتسامةٍ خبيثة، وبعدما مسح الملعقة وأعاد وضعها في الحقيبة، أمسك الحقيبة وسار ناحية حي «بوتني».

وحينئذٍ ظهر الغريب مرةً أخرى يمشي وكأن شخصًا ما يُراهن على فوزه في سباق للمشي، وبدأت أنا في نبش الأرض بِسكِّين الجيب.

وحين اقترب الرجل أبطأ الخُطى تدريجيًّا حتى وصل إليَّ وهو يمشي الهُوينى، وجاء من ورائه بمسافةٍ قصيرة ثورندايك الذي استدار وعاد نحوي كأنه غيَّر رأيه، ومرَّ بي آنذاك قائلًا: «ربما سيكون «هامرسميث» أفضل.» فألقى الغريب نظرةً خاطفة متشكِّكة عليه، ثم التفت إليَّ.

سألني بعدما توقَّف واستطلعني بفضول: «أتبحث عن ديدان؟»

أجبته بإمساك إحداها (باشمئزازٍ أسَرَرتُه في نفسي) ورفعِها عاليًا، بينما أضاف وهو ينظر بأسًى إلى ثورندايك الذي كان يبتعد عنَّا: «يبدو أن صديقك قد ضجر.»

فقلت له: «لم تكن لديه صنَّارة، لكنه سيعود قريبًا.»

قال وهو يُحدِّق من فوق كتفي نحو الصفصاف: «آه! حسنًا، لن تنال أي شيء قد ينفعك هنا؛ فالمكان الذي تَكثُر فيه يقع على بُعدِ ربع ميل، عند دوران ذلك المنعطف بالضبط. تلك رقعةٌ غنيَّة بالديدان. تعالَ معي فحسب وسأُريك.»

قلت له: «يجب أن أبقى هنا حتى يعود صديقي، لكنني سأُخبره بما تقول.»

قلت هذا وجلست ببلادة على الضفة، وبعدما ألقيت خُطَّاف صنارتي المزوَّد بطُعمٍ في مجرى النهر استقررت في جلستي، وظللت مُحدِّقًا إلى العوَّامة الغريبة المُثيرة للضحك. ظلَّ الرجل الذي التقيته للتَّو يتمشَّى حولي بعدم ارتياح، مُحاولًا بين الحين والآخر استدراجي بعيدًا إلى «الرقعة الغنية بالديدان» عند دوران المنعطف. وعلى هذا النحو مرَّ الوقت ببطءٍ شديد حتى مضت ثلاثة أرباع من الساعة.

وفجأةً لاحظتُ سيارتَي أجرة تعبُران الجسر، ومن ورائهما ثلاثة درَّاجين، وبعد ذلك بدقيقة أو اثنتين ظهر ثورندايك مجدَّدًا بمرافَقة رجلَين آخرين، ثم رأينا راكبي الدرَّاجات يقتربون منَّا بوتيرةٍ سريعة.

قال الرجل وهو ينظر إلى الوافدين الجُدد بقلقٍ واضح: «يبدو أنه موكبٌ نظامي.» وبينما كان يتكلَّم، توقَّف أحد راكبي الدرَّاجات، وترجَّل من درَّاجته ليفحص إطارها، بينما اقترب منَّا الدرَّاجان الآخران وتجاوَزانا بسرعة، ثم توقَّفا هما أيضًا وترجَّلا من درَّاجتَيهما، وبعدما وضعاهما في القناة الجافَّة عادا نحونا. وبحلول هذه اللحظة، كنت قد عرفت أن رفيقَي ثورندايك هما المُفتِّش بادجر والمشرف ميلر، وتفاجأت كثيرًا بذلك. وربما عرفهما الرجل الذي كان بجواري أيضًا، أو ربما أقلقه تصرُّف الدرَّاج الثالث الذي

وضع درَّاجته أيضًا وكان يقترب منَّا سيرًا على قدمَيه. على أي حال، قلَّب الرجل بصره بسرعة بين مجموعتَي الرجال الذين كانوا يقتربون منَّا، وبعدما حدَّد المجموعة الأصغر انطلق فجأةً بين الدرَّاجين الاثنين، وركض بعيدًا على طول الممشى كأنه أرنبٌ برِّي.

اندلعت مطارَدةٌ جماعية جامحة على الفور. ركب الدرَّاجون الثلاثة درَّاجاتهم مرةً أخرى، وقادوها بسرعةٍ هائلة وراء الطريد، وتبعهما بادجر وميلر على أقدامهما، ثم توارى الهارب والدرَّاجون وأخيرًا الضابطان عند دوران منعطف الممشى.

سألت زميلي حين صِرنا وحدنا: «كيف علمت أنه الرجل المطلوب؟»

«لم أعرف، وإن كانت لديَّ أسبابٌ قوية للشك. كل ما فعلته أنني أحضرت الشرطة لمراقبة المكان ونصْب كمين؛ فلم تكن حركة الحصار سوى خدعة تجريبية. وربما كانوا سيتردَّدون بشأن إلقاء القبض على ذاك الرجل لو لم يُصبه الذعر ويهرب. لقد كنا محظوظين من جميع النواحي؛ فمن حسن الحظ أن بادجر وميلر كانا في «تشيسوِك» يُجريان بعض التحرِّيات، وتمكَّنت من مهاتَفتهما ليلتقياني عند الجسر.»

وحينئذٍ ظهر الموكب مرةً أخرى مُتقدمًا نحونا بسرعة، وكان ناصحي السابق يسير وسط الموكب مُصفَّد اليدين بإحكام. وبينما كان يُقتاد أمامي حدَّق إليَّ بوحشية، وتفوَّه بعباراتٍ بذيئة عن «واشٍ لَعين».

قال ميلر للشرطيَّين: «يُمكنكم اصطحابه في إحدى سيارتَي الأجرة، ووضع درَّاجاتكم فوقها.» ثم التفَت إلى ثورندايك بينما تحرَّك الموكب ناحية الجسر، وقال له: «أظنُّه الرجل المطلوب أيُّها الطبيب، لكنه لا يحمل بحوزته أيًّا من الأشياء المفقودة.»

قال ثورندايك: «إنه لا يحمل أيًّا منها بالطبع.»

«حسنًا، هل تعرف مكانها؟»

فتح ثورندايك حقيبته، وأخرج العلبة وسلَّمها إلى المُشرف، وقال: «أريد إيصالًا بتسلُّمها.»

ففتح ميلر العلبة، وعند رؤية الجواهر المُتلألئة أطلق كلا المُحقِّقين صيحة ذهول، وسأل المُشرف قائلًا: «من أين حصلت على هذا يا سيدي؟»

«حفرت الأرض أسفل شجرة الصفصاف هذه واستخرجتها من تحتها.»

«ولكن كيف عرفت أنها كانت هناك؟»

أجاب ثورندايك: «لم أعرف، لكني رأيت أن البحث هناك سيكون أفضل على أي حال كما تعلم.» وابتسم في وجه الضابط المشدوه ابتسامةَ فُتور مُثيرة للغيظ.

فحدَّق المُحقِّقان إلى ثورندايك، ثم نظر كلاهما إلى الآخر، ثم نظرا إليَّ، وقال بادجر بقناعةٍ راسخةٍ إن ذلك كان «مُذهِلًا للغاية.»

وأضاف: «أظنُّ أن الدكتور يُكِنُّ داخله عرَّافًا مُتعاونًا.»

قال ميلر: «هل لي يا سيدي أن أعتبر أنك تستطيع إقامة حُجة بيِّنة على هذا الرجل كي نستطيع احتجازه احتياطيًّا ريثما يتعافى السيد مونتيجيو، ويستطيع معرفة هُويته؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «لك ذلك. أخبِرني لاحقًا بموعد توجيه الاتهام إليه ومكانه، وسأحضر وأقدِّم الحجة والدليل.»

وحينئذٍ كتَب ميلر إيصالًا بتسلُّم الجواهر، وهرع الضابطان إلى سيارة الأجرة، تاركين إيَّانا «لصيدنا»، كما قال بادجر.

وحالَما اختفيا من نطاق بصرنا فتَح ثورندايك حقيبته، وخلط مقدار ملء وعاء من الجص مرةً أخرى، وقال: «نريد قالبين آخرين؛ واحدًا للقدم اليُمنى للرجل الذي دفن الجواهر، وواحدًا للقدم اليمنى للمُحتجَز. إنهما مُتطابقتان بوضوح كما ترى من نمط ترتيب مسامير الحذاء، والرقعة الصفيحية الجديدة المُثبَّتة على النعل من الأسفل. سأقدِّم القوالب ضِمن الأدلة أمام هيئة المحكمة، وأُقارنها بفردة الحذاء اليُمنى للمحتجَز.»

وحينها فهمت السبب الذي دفع ثورندايك إلى السير ناحية حي «بوتني» ثم عودته وراء الغريب؛ إذ كان قد ارتاب في الرجل وأراد إلقاء نظرة على آثار قدميه، غير أنني قد ظللت عاجزًا تمامًا عن فهمِ قدرٍ كبير من الأحداث في هذه القضية.

قال ثورندايك وهو يضع القالبين اللذين كان كلٌّ منها يحمل تعريفًا مكتوبًا بالقلم الرصاص في حقيبته القماشية: «أرأيت؟ هذه هي نهاية لغز الماسة الزرقاء.»

قلت له: «معذرة، لكنها ليست كذلك؛ فأنا أريد شرحًا كاملًا. من الواضح أنك اتَّجهت رأسًا من دار التمريض في «برينتفورد» إلى شجرة الصفصاف هذه؛ أي إنك كنت تعرف آنذاك مخبأ القلادة بالضبط، ومَن يعلم؟ فربما كنت تعرف ذلك بالفعل حين غادَرنا سكوتلانديارد.»

ردَّ قائلًا: «الحق أنني كنت أعرف ذلك آنذاك بالفعل، وقد ذهبت إلى «برينتفورد» في الأساس كي أتيقَّن من صحَّة هُوية صاحب الحافظة والحقيبة.»

«لكن ما الذي قادك إلى مسار قَطر الزوارق في «هامرسميث» بهذا اليقين؟»

وحينئذٍ ذكَر التعليق الذي نقلته عنه في مُستهلِّ هذه الرواية.

وأضاف عليه: «وفي هذه القضية، أصبحت إحدى الحقائق، التي يعرفها علماء الطبيعة جيدًا، دليلًا مُهمًّا حاسمًا؛ إذ ربطت حقيبةً وُجدت في مكانٍ ما بمكانٍ آخر بدا غير مُرتبط به، وكان ذلك هو الرابط الذي وصل بين طرفَي سلسلةٍ مكسورة. وقد ذكرتُ هذه الحقيقة للمفتِّش بادجر الذي نبذها بازدراء لافتقاره إلى المعرفة اللازمة لفهمها.»

«أتذكَّر أنك أخبرته باسم تلك القوقعة الصغيرة التي سقطت من وسط حفنة العشب.»

قال ثورندايك: «بالضبط. لقد كانت هذه هي الحقيقة الحاسمة؛ إذ أخبرتنا بالمكان الذي أُخذت منه حفنة العشب.»

قلت له: «لا أستطيع أن أتخيَّل كيفية حدوث ذلك؛ فلا شك أن القواقع موجودة في جميع أنحاء البلاد، أليس كذلك؟»

أجاب قائلًا: «هذا صحيحٌ في العموم، لكن قواقع «كلوسيليا الثنائية الطيات» من الاستثناءات النادرة؛ إذ تُوجَد أربعة أنواع بريطانية من هذه القواقع الصغيرة الغريبة ذات المصراع الواحد (والتي سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى المصراع الزنبركي الصغير الموجود في مدخل القوقعة)، وهي: قواقع «كلوسيليا الصفائحية»، و«كلوسيليا رولفي»، و«كلوسيليا روجوسا»، و«كلوسيليا الثنائية الطيَّات». ويُمكن القول إن الأنواع الثلاثة الأولى تتوزَّع توزيعًا طبيعيًّا، أما توزيع القواقع «الثنائية الطيَّات» فهو غير طبيعي. فهذا النوع يُحتضَر على ما يبدو؛ إذ ينقرض الآن من على هذه الجزيرة. وحين ينقرض نوعٌ من الحيوانات أو النباتات، فإنه لا يندثر من جميع أنحاء موطنه الطبيعي بالتساوي، بل يندثر أولًا في رُقعٍ معيَّنة تتسع تدريجيًّا، تاركةً بعض المناطق المعزولة التي تتبقى فيها بعض الكائنات التي تنجو من هذا النوع. وهذا ما حدث في حالة قواقع «كلوسيليا الثنائية الطيات»؛ إذ اندثرت من هذا البلد عدا منطقتين؛ إحداهما في مقاطعة «ويلتشير»، والأخرى هي ضفة نهر «التايمز» اليُمنى في «هامرسميث». وهذه المنطقة الثانية محدودة للغاية؛ إذا مشيت صاعدًا بضع مئات من الياردات ناحية «بوتني»، فستجد أنك خرجت عن حدودها، وإذا مشيت نازلًا بضع مئات من الياردات ناحية الجسر، فسوف تجد أيضًا أنك خرجت عن حدودها، غير أن هذه المنطقة الصغيرة غنيَّة جدًّا بذلك النوع. وإذا كنت تعرف المكان المناسب الذي تبحث فيه، وهو على لحى أشجار الصفصاف أو عند جذورها، فسوف تتمكَّن في الغالب من العثور على عيِّنةٍ واحدة أو اثنتين منه؛ ومن ثَم فإن وجود تلك الصَّدفة قد ربط حفنة العُشب بشجرة صفصاف معيَّنة، وكانت هذه الشجرة ستوجد

إما في «ويلتشير» أو عند ممشى قطر الزوارق في «هامرسميث»، ولم يكن يوجد شيءٌ آخر يربطها بمقاطعة «ويلتشير»، بينما كان يوجد شيءٌ يربطها بحي «هامرسميث». دعنا نترك الحديث عن الصَّدفة بُرهةً ونفكِّر في التلميحات الأخرى التي أوحت بها الحقيبة والعصا.

كانت الحقيبة، كما رأيتَ بعينَيك، تحمل آثار شخصين مختلفين تمامًا. كان أحدهما رجلًا من الطبقة الوسطى، في منتصف العمر أو مُسنًّا على الأرجح، ونظيفًا شديد الاعتناء بمظهره، ويتسم بالنظام في عاداته. أما الآخر، فقد كان غير نظيف، وقذر المَلبس، ومجرمًا محترفًا حسب ما بدا. وقد بدا أن الحقيبة نفسها مِلكُ الشخص الأول؛ إذ كانت حقيبةً باهظة، وتحمل آثار سنوات من الاستخدام الحريص. وهذه الحقائق، إلى جانب المُلابَسات التي عُثِر عليها فيها، قادَتنا إلى الشك في أنها كانت حقيبةً مسروقة. وعلِمنا بعد ذلك أن ثَمة حقيبةً أخرى قد سُرقت محتوياتها، وعلِمنا أيضًا أن حقيبةً فارغة قد وُجدت على مسار السكة الحديدية بين محطتَي «بارنز» و«تشيسوِك»، وكان من المُرجَّح أن اللص ترجَّل من القطار في تلك المحطة الثانية. وقد افترضت الشرطة أن الحقيبة الفارغة هي حقيبة السيد مونتيجيو، غير أن الاحتمالات — التي كان من بينها على سبيل المثال أن الحقيبة قد أُلقيت من القطار على مسار السكة الحديدية — كانت تشير إلى أنها حقيبة اللص، وأن حقيبة السيد مونتيجيو قد سُرِقت بمحتوياتها.

بعد ذلك، كانت المسألة التي ينبغي علينا حسمها حين غادَرنا «سكوتلانديارد» هي ما إذا كان لتلك الحقيبة التي بدت مسروقة أيُّ صلة بالسرقة التي وقعت على متن القطار أم لا. وحالَما رأينا السيد مونتيجيو، اتَّضح أنه يتطابق تمامًا مع صاحب حافظة مستلزمات العناية بالمظهر، وحين رأينا الحقيبة التي وُجدت على مسار السكة الحديدية — تلك الحقيبة الجِلدية المُقلَّدة الرديئة الصنع — كان من شِبه المؤكَّد أنها ليست حقيبته، في حين أن الجيبَين الجِلديَّين المُخاطين بلا إتقان، واللذين كانا يتلاءمان تمامًا مع أبعاد أدوات اقتحام المنازل، أشارا بقوةٍ إلى أنها حقيبة لص. وإذا كانت كذلك بالفعل، فقد كان معنى هذا أن حقيبة السيد مونتيجيو قد سُرقت وحُشيت بأغراض السارق.

وبهذه الفرضية الأساسية الواعدة، تمكَّنَّا آنذاك من تناول القضية من الطرف الآخر؛ فقد اتَّضح أن الحقيبة التي رأيناها في «سكوتلانديارد» هي حقيبة مونتيجيو، وأنها أُخذت من «تشيسوِك» إلى ممشى قطر القوارب في «هامرسميث»، حيث وُضعت على الأرض بالقرب من شجرة صفصاف على الأرجح، وفقًا للطخات الطينية التي كانت على قعرها

من الأسفل. وكان استخدام حفنة العشب في التغليف يُشير إلى أن شيئًا ما قد أُزيلَ من الحقيبة في ذلك المكان؛ شيئًا كان يربط الأدوات معًا ويمنعها من إصدار صلصلة، واتَّضح أنَّ ثَمة نصف منشفة مفقودًا؛ لذا فقد كان من الواضح أن مَمشى قطر القوارب هو المنطقة التي سنستكشفها تاليًا.

وقد كان فحص هذه المنطقة بالتفصيل سيستغرق وقتًا طويلًا رغم صِغر نطاقها الجغرافي، لكن العصا قد قدَّمت لنا مساعدةً لا تُقدَّر بثمن؛ ذلك أن طرَفها السُّفلي كان مميَّزًا للغاية، وكانت تحمل آثارًا تُشير إلى أنها قد غُرزت على عمق حوالَي ثلاث بوصات في أرضٍ تُشبِه تلك التي ظهرت علاماتها الطينية على الحقيبة؛ ومن ثَم كان علينا أن نبحث في أرض تلك المنطقة عن حفرةٍ عمقُها حوالَي ثلاث بوصات، وتحمل في قاعها بصمةَ مسمارٍ تزييني شِبه بالٍ، وكان من المرجَّح أن هذه الحفرة ستكون قريبة من شجرة صفصاف.

وقد اتَّضح أن البحث أسهل حتى ممَّا كنت أرجوه؛ فحالَما وصلنا إلى ممشى قطر القوارب، وجدت أثر مسار العصا، وليس مسارًا واحدًا فحسب، بل مسارٌ مزدوج، وهو ما أظهر أن صديقنا قد عاد إلى الجسر. وكل ما كان علينا فعله هو أن أتعقَّب المسار حتى نهايته، وكان من المؤكَّد أننا سنجد الحفرة هناك، وهو ما حدث بالفعل.»

سألته: «ولماذا دفن المسروقات، في رأيك؟»

«إجراءٌ احترازي على الأرجح؛ تحسُّبًا لما قد يحدث إن كان أحدٌ قد رآه وأدلى بأوصافه، وكانت صُحُف صباح اليوم ستُخبره بأن ذلك لم يحدث، ومن المُرجَّح أيضًا أنه كان يعتزم إبرام اتفاق مع أحد تجار المسروقات ولم يُرِد أن يحمل الغنيمة بحوزته.»

وبهذا لا يتبقَّى سوى القليل لأسرده؛ فحين عُرضت وقائع القضية في جلسة استماع في صباح اليوم التالي، أدَّى ما قدَّمه ثورندايك من وصف للأحداث بأسلوبٍ دقيق مُفصَّل على نحوٍ استثنائي، وكذلك تقديم الممتلَكات المسروقة، إلى أن يفقد المعتقَل أعصابه بشدة، حتى إنه قد اعترف بذنبه فورًا.

أما السيد مونتيجيو، فقد تعافى تمامًا في غضون بضعة أيام، وما زال رفُّ مدفأة مكتبنا يحمل حتى يومنا هذا زوجًا فاخرًا أنيقًا من الشمعدانات الفضية التي يعود تاريخها إلى الحقبة الجورجية؛ شاهدًا على امتنانه وتقديره لتعامُل ثورندايك البارع مع القضية.

الفصل السادس

السبائك المسروقة

علَّق ثورندايك قائلًا: «في ممارسة اختصاص المُحاماة المتخصِّصة في الطب الشرعي، على المرء دائمًا أن يتوخَّى الحذر من تأثيرات التلميح، سواءٌ أكان مقصودًا أم غير مقصود؛ فحين يعرض راوي المعلومات حقائقَ قضيةٍ معيَّنة، فإنه دائمًا تقريبًا ما يسردها وفقَ أساسٍ استدلالي، سواء أقصد ذلك أم لم يقصده؛ إذ يعرض الراوي بعض الحقائق التي يراها حقائق أساسية، بتشديد وتفصيل، أما البعض الآخر الذي يراه ثانويًّا أو تافهًا فيكتُم بعض تفاصيله، غير أن هذا التقييم لقيمة المعلومات في الأدلة يجب ألا يُقبَل أبدًا، بل يجب دراسة القضية كلها والتفكُّر في كل حقيقة على حدة. وعادةً ما يتَّضح حينها أن الحقيقة الرئيسية تكون هي تلك التي تجاهلها الراوي معتبرًا إيَّاها تافهة.»

قيل هذا التعليق بخصوص إحدى القضايا التي كان السيد هيلثورب، والذي يعمل في شركة «سفينكس أشورنس» للتأمين، قد سرد علينا حقائقها للتَّو. لم أدرك مَغزى تلك المقولة تمامًا آنذاك، لكنني حين استرجعتها عندما انتهت القضية أدركت أنني وقعت في الخطأ نفسه الذي كان ينبغي لتحذير ثورندايك أن يعصمني منه.

قال السيد هيلثورب: «آمل ألا أكون قد أتيت في وقتٍ غير مُناسب. صحيحٌ أنك تتعامل برحابة صدر بالغة مع العمل في أوقات العمل غير الرسمية ...»

فقاطَعه ثورندايك قائلًا: «ممارسة مهنتي هي مصدر استجمامي، وأنا أستقبلك الآن معتبرًا أنك قد أتيت للترفيه عنِّي؛ فهلَّا قرَّبت كرسيَّك إلى نار المدفأة وأشعلت سيجارًا وقصصت علينا قصتك.»

ضحك السيد هيلثورب، لكنه أخذ باقتراح ثورندايك، وبعدما أسند مقدمتَي حذائه على الحاجز القصير المحيط بالمدفأة، أخذ سيجارًا من العلبة، وبدأ يحكي موضوع زيارته.

استهلَّ كلامه قائلًا: «لا أعرف تمامًا ما الذي تستطيع فعله من أجلنا؛ فأنا أعرف أن تعقُّب الممتلَكات المفقودة ليس من اختصاصك، لكنني رأيت أن آتيَ وأُخبرك بمشكلتنا. الحقيقة أن شركتنا تبدو على وشك خسارة حوالَي أربعة آلاف جنيه؛ مما سيُثير استياء المُديرين، وها أنا سأقصُّ عليك ما حدث:

منذ حوالَي شهرين، تقدَّم لنا مكتب شركة «أكروبونج جولد فيلدس» لمناجم الذهب في لندن بطلب للتأمين على طردٍ من سبائكِ ذهبٍ كان من المُزمَع إرسالها إلى ورشة «مينتون وبورويل»، صائغَي الحُلي الشهيرَين، وكان من المقرَّر أن تُشحَن السبائك في مدينة «أكرا»، وترسو عند ميناء «بيلهافن» الذي يُعَد الأقرب إلى ورشة «مينتون وبورويل». حسنًا، اتَّفقنا على التأمين على الشُّحنة ضد مخاطر إرسالها إلى وجهتها — إذ كنا قد أجرينا أعمالًا مع أفراد شركة «أكروبونج» من قبل — وسُوِّي الأمر. شُحنت السبائك على متن السفينة في شاطئ «لابادي» بمدينة «أكرا»، ورست عند «بيلهافن» في الوقت المحدَّد، حيث سُلِّمت إلى وكلاء «مينتون». حتى الآن تبدو الأمور على أحسن ما يُرام، لكن الكارثة قد وقعت بعد ذلك؛ فقد وُضِع صندوق السبائك على متن القطار في «بيلهافن» ليُرسَل إلى مدينة «أنشستر»، حيث يوجد مصنع «مينتون»، غير أن القطار لا يتَّجه إلى «أنشستر» مباشرةً، بل تقع تحويلة السكة الحديدية في «جاربريدج»، وهي محطةٌ صغيرة بالريف تقع بالقرب من نهر «كراوتش»، وهناك أُنزلَ الصندوق من على متن القطار، وأُقفِل عليه في مكتب رئيس المحطة في انتظار القطار المتجِه إلى «أنشستر». ويبدو أن رئيس المحطة قد استُدعي واضطرَّ إلى أن يتأخَّر وقتًا أطول ممَّا كان يتوقَّع، وحين أُنذرَ بوصول القطار عاد مُسرِعًا إلى مكتبه في حالةٍ من التوتُّر الشديد. ومع ذلك، كان الصندوق في مكانه بالضبط، وأشرف الرئيس بنفسه على نقله إلى عربة حارسه، ووضعه في عُهدة الحارس. سار كلُّ شيءٍ بعد ذلك على ما يُرام حتى آخر الرحلة، وكان أحد مندوبي الشركة ينتظر في محطة أنشستر بشاحنةٍ مُغلَقة؛ فوُضِع الصندوق فيها ونُقِل مباشرةً إلى المصنع، حيث فُتِح في المكتب الخاص، واتَّضح أنه مليءٌ بمواسير رصاصية.»

قال ثورندايك: «أظنُّ أنه لم يكن الصندوق الأصلي، أليس كذلك؟»

أجاب هيلثورب قائلًا: «بلى، لكنه كان نسخةً مُقلَّدة مطابقة جدًّا للصندوق الأصلي؛ فقد كان المُلصَق والعلامات الموجودة عليه مطابقة تمامًا، لكن أختام القفل كانت مجرَّدَ شمعٍ عادي. من الجليِّ أن التبديل قد حدث في مكتب رئيس المحطة، حيث تبيَّن أنه بالرغم

من إغلاق الباب بإحكام، فقد كان بها نافذةٌ غير مُوصَدة تُطِل على الحديقة، والتي عُثِر فيها على آثار أقدام واضحة بالجانب الخارجي من حوض الزهور.»

سأله ثورندايك: «في أيِّ وقتٍ حدث ذلك؟»

«وصل قطار أنشستر في الساعة السابعة والربع، وقد كانت السماء مُعتِمة جدًّا في ذلك الوقت بالطبع.»

«وفي أيِّ يومٍ حدث ذلك؟»

«أول أمس، وسمعنا به صباح الأمس.»

«هل تطعنون في الادِّعاء؟»

«لا نريد ذلك. لقد كان بوسعنا بالطبع تقديم ادعاء بالإهمال، لكن أعتقد أننا في هذه الحالة سنرفع الدعوى على شركة السكك الحديدية، غير أن الأفضل لنا بالطبع هو أن نستعيد المفقودات؛ إذ لا يمكن أن تكون بعيدةً للغاية عن متناوَلنا بالرغم من كل شيء.»

قال ثورندايك: «لا أظنُّ ذلك؛ فليست تلك السرقة بالمرتجلة. لقد جُهِّز الصندوق المُزيَّف سلفًا، ومن الواضح أن مَن جهَّزه كان يعرف شكل الصندوق الحقيقي، وكيفية إرساله من «بيلهافن»، ووقت الإرسال أيضًا. ويجب أن نفترض أن السارق قد جهَّز للتصرُّف في الصندوق المسروق بدرجةٍ مُماثلة من الإتقان. كم تبعُد «جاربريدج» عن النهر؟»

«أقل من نصف ميل عبر المستنقَعات. لقد سأل المُحقِّق المفتش — المدعو بادجر، وأظنُّك تعرفه — السؤال نفسه.»

قال ثورندايك: «بالطبع؛ فنقلُ جسمٍ ثقيلٍ مِثل هذا الصندوق بالماء أسهل كثيرًا وأقل لَفتًا للانتباه من نقله بَرًّا. ولتنظرْ إلى كمِّ التسهيلات التي يُقدِّمها نهرٌ صالح للإبحار فيه في تلك الحالة؛ إذ يُمكِن إخفاء الصندوق في مركبٍ صغير، أو حتى في قارب، أو يُمكن إخراج السبائك من الصندوق وإخفاؤها وسط صابورة القارب، أو إلقاؤها من على متن القارب حتى في مكانٍ مُحدَّد، إذا اقتضت الحاجة، وتركها إلى أن تنتهي الضجَّة العامة المُثارَة بشأن السرقة.»

قال هيلثورب بحُزن: «كلامك هذا يبعث على الإحباط. أرى أنك شِبه يائس من إمكانية استعادة تلك السبائك.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «لا داعي لليأس، لكني أريدك أن تتفهَّم الصعوبات. لقد أفلت اللصوص بغنيمتهم، وهذه الغنيمة مادةٌ غير فانية، وتحتفظ بقيمتها حتى لو قُسِّمت

إلى قِطع لا يُمكن التعرف عليها، وإذا أُذيبت في سبائك صغيرة فسيكون من المستحيل اكتشافها.»

قال هيلثورب: «حسنًا، الشرطة تتولَّى التحقيق في المسألة، وقد صار المفتِّش بادجر، من إدارة التحقيقات الجنائية، مسئولًا عن القضية، لكن مُديرينا سيكونون أسعد إذا حقَّقت فيها بنفسك، وسنُقدِّم لك كل ما نقدر عليه من أشكال المساعدة بالطبع، فما رأيك؟»

قال ثورندايك: «أنا مستعدٌّ للتحقيق في القضية، وإن كنت لا أحمل أملًا كبيرًا. هل يُمكنك أن تُعطيني مُذكِّرةً لأذهب بها إلى شركة الشحن، وأخرى لأذهب بها إلى المُرسَل إليهم «مينتون وبورويل»؟»

«بالطبع. سأكتبهما حالًا. لديَّ بعضٌ من ورق رسائل شركتنا في حقيبتي الرسمية، لكنني أرجوك أن تعذرني في القول إنك تبدأ تحرِّياتك من مكانٍ لا يُمكن أن تجني منه أيَّ معلومات مفيدة؛ فالصندوق قد سُرِق بعدما غادَر السفينة وقبل وصوله إلى المُرسَل إليهم، وإن كان وكيلهم قد تسلَّمه من السفينة.»

فقال ثورندايك: «الحقيقة الأهم أن هذه السرقة قد دُبِّرت سلفًا، وأن اللصوص كانوا يعرفون معلوماتٍ سِرية؛ فلا بد أن هذه المعلومات قد سُرِّبت إما من السفينة أو المصنع؛ ولهذا فمع محاولتنا لاقتفاء أثر الصندوق نفسه، ينبغي علينا أن نبحث عن بداية الخيط عند طرَفَي مسار الصندوق: السفينة والمصنع؛ فمن المؤكَّد أنه يبدأ عند أحدهما.»

قال هيلثورب: «نعم، هذا صحيح. حسنًا، سأكتب هاتين المذكرتين، وينبغي أن أرحل بعد ذلك، وسنأمل في إحراز النجاح المنشود.»

كتَب المذكرتين يطلب فيهما تسهيلاتٍ من الأطراف المعنية، ثم غادَر بمزاجٍ أهدأ بعض الشيء.

علَّق ثورندايك بينما كان صوت وَقْع أقدام هيلثورب يتلاشى على الدَّرَج الخارجي: «قضيةٌ صغيرة مُثيرة جدًّا للاهتمام، لكنها بعيدةٌ بعض الشيء عن نطاق اختصاصنا. الحق أنها تقع ضِمن اختصاص الشرطة تمامًا؛ فهي قضيةٌ تقتضي تحرِّياتٍ صبورةً بارعة، وهذا ما سيتعيَّن علينا فعله: إجراء تحرِّيات دقيقة في مسرح الجريمة.»

سألته: «ومن أين تقترح أن نبدأ؟»

أجاب قائلًا: «من عند البداية؛ أي من بيلهافن. أقترح أن نذهب إلى هناك صباح الغد، ونُمسِك الخيط من عند هذا الطرف.»

سألته: «أيُّ خيط؟ نعرف أن الطرد قد انطلق من هناك، فما الذي تتوقَّع أن تعرفه غير ذلك؟»

فأجاب: «تُوجَد عدة احتمالات مُثيرة للفضول في هذه القضية، كما لاحظتَ بالتأكيد، والمسألة الآن هي ما إذا كان أيٌّ من هذه الاحتمالات مُرجَّح، أم لا، وهذا هو ما أريد حسمه قبل أن نبدأ تحقيقًا مُفصَّلًا.»

قلت له: «كنت سأقترح أن نبدأ التحقيق من مكان السرقة، لكنني أظن أنك لاحظت بعض الاحتمالات التي لم أنتبه إليها.»

وهو ما تبيَّنت صِحته في النهاية.

قال ثورندايك ونحن نترجَّل من القطار في بيلهافن في صباح اليوم التالي: «أظنُّ أنه من الأفضل أن نذهب إلى قسم الجمارك أولًا ونتيقَّن، إن استطعنا، من أن السبائك كانت في الصندوق حقًّا حين سُلِّمت إلى وُكلاء المُرسَل إليهم؛ فلا ينبغي أن نُسلِّم بأن الاستبدال قد حدث في جاربريدج، وإن كانت تلك هي النظرية الأرجح حتى الآن.» وعلى هذا الأساس توجَّهنا إلى الميناء، حيث قادنا بحَّارٌ خَدوم إلى وجهتنا.

وفي قسم الجمارك استقبلَنا ضابطٌ لطيف تطرَّق إلى صُلب الموضوع بتعاطفٍ كامل وتفهُّمٍ سريع للوضع حين شرح له ثورندايك صلته بحادثة السرقة.

قال الضابط: «أتفهَّم الوضع. تريد دليلًا واضحًا على أن السبائك كانت في الصندوق حين نُقِل من هنا. حسنًا، أظنُّ أننا نستطيع تلبية هذه الرغبة لك. صحيحٌ أن السبائك ليست سلعةً خاضعة للرسوم الجمركية، لكننا مُلزَمون بفحصها ورفع تقرير عنها. وإذا كانت مُرسَلة إلى بنك إنجلترا المركزي أو دار صك العملة، يمرُّ الصندوق من الجمارك دون فض الأختام الشمعية. ولمَّا كانت تلك شُحنةً خاصة، فقد فُضَّت الأختام وفُحِصت محتويات الصندوق. يا جيفسون، فلتُرِ هذين السيدين التقرير الخاص بصندوق سبائك الذهب الذي وصل من «لابادي».»

فسأله ثورندايك: «هل يُمكننا إجراء حوار قصير مع الضابط الذي فتح الصندوق؟ فأنت تعرف التفضيل القانوني لسماع أقوال المرء منه شخصيًّا.»

«بالطبع. يا جيفسون، حين ينتهي هذان السيدان من الاطلاع على التقرير، ابحث عن الضابط الذي وقَّع عليه، ودَعهما يتحدَّثان معه.»

قادنا السيد جيفسون إلى مكتب مُجاور، حيث أخرج التقرير وأعطاه إلى ثورندايك. وقد كانت التفاصيل الواردة فيه هي تلك التي كنا سنجدها في بيان حمولة السفينة

الجمركي وسند الشحن؛ فقد ورد فيه أن قياسات الصندوق من الخارج هي ثلاث عشرة بوصة للطول، واثنتا عشرة بوصة للعرض، وتسع بوصات للعمق، وأن وزنه الإجمالي كان يبلغ مائة وسبعة عشر رطلًا وثلاث أوقيات، وأنه كان يحتوي على أربع سبائك يبلغ وزنها الكُلِّي مائة وثلاثة عشر رطلًا وأوقيتين.

قال ثورندايك وهو يُعيد التقرير إلى الرجل: «شكرًا لك. والآن، أيُمكننا رؤية الضابط — المدعو بالسيد بيرن، على ما أظن — لمعرفة بعض التفاصيل فحسب؟»

أجاب السيد جيفسون: «فلتأتيا معي وسأجده لكما. أظنُّ أنه على رصيف الميناء.»

تَبِعنا مُرشدنا إلى رصيف الميناء وسط رُكامٍ مُبعثر من العُلب الكبيرة وصناديق الشحن والبراميل، إلى أن وجدنا الضابط أخيرًا وسط مجموعة من براميل «نبيذ ماديرا»، وكان مُنهمكًا في مشكلات «المحتوى ونقص السائل عن الحدِّ المُطابق للمواصفات» وألغازٍ جمركية أخرى، وحين عرَّفنا السيد جيفسون إليه ثم انسحب بحصافةٍ ليتركنا معه على انفراد، واجَهَنا السيد بيرن بوجهٍ بُنِّي محمرٍّ في لون خشب الماهوجني، وعينَين زرقاوين مشاكستين.

قال له ثورندايك: «بخصوص شحنة السبائك هذه، فهمتُ أنك وزنت السبائك وحدها دون الصندوق، أليس كذلك؟»

فأجاب السيد بيرن: «بلى.»

«هل وزنت كلَّ سبيكة على حدة؟»

أجاب باقتضاب: «كلا، لم أفعل.»

«كيف كان مظهرها؛ أعني شكلها وحجمها؟ أكانت من النوع المألوف؟»

قال السيد بيرن: «ليست لديَّ خبرةٌ كبيرة في السبائك، لكنِّي أراها مجرد سبائك عادية من الذهب يبلغ طولها حوالَي تسع بوصات، ويبلغ عرضها أربع بوصات، ويبلغ سُمكها بوصتين تقريبًا.»

«هل كان الصندوق يحوي قَدرًا كبيرًا من مواد التعبئة والتغليف؟»

«بل قدرًا ضئيلًا جدًّا؛ إذ كانت السبائك ملفوفةً بقطعةٍ سميكة من قماش القنب ومحشورةً في الصندوق، والذي لم يكن يتَّسع إلا لنصف بوصة من الغلاف القماشي في جميع الجهات. وكان الصندوق نفسه ذا سُمكٍ يبلغ بوصة ونصفًا ومقوًّى بعصاباتٍ حديدية.»

«هل ختمت الصندوق بالشمع بعدما أوصدته؟»

«نعم. كان مُحكَمًا تمامًا حين أُعيدَ إلى وكيل ربَّان السفينة، وقد رأيته وهو يُسلِّمه إلى وكيل المُرسَل إليهم؛ أي إن كل شيء كان على ما يُرام حين غادَر الصندوق رصيف الميناء.»

قال ثورندايك: «هذا هو كل ما أردتُ التيقُّن منه.» وبعدما وضع دفتر ملاحظاته في جيبه وشكر للضابط، ابتعد وسط فوضى البضائع.

قال لي: «ها نحن قد انتهَينا من الجمارك، وأنا سعيدٌ بمجيئنا إلى هنا أولًا؛ فقد جمعنا بعض المعلومات المُفيدة، كما لاحظتَ بالتأكيد.»

فأجبته: «لقد تيقَّنَّا من أن الصندوق كان سليمًا حين سُلِّم إلى وُكلاء المُرسَل إليهم؛ وبذلك ستبدأ تحقيقاتنا في «جاربريدج» على أساسٍ متين، وأظنُّ أن هذا كل ما كنتَ تريد معرفته.»

ردَّ قائلًا: «ليس كلَّه تمامًا، بل يتبقَّى أن أعرف تفصيلةً صغيرة أو اثنتين. سوف نُجري زيارةً موجَزة إلى وكلاء شركة الشحن، ونُريهم المذكرة التي كتبها لنا هيلثورب؛ فلنجمع كلَّ ما نستطيع جمعه من المعلومات قبل أن نبدأ من مسرح السرقة.»

قلت له: «حسنًا، لا أرى مزيدًا ممَّا يُمكِن معرفته هنا، لكن من الواضح أنك ترى شيئًا. يبدو أن ذلك هو المكتب، بعد هذه السقائف.»

راح مدير مكتب وكلاء شركة الشحن يتفحَّصنا من رأسَينا إلى أقدامنا، بينما كان يجلس إلى مكتبه المليء بالأشياء المبعثَرة، ويُمسك برسالة هيلثورب في يده.

تحدَّث بفظاظة فقال: «أتيتما بشأن شحنة السبائك التي سُرِقت. حسنًا، إنها لم تُسرَق هنا. أليس من الأفضل أن تتحرَّيا عنها في «جاربريدج»، حيث سُرِقت؟»

فأجاب ثورندايك قائلًا: «بالتأكيد، لكني أُجري بعض التحرِّيات الأوَّلية، وأريد أن أسألك أولًا عن سند الشحن، مَن يحوزه؛ أقصد السند الأصلي؟»

«إنه بحوزة الربَّان حاليًّا، لكن لديَّ نسخة منه.»

فسأله ثورندايك: «هل لي أن أراها؟»

رفع المدير حاجبَيه تعبيرًا عن اعتراضه، لكنه أخرج المستند من أحد الملفات وسلَّمه إلى ثورندايك، ثم ظلَّ يُشاهده بفضول وهو ينسخ تفاصيل الطرد في دفتر ملاحظاته.

قال ثورندايك وهو يُعيد المستند: «أظنُّ أن لديك نسخةً من بيان شحنة السفينة، أليس كذلك؟»

أجاب المدير قائلًا: «بلى، لكن المعلومات المدوَّنة في البيان هي مجرَّد نسخة من تلك المذكورة في سند الشحن.»

«إنني أرغب في الاطلاع على البيان نفسه، إن كان ذلك لا يُزعجك كثيرًا.»

فاحتجَّ الآخر بنفاد صبر قائلًا: «لكن البيان لا يتضمَّن أيَّ معلومات بخصوص شحنة السبائك هذه سوى البند الوحيد الذي نُسِخ، كما أخبرتك، من سند الشحن.»

فقال ثورندايك: «أفهم هذا، لكني أرغب في إلقاء نظرة عليه على أي حال.»

وثب صديقنا من كرسيه، واتَّجه إلى غرفةِ مكتبٍ داخلية، وسرعان ما عاد وهو يحمل مستندًا كبيرًا من عدة أوراق صَفَعه بقوة على منضدةٍ جانبية.

وقال: «تفضَّلْ يا سيدي، هذا هو البيان، وهذا هو البند المتعلق بشحنة السبائك التي تتحرَّى عنها. أما بقية بنود المستند فهي تتعلَّق ببقية حمولة السفينة، والتي لا أعتقد أنك تهتمُّ بها.»

غير أنه كان مُخطئًا بشأن ذلك؛ فبعد أن تيقَّن ثورندايك من صحة البند المتعلق بشحنة السبائك، قلَّب الأوراق وبدأ يتفحَّص القائمة الطويلة من البداية تفحُّصًا سريعًا ومنهجيًّا في الوقت ذاته، بينما وقف المدير يُشاهد ذلك التصرُّف بنفادِ صبرٍ مصحوب بالاهتياج.

وتحدَّث قائلًا: «إذا كنتَ ستقرؤها كلها يا سيدي، فسأطلب منك أن تأذن لي بأن أتركك وأُواصل عملي.» ثم أضاف بابتسامةٍ تُبدي استياءه: «الفنُّ خالد، لكن الحياة قصيرة.»

بالرغم من ذلك، فقد ظلَّ يحوم حوله بعدم ارتياح، وحين بدأ ثورندايك ينسخ بعض بيانات المُستند في دفتر ملاحظاته، مدَّ المدير عنقه وقرأها بلا أدنى تستُّر، ودون أن يمتنع أيضًا عن الإدلاء بتعليقاته.

صاح قائلًا: «عجبًا يا سيدي! أيُّ علاقة يمكن أن توجد بين السرقة وذلك الطرد من أنياب الأفيال الصغيرة؟ وهل تُدرك أنها ما تزال موجودة في السفينة؟»

فأجاب ثورندايك وهو يسحب إصبعه نحو الأسفل في عمود «الوصف» في جدول البيانات، ويُلقي نظرةً سريعة على البيانات الواردة فيه، قائلًا: «لقد استنتجت أنها ما تزال في السفينة؛ لأنها مُرسَلة إلى لندن.» ظلَّ المُدير يُشاهد ذلك الإصبع، وبينما كان الإصبع يتوقف على التوالي عند كلٍّ من محتويات ذلك الطرد؛ كيس من صمغ الكوبال، وصندوق من عيِّنات الكوارتز، وصندوق من مسامير لولبية من النحاس الأصفر طولها ست بوصات، وكيس من بذور السمسم الأفريقي، وعبوة من جوز شجرة الكولا؛ راح يتنهَّد بشدة ويُتمتِم كببَّغاء غاضب، غير أن ثورندايك لم يتأثَّر بذلك إطلاقًا، بل نسَخ كل

البيانات بتروٍّ هادئ. وبتمعنٍ شديدٍ راح يدوِّن علامات الطرود وأوصافها ومحتوياتها، وأوزانها الإجمالية والصافية، وأبعادها، وأسماء المُرسِلين والمُرسَل إليهم، وموانئ الشحن والتفريغ، والتفاصيل بأكملها في واقع الأمر. كان ذلك إجراءً مُذهِلًا بالطبع، ولم أفهم من مغزاه أكثر مما فهمه صاحِبنا الذي نفد صبره.

وأخيرًا، أقفل ثورندايك دفتر ملاحظاته ووضعه في جيبه، وتنهَّد المدير تنهيدةً قد تعمَّد أن نراها، ثم سأله: «ألا تريد شيئًا آخر يا سيدي؟ ألا ترغب في فحص السفينة مثلًا؟»

وأعتقد أنه قد ندم في اللحظة التالية على اقتراحه الساخر؛ ذلك أن ثورندايك قد سأله باهتمامٍ واضح: «ألا تزال السفينة هنا؟»

فاعترف المدير على مضَض قائلًا: «نعم، إنها تُنهي التفريغ هنا في منتصف ظُهر اليوم، ومن المُرجَّح أن ترسو عند أرصفة ميناء «لندن دوكس» في صباح الغد.»

فقال ثورندايك: «لا أظنُّ أنني بحاجة إلى الصعود على متنها، ولكن هلَّا منحتني بطاقةً تصريحيةً تحسُّبًا لأن أحتاج إلى ذلك؟»

أعطاه المدير البطاقة على مضضٍ بعض الشيء، وحين شكر ثورندايك مُضيفنا على مساعدته، غادَرنا واتَّجهنا نحو المحطة.

قلت لثورندايك: «حسنًا، لقد جمَعت قدرًا هائلًا من المعلومات الغريبة، لكني لا أستطيع رؤية أي علاقة بينها وبين تحقيقنا على الإطلاق.»

رمقني ثورندايك بنظرة تأنيب عميق، وصاح مُتعجبًا: «يا جِرفيس! إنك تُذهلني، حقًّا. عجبًا، إنها واضحةٌ أمام عينَيك كضوء الشمس يا زميلي العزيز!»

فقلت بقليلٍ من الانفعال: «حين تقول «إنها» فأنت تقصد ...؟»

أقصد الحقيقة الرئيسية التي قد نستنتج منها الكيفية التي نُفِّذت بها هذه السرقة. ها أنت ستتفحَّص الملاحظات التي دوَّنتها في دفتري في القطار وتُرتِّب البيانات التي جمعناها، وأعتقد أنك ستجدها آنذاك مُنيرةً للغاية.»

قلت له: «أشكُّ في هذا، لكن ألا نُهدِر الآن الكثير من الوقت؟ إن هيلثورب يرغب في أن يستعيد الذهب، لا أن يعرف الكيفية التي دبَّر اللصوص لسرقته.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «هذا رأيٌ صائب جدًّا؛ فها هو صديقي العلَّامة يُبدي حسَّه العقلاني السليم كالعادة. ومع ذلك، فأنا أرى أن تكوين فهم واضح للآلية التي نُفِّذت بها هذه السرقة سيُفيدنا للغاية، وإن كنت أتفق معك في أننا أمضينا وقتًا كافيًا في جمع

بياناتنا الأولية. والمهمُّ الآن هو أن نجد أثرًا من محطة «جاربريدج» لنتعقَّبه، لكنني أرى إشارة إعلان وصول قطارنا. من الأفضل أن نُسرِع.»

وبينما كان القطار يدخل المحطة، بحثنا عن مقصورةٍ فارغة للمُدخِّنين، وبعدما أسعفَنا حظُّنا الجيد في إيجاد واحدة، قعدنا فيها في رُكنين متقابلين وأشعلنا غليونَينا، ثم أعطاني ثورندايك دفتر ملاحظاته. رحت أدرس ما فيه من بياناتٍ تبدو غير مترابطة وأنا عاقد الحاجبين، بينما جلس ثورندايك يُراقبني مُتأملًا وقد ارتسمَ على شفتَيه شبح ابتسامة طفيف للغاية. قرأتُ هذه الملاحظات مرارًا وتكرارًا، بينما راحت آمالي في استخلاص المغزى «الواضح أمام عينيَّ كضوء الشمس» تتضاءل في كل مرة. لشدَّ ما حاولتُ عبثًا أن أربط صمغ الكوبال أو أنياب الأفيال الصغيرة أو بذور السمسم الأفريقي بأساليب اللصوص المجهولين! غير أن البيانات الواردة في الدفتر أصرَّت على عنادها في أن تظلَّ غير مُترابطة على الإطلاق وغير متصلة بالقضية إلى حدٍّ مُحبِط. وأخيرًا، أغلقت الدفتر بحِدَّة وأعدته إلى صاحبه.»

قلت له: «لا فائدة يا ثورندايك. لا أستطيع رؤية أي بصيص من النور.»

فقال: «حسنًا، هذا ليس مهمًّا جدًّا؛ فالجزء العملي من مهمتنا ما يزال أمامنا، وربما يتَّضح أنه جزءٌ صعب جدًّا، غير أننا يجب أن نستعيد تلك السبائك إن كان ذلك ممكنًا في حدود القدرات البشرية. ها نحن قد وصلنا إلى المكان الذي سننطلق منه. هذه محطة «جاربريدج»، وأنا أرى أحد معارفنا القُدامى على الرصيف.»

نظرت إلى الخارج والقطار يتباطأ، وكما توقَّعت، رأيت المفتش بادجر من إدارة التحقيقات الجنائية بنفسه.

قلت لثورندايك: «كان بوسعنا أن نُبلي بلاءً حسنًا للغاية من دون بادجر.»

اتفق معي قائلًا: «نعم، لكني أظنُّ أننا سنضطرُّ إلى إشراكه معنا؛ فنحن في نطاق سلطته بالرغم من كل شيء، ونؤدِّي المهمة نفسها.» وأضاف بينما كان الضابط يُسارع إلينا بمودَّةٍ حارَّة غير مُعتادة بعدما لاحَظ ترجُّلنا من القطار: «كيف حالك أيها المفتش؟»

فقال المفتش: «توقَّعت أن أراك هنا يا سيدي؛ إذ عرفنا أن السيد هيلثورب قد استشارك، غير أن هذا ليس قطار لندن.»

قال ثورندايك: «لا، لقد ذهبنا إلى «بيلهافن» لنتيقَّن فقط من أن السبائك كانت موجودة في الصندوق حين بدأ رحلته.»

فقال بادجر: «كان بإمكاني إخبارك بذلك قبل يومين؛ إذ اتَّصلنا بأفراد الجمارك فورَ عِلمنا بالواقعة. كانت الرحلة البحرية كلها عادية جدًّا، لكنَّ بقية الرحلة لم تكن كذلك.»

«ألا توجد أي معلومة عن الكيفية التي أُخِذ بها الصندوق؟»

«آه، بلى. هذا واضح جدًّا. أُخرجَ الصندوق الأصلي بحبالٍ رافعةٍ عبر نافذة مكتب رئيس المحطة، وأُدخلَ الصندوق المزيَّف بالطريقة نفسها. وفي الليلة نفسها شُوهِد رجلان يحملان صندوقًا ثقيلًا مُشابهًا في الحجم لصندوق السبائك ويتجهان به نحو المستنقعات، غير أن الدليل ينتهي هنا؛ إذ يبدو أن الصندوق قد تبخَّر فجأةً في الهواء. إن رجالنا يبحثون عنه الآن بالطبع في اتجاهاتٍ محتملة مختلفة، لكني بقيتُ هنا مع شرطيين يرتديان ثيابًا مدنية؛ فأنا على يقينٍ من أنه ما زال في مكانٍ ما بالقرب من هنا، وأعتزم البقاء هنا على أمل أن أضبط شخصًا ما يُحاول نقله.»

وبينما كان المفتِّش يتكلم كنا نسير رُويدًا من المحطة نحو القرية التي كانت تقع على الجانب المُقابل من النهر. وعلى الجسر، توقَّف ثورندايك فجأةً ونظر إلى الأسفل نحو النهر وعلى الأرض الريفية الفسيحة المليئة بالمستنقَعات.

علَّق قائلًا: «هذا مكانٌ مثالي لسرقة شُحنة سبائك؛ فهذا النهر يشهد مدًّا وجَزرًا، ويقع بالقرب من البحر وشبكةٍ من الجداول التي يُمكن للمرء أن يُخفي في أيٍّ منها قاربًا، أو يُخبِّئ الغنيمة تحت الماء أسفل علامات المد. هل سمعتَ بأيِّ مركبٍ غريب قد رسا هنا؟»

«نعم. لقد رسا زورقُ صيدٍ صغير مُتهالك بلا عارضة صارٍ من بلدة «لي»، لكن طاقمه مكوَّن من صعلوكين ذوي ثيابٍ رثَّة ليسا من أهل «لي». وقد فسدت زيارتهما إلى هنا؛ إذ غرز زورقهما على الطين حين كانا يسيران به في أثناء المد الأعلى. ها هو الزورق عالقٌ على هذا اللسان الطيني، وسيظل هنا حتى المد الأعلى المُقبِل، غير أنني قد تفحَّصته بعناية، ومستعدٌّ للقَسم أن المسروقات ليست على متنه؛ إذ أخرجتُ الصابورة كلها، وأفرغت حجيرة التخزين الخلفية وخِزانة سلسلة المرساة.»

«وماذا عن الصندل؟»

«إنه صندلٌ تِجاري عادي هنا. طاقمه مكوَّن من القبطان وابنه، وهما رجلان محترمان جدًّا ومن أهل هذه المنطقة. ها هما يتحرَّكان بذلك القارب. كنت أحسب أنهما لن يُبحرا في هذا المد، لكن يبدو أنهما يتجهان إلى زورق الصيد.»

وبينما كان المفتش يتكلم أخرج منظارًا وراقَب من خلاله حركة قارب الصندل، وتوقَّف صيَّادان مُسِنَّان، كانا يعبُران الجسر، ليُشاهدا ما يحدث. سار قارب الصندل

بجوار الزورق العالق، ونادى أحد مُجدِّفيه مُلقيًا التحية، فخرج الرجلان من مقصورة الزورق ونزلا إلى القارب الذي انطلق فورًا واتجه إلى الصندل.

فعلَّق أحد الصيَّادين وهو يُوجِّه تليسكوبًا صغيرًا نحو الصندل بينما كان القارب يسير بجواره ببطء وصعد الرجال الأربعة على متنه، قائلًا: «يبدو أن رجُلَي زورق الصيد هذين سيحظيان بتوصيلة بفضلِ «بيل سامرز» العجوز.» وأضاف بينما شرع الراكبان على الفور في إدارة مرفاع المرساة بأياديهما، وفك قبطان القارب وابنه حبال طي الأشرعة، وربطا الصندل بالقارب بواسطة خُطَّاف: «ويعملان نظير توصيلهما أيضًا.»

علَّق بادجر وهو يُحدِّق إلى الصندل عبر منظاره قائلًا: «أمرٌ غريب، لكنهم لا يصحبون أيَّ شيء معهم على متن الصندل أو القارب. أستطيع رؤية ذلك.»

فقال له ثورندايك: «لقد تفحَّصتَ الصندل، أليس كذلك؟»

«بلى، تفحَّصته كلَّه ولم أجد شيئًا فيه. إنه خفيف ولا يوجد على متنه أي مكان يُمكن أن تُخفي فيه حبَّة بازلاء واحدة حتى.»

«هل رفعتَ المرساة؟»

أجاب بادجر قائلًا: «كلا، لم أرفعها، وقد كان يجدر بي أن أفعل. ها هما يرفعانها الآن بأنفسهما على أي حال.» وبينما كان يتكلم كانت القعقعة السريعة لسقاطة مرفاع المرساة تنتقل عبر الماء. ومن خلال نظارتي المنشورية، رأيت الراكبين يلفَّان أذرُع مرفاع المرساة بأقصى ما في وسعهما، وسرعان ما بدأت قعقعة السقاطة تتباطأ بعض الشيء، وانضمَّ فردا طاقم الصندل، بعدما نصبا الأشرعة، إلى الرجلين الكادحين ليُحرِّكا معهما أذرع المرفاع، لكن سرعة سلسلة المرفاع لم تشهد زيادةً كبيرة حتى مع ذلك.

علَّق أحد الصيادين الواقفين بجوارنا على الجسر: «يبدو أن المرساة تُرفَع بتثاقُلٍ غير عادي.»

واتفق معه الآخر قائلًا: «نعم. ربما علِقت في سلسلة إرساء قديمة.»

قال ثورندايك بصوتٍ خفيض وهو يُحدِّق عبر منظاره: «انظر إلى المرساة يا بادجر. لقد فارقت قاع النهر؛ فالسلسلة تصعد وتنزل والصندل ينجرف مع المد.»

وبينما كان يتكلم راحت حلقة المرساة وعارِضتُها ترتفعان ببطء من المياه، وحينها رأيت سلسلةً ثانية قد رُبِطت دون إحكام بسلسلة المرساة، وانزلقت عليها حتى أوقفَتها حلقة المرساة. ومن الواضح أن بادجر أيضًا قد رآها؛ لأنه صاح قائلًا: «أهلًا!» وأضاف بضع كلمات بلاغية جريئة لا داعي إلى تكرارها. وبعد بضع لفَّات أخرى لأذرع المرفاع،

رُفِعت مخالب المرساة بأكملها من تحت الماء، وقد تدلَّى منها صندوقٌ خشبي واضح كالشمس كان معلَّقًا فيها بسلسلةٍ متينة ربطته بها بإحكام. فتفوَّه بادجر بألفاظٍ نابية بكل طلاقة، والتفتَ إلى الصيَّادين صائحًا بنبرةٍ آمرة عدوانية بعض الشيء:

«أريد قاربًا. الآن. في التَّو واللحظة.»

فنظر إليه الصيَّاد المُسِن بتحدٍّ، وردَّ قائلًا: «حسنًا. لا مانع لديَّ.»

فسأله المفتش بوجهٍ شِبه أرجواني من فرط الانفعال والقلق: «أنَّى لي بقارب؟»

أجاب الصيَّاد وقد بدا عليه الغضب من نبرة المفتش المُتسلِّطة: «أنَّى يا تُرى؟ محل المعجنات؟ أم إسطبلات رعاية الخيول مقابل أجر؟»

قال له بادجر: «أصغِ إليَّ. أنا ضابط شُرطي، وأريد أن أصعد على متن ذلك الصندل، ومستعدٌّ لدفع الكثير من المال؛ فأنَّى لي الآن بقارب؟»

فأجاب الصيَّاد: «حسنًا، سنجعلك تصعد على متنه، هذا إن استطعنا اللحاق به، غير أنني أشكُّ في ذلك؛ فهو بعيد، وهذا أمرٌ واقع.» وأضاف بنبرةٍ مختلفةٍ بعض الشيء: «وأرى شيئًا غريبًا يحدث على متنه.»

كان يحدث على متنه شيءٌ غريب بالفعل، وكنت أُراقبه. كان الصندوق قد رُفِع ووُضِع على متن الصندل بشيء من الصعوبة، ثم اندلعت مشادَّةٌ مُفاجئة بين قائدَي الصندل وراكبَيه تطوَّرت آنذاك إلى عراكٍ مفتوح، وكان من الصعب رؤية ما كان يحدث بالضبط؛ إذ كان الصندل ينجرف بسرعة في النهر مبتعدًا عنَّا، وكانت أشرعته التي تقاذفتها الرياح من جانب إلى آخر، تحجب الرؤية بعض الشيء. بالرغم من ذلك، فسرعان ما امتلأت الأشرعة بالهواء، وظهر رجلٌ عند دفَّة القيادة، ثم بدأ الصندل ينحرف مع الرياح. ومع المد القوي ونسيم الرياح العليل، سرعان ما بدأ الصندل يصغر في أعيُننا مع ابتعاده عنَّا.

وفي أثناء ذلك، كان الصيَّادان قد هرعا يبحثان عن قارب، وكان المفتش قد ركض إلى رأس الجسر، حيث وقف يُومئ ويُلوِّح باهتياجٍ شديد وينفخ في صافرته، بينما واصَل ثورندايك مراقبة الصندل المُبتعد عبر منظاره بهدوءٍ تام.

سألت زميلي وأنا مُتفاجئ قليلًا من تقاعُسه عن فعل أي شيء: «ماذا سنفعل؟»

ردَّ عليَّ بسؤالٍ آخر قائلًا: «وماذا بوسعنا أن نفعل؟ سيُطارد بادجر الصندل، ولن يلحق به على الأرجح، لكنه سيمنعه من الرُّسو حتى يخرجوا إلى مصبِّ النهر، وحينئذٍ قد يحظى بدعم. المطاردة مسئوليته.»

«هل سنذهب معه؟»

«لن أذهب؛ إذ يبدو أنها ستكون رحلة مطارَدة بَحرية ستستغرق الليل كلَّه، وأنا لا بد أن أكون في مكتبنا صباح غد، ثم إن المطارَدة ليست من اختصاصنا، لكنك تستطيع الذهاب مع بادجر إذا كنتَ ترغب في ذلك؛ فما من سببٍ يمنعك. يُمكنني أن أتدبَّر عمل المكتب وحدي.»

قلت له: «حسنًا، أظنُّ أنني أودُّ أن أشهد نهاية تلك المطارَدة، إن كان هذا لا يُضايقك. بالرغم من ذلك، فقد يتمكَّنون من الإفلات بالغنائم.»

فاتَّفق معي قائلًا: «هذا صحيح، وحينئذٍ ستُفيدنا معرفة كيفية اختفاء الغنيمة ومكانها. نعم، يُمكنك أن تذهب معهم بالطبع، ولتبقَ في يقظةٍ تامَّة.»

وفي تلك اللحظة، عاد بادجر مع الشرطيَّين ذوي الثياب المدنية اللذين استُدعيا من موقعَيهما بصافرته. وفي الوقت نفسه رأينا قاربًا يقترب من الدرج القريب من الجسر، ويقوده الصيَّادان بالمجاديف. نظر إلينا المفتش مُستفسرًا، وسألنا: «هل ستأتيان لمشاهدة المغامَرة؟»

أجاب ثورندايك: «يودُّ الدكتور جِرفيس الذهاب معك. أما أنا فمُضطرٌّ إلى العودة إلى لندن، ثم إنَّ حمولة قاربكم ستكون أفضل بدوني.»

وبدا أنَّ هذا هو رأي الصيَّادين أيضًا حين أرسيا القارب عند الدَّرج ونظرا إلى الركَّاب الأربعة، غير أنهما لم يُبديا أيَّ اعتراضٍ سوى أن سألا ساخرَين عمَّا إذا كان يوجد ركابٌ آخرون مع هؤلاء، وحين قعدنا في مؤخرة القارب انطلقا وتجاوَزا الجسر، وسارا بنا بعيدًا في النهر. ظللنا نبتعد عن القرية تدريجيًّا، وصارت المنازل والجسر أصغر حجمًا وأبعد، لكنها ظلَّت في مجال رؤيتنا لوقتٍ طويل فوق أسطح المستنقَعات، ومع ذلك فحين نظرت إلى الوراء عبر نظَّارتي، كان ما يزال بوسعي رؤية ثورندايك وهو يقف على الجسر مُراقبًا المطارَدة بمنظاره.

وفي أثناء ذلك، بدا أن الصندل الطريد يجتازنا؛ إذ كان يسبقنا بفارق ميلَين عند بداية انطلاقنا، غير أننا لم نستطع رؤيته إلا على فترات؛ إذ كان المد ينحسر بسرعة، وكنا شِبه مُحاصَرين وسط الضفاف العالية الموحلة. ظللنا على هذه الحال حتى دخلنا قطاعًا مُستقيمًا من النهر، وحينها فقط تمكَّنَّا من رؤية الأشرعة من وراء الأرض المحيطة بالنهر، وفي كل مرة كان يظهر لنا فيها الصندل، كان يبدو أصغر بدرجةٍ ملحوظة.

وحين اتَّسع مجرى النهر نُصِب الصاري، ورُفِع عليه شراعٌ كبير رباعي الزوايا. وفي الوقت نفسه استمرَّ أحد الصيَّادين في التجديف بمجدافه على الجانب المُواجه لمهبِّ الريح،

بينما أمسك الآخر بذراع المِقود. وبالرغم من أن ذلك قد زاد سرعتنا كثيرًا، كنا كلما لمحنا الصندل يتَّضح لنا أنه يزداد سرعةً وبُعدًا عنَّا.

وفي إحدى هذه المرات التي لمحناه فيها، وقف الصيَّاد الذي كان يُمسِك ذراع المقود ليحظى برؤيةٍ أفضل، ودقَّق النظر في الصندل الطريد طوال دقيقة تقريبًا، ثم تحدَّث إلى المفتش.

قال له بقناعةٍ راسخة: «سيُفلت منَّا يا سيدي.»

سأله بادجر: «أما يزال يبتعد؟»

«نعم. إنه على وشك المرور من طرف ساحل جزيرة «فولنس» إلى القناة العميقة، ولن نستطيع رؤيتها بعد ذلك.»

فسأله بادجر: «ألا يمكننا دخول القناة بالطريقة نفسها؟»

أجاب الصيَّاد: «حسنًا، أصغِ إليَّ، الوضع كالآتي: المد ينحسر، لكنه سيكفي الصندل، وسيحمله خارج النهر عبر قناة «ويتكر» إلى الجانب الآخر من اللسان الرملي. بعد ذلك سينقلب انحسار المد إلى ارتفاع، وسيرتفع الصندل مع المد مُبحرًا نحو لندن. أما نحن فسنلحق بارتفاع المد في قناة «ويتكر»، وسنخرج من هناك بشقِّ الأنفُس، وحين نخرج سيكون ذلك الصندل على بُعدِ أميال.»

وحينها ظلَّ المفتِّش يتفوَّه بالكثير من اللعنات والكلمات النابية بانفعالٍ شديد، حتى إنه أشار إلى نفسه بأنه «أحمق للغاية»، لكن ذلك لم يُحسِّن الوضع إطلاقًا. تحقَّقت النبوءة الشؤم التي تنبَّأ بها الصيَّاد بكل تفاصيلها المروِّعة؛ فحين كنا نقترب من قناة «ويتكر»، كان الصندل يعبُر إلى الجهة الأخرى من اللسان الرملي في الوقت نفسه بالضبط، وكان الجَزْر في أواخره، وحين دخلنا في القناة كان المَد قد انقلب، وصارت المياه تتدفق إلى القناة بسرعةٍ كانت تزداد كلَّ دقيقة، ورأينا الصندل على الجانب الآخر من اللسان الرملي وقد صار بالفعل في المصبِّ المفتوح مُتجهًا نحو الغرب مع المد المرتفع، بسرعةٍ كبيرة بلَغت ست عُقَد.

كان المسكين بادجر مُهتاجًا بشدة. راح يُحدِّق بعينَين متلهِّفتين إلى الصندل الذي كان أثره يخبو، وظلَّ يشتم ويتوسَّل للصيَّادين ويُحمِّسهما ويُغريهما بمكافآتٍ سخيَّة للغاية. أخذ مجدافًا وظلَّ يُجدِّف به بهمَّةٍ مُستميتة، حتى إنه أخطأ التجديف في إحدى المرَّات وتشقلب إلى الوراء ليستقرَّ في حضن أحد الصيَّادين. وظلَّ الصيادان يُجدِّفان حتى انحنى مجدافاهما كعُكَّازين، لكن القارب ظل يزحف ببطءٍ شديد بمُحاذاة الضِّفاف الرملية،

بوصةً بوصةً، وبدا أن المياه العكِرة لا تتوقَّف عن التدفق إلى القناة بكميةٍ أكبر وسرعةٍ أشد. كان نضالًا مُخيفًا، وبدا أنه قد استمرَّ لساعات، وأخيرًا حين زحف القارب عبر اللسان الرملي، واستراح الصيَّادان المُنهَكان على مجدافَيهما، كانت الشمس على مشارف الغروب، وكان الصندل قد اختفى غربًا.

كنتُ مُتعاطفًا جدًّا مع بادجر في مصابه؛ إذ كان سهوه عن تفحُّص مرساة الصندل سهوًا طبيعيًّا جدًّا، أو عاديًّا جدًّا، من رجُلٍ غير ذي خبرة في البحر وشئونه، وكان من الواضح أنه قد تحمَّل مشاقًّا لا حصر لها في سبيل حل هذه القضية، وأبدى بصيرةً ممتازة في مراقبة محيط «جاربريدج» من كثب. والآن، بعد كل حرصه بدا أن اللصوص والغنيمة قد تفلَّتوا من بين أصابعه. لقد كان حظًّا سيئًا للغاية.

قال الصياد المُسِن: «حسنًا، لقد وضعونا في منافسةٍ مُحتدمة للحاق بهم، لكنهم أفلتوا منَّا، فما العمل الآن يا سيدي؟»

لم يكن لدى بادجر ما يقترحه سوى أن نُبحر في النهر نحو الاتجاه المُعاكس لعلَّنا نجد في طريقنا مَن يُساعدنا. كان في أدنى غياهب القنوط والاكتئاب. وحينها، عندما بدا أن الحظ قد هجرنا تمامًا، وبدا الفشل حقيقةً واقعة لا يُمكن تغييرها، تدخَّلت العناية الإلهية.

فثَمة مركبٌ بخاري صغير كان يقترب منَّا من اتجاه قناة «إيست سوين» قد غيَّر مساره فجأةً، واتَّجه إلينا بسرعة كما لو أن قائده يريد محادَثتنا. فحدَّق إليه آخرُ مَن تكلَّم من الصيَّادين لبضع لحظات، ثم ضرب بيده على فخذه، وصاح مُتعجبًا: «أنقذَنا الربُّ بأعجوبة! هذا سيُلبِّي غرضك يا سيدي. ها قد أتى مركبٌ بخاري تابع لسلطات الجمارك.»

انكبَّ الصيَّادان على مجدافَيهما فورًا لمُلاقاة المركب القادم، حتى صِرنا بجواره في غضون بضع لحظات، ونادى بادجر مُلقيًا التحية على مَن فيه بعلوِّ صوته كأنه أحد ثِيران باشان. بعد ذلك شرح الوضع باختصار للضابط المسئول عن المركب، فوعده الضابط بالمساعدة وقد أبدى تعاطفًا شديدًا. تدافعنا جميعًا لنصعد على متن المركب البخاري، تاركين القارب وراءنا بعدما ربطناه بحبله في المركب. صلصل جرس غرفة المحرِّك بابتهاج، وانطلق المركب السريع الشبيه باليخت قُدمًا.

قال الضابط بينما كان مركبه ينطلق: «حسنًا، هلَّا وصفتم لنا هذا الصندل؟ ما شكله؟»

فأجاب الصيَّاد الأعلى رتبةً: «إنه قصيرٌ عريض صغير الحجم يحمل حمولةً خفيفة، وفي أمسِّ الحاجة إلى أن يُطلى. يوجد به دفَّة للقيادة، ويحمل عارضةً خضراء في مؤخرته منقوشًا عليها بلونٍ مُذهَب «بلوبيل ومالدون». يبدو أنه عادةً ما يُلازم الإبحار قبالة الساحل الشمالي.»

بعد أن سمع الضابط تلك التفاصيل وقد احتفظ بها في ذهنه، استطلع الأُفُق الغربي بمنظارٍ ليلي، مع أننا كنا ما نزال في وضَح النهار، وسرعان ما قال: «ثَمة صندلٌ قصير عريض بمحاذاة على استقامة عوَّامة «بلاكتيل سبِت»؛ فلتُلقِ نظرةً عليه.» سلَّم منظاره إلى الصيَّاد، الذي أكَّد بعدما تفحَّص الصندل الغريب بدقَّةٍ أنه طريدنا المنشود، ثم قال: «إنه يتوجَّه إلى بلدة «ساوث إند» أو بلدة «لي» على الأرجح.» وأضاف: «أُراهن على أنه ذاهبٌ إلى جدول «بِنفليت كريك»؛ فهو مكانٌ لطيف هادئ ومُناسب لإنزال المسروقات.»

كانت تجربتنا المريرة التي عِشناها منذ لحظات قد انعكست الآن؛ ذلك أن سفينتنا الصغيرة السريعة كانت تلتهم أميالًا من الماء بسرعةٍ فائقة، وبدأ الصندل الذي كنا نُشاهده جميعًا بلهفةٍ شديدةٍ يلوح في الأفق أكبر حجمًا مع مرور كل دقيقة. وبحلول الوقت الذي أصبحنا فيه بجوار «ماوس لايتشيب»، لم يكن الصندل يَسبقنا إلا ببضع مئات من الياردات فحسب، وكان اسم «بلوبيل» مقروءًا بوضوح حتى من خلال نظَّارتي. كاد بادجر يَبكي من الفرحة، وابتسم الضابط المسئول ابتسامةَ ترقُّب، وشمَّر عُمَّال المركب البخاري عن سواعدهم تأهُّبًا للقبض الوشيك على الصندل، وجهَّز كلا الشرطيَّين ذوي الثياب المَدنية زوجًا من الأصفاد خلسةً.

وأخيرًا، صار المركب البخاري الصغير على مقربةٍ شديدة من جوار الصندل، وقد لاحَظه الرجلان الراكبان على متنه بالطبع. انحرف المركب ناحية الصندل فجأةً، وسرعان ما صار بمُحاذاته؛ فعلَّق أحد العُمال خُطَّافًا في أحد حبال دعم الصاري بدقَّة، وشبك الصندل بالمركب بإحكام، بينما قفز اثنان من ضباط الجمارك والشرطيان ذوا الثياب المَدنية والمفتش معًا إلى الأسفل على متن الصندل. وللحظةٍ أبدى الرجلان ميلًا إلى العراك مع أفراد الشرطة، لكن الأفضلية العددية كانت لصالح الشرطة بفارقٍ ساحق. وبعد عراكٍ قصير حُسِم بأقل مجهود، خضع كلاهما لتصفيد أياديهما، واقتِيدا فورًا إلى متن المركب البخاري، وقبعا في حجيرته السفلية الأمامية تحت الحراسة، ثم قفز الضابط الرئيس والصيادان وأنا معهم على متن الصندل، وبعدها نزلنا وراء بادجر على الدَّرَج المؤدي إلى المقصورة.

وقد كان مشهدًا غريبًا ذاك الذي تكشَّف لنا في تلك الحجيرة الشبيهة بالخزانة على ضوء مصباح بادجر الكهربائي؛ إذ رأينا رجلين مُمدَّدين على صندوقين وموثَّقين بحبل سبر الغور، وكان وجهاهما مُغطَّيَين بقبعتين مخروطيتين مَحبوكتين، وكانت توجد منضدةٌ صغيرة مثلَّثة ثابتة تحمل صندوقًا مُقوًّى بعصاباتٍ حديدية ميَّزته على الفور من واقع ما كان محفورًا في ذاكرتي عن وصف صندوق السبائك الذي ورد في بيان حمولة السفينة. لم يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة لفكِّ وثاق القبطان وابنه، واللذين كانا غاضبَين بشدة، لكن إصاباتهما لم تكن بالخطيرة، واصطُحبا إلى متن المركب البخاري لينتعشا ويستردَّا عافيتهما. بعد ذلك، حمَل اثنان مفتولا العضلات من عُمال المركب البخاري صندوق الكنز الثقيل إلى أعلى الدَّرج الضيق؛ ليُرفَع بحبال الرافعة ويوضع على متن مركب الجمارك الحكومي.

قال لي المفتش بعد ذلك وهو يمسح وجهه بمنديله: «حسنًا، حسنًا، مأزقٌ صعب، لكن العبرة بالخواتيم، غير أنني قد ظننت أن الرجال والمسروقات قد أفلتوا من قبضتي آنذاك. ماذا ستفعل؟ فأنا سأبقى على متن هذا المركب إذ يذهب مباشرةً إلى قسم الجمارك في لندن، لكن إذا كنت تودُّ العودة إلى ديارك في وقتٍ أبكَر، فأظنُّ أن الضابط الرئيس سيُنزلك على البَر عند «ساوث إند».»

قرَّرت اختيار هذا المسار، وبذلك نزلت عند ممشى «ساوث إند بير» أحمل معي برقيةً من بادجر لأبعث بها إلى مقرِّ عمله، وأسعفَني حسنُ حظِّي في «ساوث إند» للحاق بقطارٍ سريعٍ أوصلني إلى محطة «فينتشيرش ستريت» في بداية الليل.

وحين وصلت إلى مكتبنا، وجدتُ ثورندايك جالسًا عند المدفأة يدرس مذكرةً بكل هدوء. وعند دخولي وقف وقال بينما وضع المذكرة جانبًا: «لقد عُدتَ أبكر ممَّا كنت أتوقَّع. كيف سارت المطارَدة؟ هل لحقتم بالصندل؟»

«نعم، قبضنا على اللصَّين وأمسكنا بالسبائك، بعد أن كنا على وشك أن نفقد كليهما.» وسردتُ له أحداث المطاردة والقبض على الرجلين والسبائك، وقد أنصت إليها بحماسة تامَّة، ثم قال حين أنهيت روايتي: «لقد كان هذا المَركب البخاري الجمركي عيِّنةً من حُسنِ حظٍّ هائل. إنني مُبتهج بذلك؛ فالقبض على اللصَّين والسبائك يُسهِّل علينا القضية للغاية.»

فقلت له: «أرى أنه يحسم القضية تمامًا؛ فقد استُعيدت المسروقات واحتُجز اللصان، لكنني أظنُّ أن معظم الفضل في ذلك يُنسَب إلى بادجر.»

ابتسم ثورندايك ابتسامةً غامضة، وقال: «سأترك له الفضل كلَّه يا جِرفيس.» وأضاف بعد لحظة قضاها صامتًا يتفكر: «سنذهب في صباح الغد إلى «سكوتلانديارد» لنتيقَّن من صحَّة الغنيمة التي أمسكتم بها. وإذا اتَّضح أن الصندوق يتفق مع الوصف الوارد في مستند الشحن، فستكون القضية قد حُسِمت حينئذٍ كما تقول.»

قلت له: «هذا ليس ضروريًّا؛ فالعلامات كلها كانت صحيحة، والأختام الجمركية غير مفضوضة، لكني أعرف أنك لن تقتنع إلى أن تتيقَّن من كل شيء بنفسك، وأظنُّ أنك مُحقٌّ في ذلك.»

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف من ضُحى اليوم التالي حين اجتَحنا مكتب المشرف ميلر في «سكوتلانديارد». رفع ذلك الضابط اللطيف ناظرَيه من على مكتبه ناظرًا إلينا عند دخولنا، وضحك بابتهاجٍ شديد، ثم قال بضحكةٍ مكتومة وهو يلتفت إلى المفتش الذي رفع هو الآخر ناظرَيه نحونا وكان ينظر إلينا بابتسامةٍ ماكرة: «ألم أقُل لك ذلك يا بادجر؟ كنتُ أعلم أن الطبيب لن يقتنع حتى يراه بأمِّ عينَيه. أظنُّ أن هذا هو ما جئتَ من أجله يا سيدي، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك: «بلى. إنه مجرد إجراء شكلي بالطبع، لكن، إن كنت لا تُمانع ...»

ردَّ ميلر: «لا على الإطلاق. تعالَ معي يا بادجر، وأرِ الطبيب غنيمتك.»

قادنا الضبطان إلى غرفةٍ ذات بابٍ موصَد فتَحه المشرف، وكانت تحوي منضدةً صغيرة ومعيارَ قياس وميزانًا ومجموعة من مخططات «سنيلين»، وصندوق السبائك الذي صار الآن قطعةً تاريخية. تفحَّص ثورندايك الصندوق من كثب، وتحقَّق من العلامات والأبعاد مُقارِنًا إيَّاها بتلك المدوَّنة في دفتر ملاحظاته.

ثم قال: «أرى أنكما لم تَفتحاه.»

فأجاب ميلر: «لا. ولمَ نفتحه؟ فالأختام الجمركية سليمة.»

أوضح ثورندايك قائلًا: «ظننتُ أنكما ربما كنتما ستريدان معرفة ما فيه.»

فنظر الضابطان إليه بسرعة، وصاح المفتِّش مُتعجِّبًا:

«لكننا نعرف. لقد فُتِح وفُحِص في الجمارك.»

فسأله ثورندايك: «وماذا يوجد داخله على حدِّ ظنك؟»

أجاب المفتش بنفاد صبر: «أنا لا أظن، بل أعرف يَقينًا. يوجد داخله أربع سبائك من الذهب.»

قال ثورندايك: «حسنًا، بصفتي مُمثِّل شركة التأمين، أرغب في رؤية محتويات هذا الصندوق.»

فحدَّق الضابطان إليه بذهول، ويجب أن أعترف أنني أيضًا فعلت ذلك؛ إذ بدا شكُّه الضمني مُنافيًا تمامًا للمنطق.

قال ميلر: «هذا شكٌّ مُبالَغ فيه! كيف يُمكن ذلك بحقِّ السماء … لكنني أرى أن تُعطينا مسوِّغًا منطقيًّا إن لم تكن مُقتنعًا بما نقول.»

نظر سريعًا إلى مرءوسه الذي كان يَشخر بنفاد صبر، وقال له: «آه، افتحه ودَعه يرَ السبائك، وأظنُّ أنه سيطلب منا أن نُعاير المعدن حينها.»

ابتعد المُشرِف عابسًا ثم عاد حاملًا مفك مسامير لولبية ومطرقة وفتَّاحة صناديق، ثم فضَّ الأختام ببراعةٍ شديدة، واستخرج المسامير اللَّولبية، ورفع غطاء الصندوق الذي كان يحوي بداخله قطعةً سميكة من قماش القنب قد طُويت طيَّةً أو اثنتَين. وبعدما رفعها بشيءٍ من التباهي، عرض السبيكتين العُلويتَين الصفراوين الباهتتَين.

وسأل بادجر ثورندايك: «هل اقتنعَت الآن يا سيدي، أم تريد رؤية الاثنتين الأخريين؟»

تأمَّل ثورندايك السبيكتين، بينما راح الضابطان يَنظران إليه نظراتٍ استفساريةً (لكنهما لم يفهما منه أكثر مما يمكن للمرء أن يفهمه من تعابير وجه تمثال). أخرج من جيبه مسطرةً قابلة للطَّي طولُها قدمٌ واحدة، وقاس الأبعاد الثلاثة لإحدى السبيكتَين بسرعة.

وبعد ذلك سأل: «هل هذا الميزان موثوق؟»

فأجاب المشرف وهو يُحدِّق إلى زميلي بقسماتٍ مُنزعجةٍ بعض الشيء: «يُعطي قياساتٍ مضبوطةً بالأوقية. لماذا؟»

أجاب ثورندايك برفع السبيكة التي قاسَ أبعادها للتَّو، وحملها إلى الميزان عبر المنضدة، ثم وضعها على الكفة المنبسطة، وضبط أثقال القياس بعناية.

استفسر المشرف بقلق بينما كان ثورندايك يأخذ قراءة الميزان: «حسنًا؟»

أجاب ثورندايك: «تسعة وعشرون رطلًا وثلاث أوقيات.»

فكرَّر المشرف سؤاله: «حسنًا؟ وما هي إذن؟»

نظر إليه ثورندايك لحظةً بجمودٍ خالٍ من أي تعبيرات، ثم أجاب بالنبرة الهادئة نفسها: «رصاص.»

فصاح الضابطان معًا وهما يندفعان إلى الميزان مُحدِّقين إلى سبيكة المعدن: «ماذا!» ثم لَمْلم بادجر شتات نفسه، واحتجَّ بنبرةٍ لا تخلو من الانفعال قائلًا: «هراء يا سيدي. انظر إليها. ألا ترى أنها ذهبٌ؟»

فأجاب ثورندايك: «بل أرى أنها مُذهَّبة.»

احتجَّ ميلر قائلًا: «لكن هذا مستحيل! لماذا تظنُّ أنها رصاص؟»

أجاب ثورندايك: «المسألة تتلخَّص في الكثافة النوعية؛ إذ تحوي هذه السبيكة اثنتين وسبعين بوصةً مكعَّبة من المعدن، وتَزِن تسعة وعشرين رطلًا وثلاث أوقيات؛ ومن ثَم فهي سبيكةٌ من الرصاص. وإذا كنت ما تزال مُتشككًا، فمن السهل جدًّا قطع الشك باليقين. هل لي أن أقطع عينةً صغيرة من هذه السبيكة؟»

شهق المشرف فاغرًا فاه ونظر إلى مرءوسه، ثم قال: «أظنُّ في هذه الظروف ... ماذا يا بادجر؟ نعم، لا بأس، يُمكنك ذلك أيُّها الطبيب.»

أخرج ثورندايك سكينَ جيب حادًّا، وبعدما رفع السبيكة ووضعها على المنضدة، وضع السكين على أحد أركان السبيكة وطرق عليه بالمطرقة ببراعة؛ فاخترق نصل السكين المعدن اللين بسهولة، وحينما سقطت العيِّنة المُقتطَعة على الأرض، مددت أنا والضابطان أعناقنا إلى الأمام بلهفة لنراها، وحينئذٍ قطَع اليقين كلَّ الشكوك المحتمَلة؛ إذ كان البريق الأبيض الفضي لسطح العينة التي اقتُطعت للتَّو واضحًا كالشمس.

صاح المشرف بانفعال: «الثعابين! هذه ضربةٌ قاضية في مَقتل! يا إلهي، لقد أفلَت الحُقراء بالمسروقات!» وأضاف بنظرةٍ متحيِّرة إلى ثورندايك: «إلا إذا كنت تعرف مكانها أيها الطبيب، وأظنُّ أنك تعرف.»

قال ثورندايك: «أعتقد أنني أعرف، وإذا كنت تودُّ النزول والذهاب معي إلى ميناء «لندن دوكس»، فأظنُّ أنني أستطيع أن أسلِّمك إيَّاها.»

انفرجت أسارير المشرف بشدة، لكن أسارير بادجر لم تنفرج؛ إذ رمى ذلك الضابط المنكوب رقاقة المعدن التي كان يفحصها، والتفت إلى ثورندايك سائلًا إيَّاه باستياء: «لماذا لم تُخبرنا بذلك من قبلُ يا سيدي؟ لقد تركتَني أُطارد ذلك الصندل اللعين وأنت كنتَ تعلم طوال الوقت أن المسروقات لم تكن على متنه؟»

فاعترض ثورندايك قائلًا: «يا عزيزي بادجر، ألا ترى أن هذه السبائك الرصاصية ضرورية لقضيتنا؟ إنها تُثبِت أن سبائك الذهب لم تُنزَل قط من على السفينة، وأنها بذلك ما تزال على متنها، وهذا يسمح لنا بمصادرة أي ذهب قد نجده فيها.»

قال المشرف: «أصغِ إليَّ يا بادجر، لا جدوى الآن من أن تُجادل الدكتور. إنه كزرافةٍ، يرى كلَّ ما حوله في آنٍ واحد. دعنا نذهب إلى «لندن دوكس».»

أغلقنا الغرفة وانطلقنا جميعًا، وبعدما ركبنا قطارًا من محطة «تشارينج كروس» مرَرنا في طريقنا بمحطتَي «مارك لين» و«فينتشيرش ستريت» وصولًا إلى محطة «وابينج»، حيث قادنا ثورندايك حتى دخلنا إلى الميناء، واتَّجهنا مباشرةً إلى أحد الأرصفة بالقرب من مدخل «وابينج». وهنا أجرى ثورندايك حوارًا قصيرًا مع أحد مسئولي الجمارك الذي ابتعد مُسرعًا، وسرعان ما عاد مع ضابطٍ أعلى رتبةً. وبعدما حيَّا هذا الأخير ثورندايك، وألقى على جمعنا الصغير نظرةً خاطفة يبدو فيها الاستمتاع بعض الشيء، قال: «لقد أنزلوا ذلك الصندوق الذي تحدَّثت عنه، وقد وضعته في غرفة مكتبي مؤقتًا، فهلَّا أتيت وألقيت نظرةً عليه.»

تبعناه إلى غرفة مكتبه الواقعة خلفَ صفٍّ طويل من السقائف، حيث كانت توجد منضدةٌ تحمل صندوقًا خشبيًّا متينًا أكبر بعض الشيء من صندوق شحنة «السبائك»، بينما كان المكتب يحمل مستندًا كبيرًا مفتوحًا يتكوَّن من أوراقٍ عديدة.

قال الضابط: «أظنُّ أن هذا هو الصندوق الذي طلبته، لكن من الأفضل أن تتحقَّق منه بمراجعة بيان الحمولة الجمركي. ها هي البيانات الخاصة به: «صندوقٌ واحد يَحوي سبع عشرة دزينة، وثلاثة أرباع دزينة من مسامير لولبية من النحاس الأصفر، أبعادُها ست بوصات في ثلاثة أثمان من البوصة، ومزوَّدة بصواميل. وأبعاد الصندوق هي ست عشرة بوصة في ثلاث عشرة بوصة في تسع بوصات. الوزن الإجمالي مائة وتسعة عشر رطلًا، والوزن الصافي مائة وثلاثة عشر رطلًا. المُرسَل إليه: جاكسون و«ووكر»، ٥٩٣ شارع «جريت ألي ستريت»، لندن، إي.» أهو الصندوق المطلوب؟»

فأجاب ثورندايك: «إنه الصندوق المطلوب.»

فقال صاحبنا: «إذن، سنفتحه ونُلقي نظرةً على تلك المسامير اللولبية المصنوعة من النحاس الأصفر.»

وبمهارةٍ كان من المُدهش أن يتمتَّع بها ضابطٌ يحمل هذه الرتبة العالية، فكَّ مسامير الصندوق اللولبية في طرفة عين، ورفع غطاءه كاشفًا عن قطعةٍ مطوية من قماش القنب الخشن. وبينما كان يرفع هذه القطعة القماشية، كان الضابطان يُحدِّقان بلهفة إلى داخل الصندوق، وفجأةً تغيَّرت قسَمات بادجر المُتلهفة إلى قسَماتٍ تنمُّ عن خيبةِ أملٍ مريرة.

وقال بانفعال: «لقد طاشت رصاصتك هذه المرة يا سيدي؛ فليس ذلك سوى صندوق من المسامير اللولبية المصنوعة من النحاس الأصفر.»

فصحَّح له ثورندايك بهدوء: «بل مسامير من الذهب أيها المفتِّش.» أمسك أحدها وسلَّمه إلى المفتش المشدوه، وسأله: «هل أمسكت مسمارًا من النحاس الأصفر بهذا الوزن من قبل؟»

فاعترف المفتش وهو يَزِنه في يده ويمرِّره إلى ميلر، قائلًا: «حسنًا، إنه ثقيلٌ للغاية بالتأكيد.»

قال ثورندايك: «إن وزنه، وفق المذكور في البيان، يزيد عن ثماني أوقيات ونصف أوقية، لكن دعونا نتحقَّق من وزنه بأنفسنا.» أخرج من جيبه ميزانًا زنبركيًّا صغيرًا، وعلَّق به المسمار، ثم قال: «إنه يَزِن ثماني أوقيات وثلثَي أوقية مثلما ترى. أما أيُّ مسمارٍ من النحاس الأصفر بالحجم نفسه كان سيَزِن ثلاث أوقيات وأربعة أخماس من الأوقية فقط؛ ومن ثَم فلا شكَّ إطلاقًا في أن هذه المسامير من الذهب، ثم إن وزنها الإجمالي يبلغ مائة وثلاثة عشر رطلًا، بينما يبلغ وزن السبائك الأربعة مائة وثلاثة عشر رطلًا وأوقيتَين؛ لذا فمن المنطقي استنتاج أن هذه المسامير تُمثِّل تلك السبائك، والتي أُذيبت ببراعةٍ استثنائية جعلتها لا تفقد سوى أوقيتَين من وزنها. ألم يحضُر وكيل المُرسَل إليه بعدُ؟»

فأجاب الضابط بابتسامة ابتهاج: «إنه ينتظر في الخارج، حيث يتمشَّى جيئةً وذهابًا بخطواتٍ وثَّابة مثل حبَّة بازلَّاء في مِقلاة. سآذَن له بالدخول.»

أذِنَ له بالفعل، فاقترب رجلٌ ضئيل الحجم رثُّ الثياب ذو ملامح سامية جدًّا من الباب بحذرٍ شديد، ووجهٍ شاحبٍ بعض الشيء. وحين وقعت عيناه الشبيهتان بالخَرزتَين على الصندوق المفتوح والتجمُّع المُنذِر بسوء في غرفة المكتب، استدار وهرب راكضًا بطول رصيف الميناء كما لو أن جيوش الفلستيِّين كانت تُطارده.

وبينما كنا نتمشَّى في شارع «نايتنجيل لين» عائدين إلى مكتبنا، رددتُ على ثورندايك قائلًا: «الأمر كلُّه بسيط للغاية بالطبع مِثلما تقول، لكني لا أستطيع رؤية طرف الخيط الذي بدأت منه. ما الذي جعلك تظن أن الصندوق المسروق كان مزيَّفًا؟»

أجاب ثورندايك: «في البداية، اعتمد نهجي على مجردِ فرضياتٍ بديلة. لقد كان تخمينيًّا محضًا؛ إذ بدت عملية السرقة بالطريقة التي وصفها بها «هيلثورب» بدائية للغاية، وبدا أن اللصوص قد خطَّطوا لها بطريقةٍ خاطئة تمامًا. وحين لاحظت ذلك سألت نفسي بطبيعة الحال: ما الطريقة الصحيحة لسرقة صندوق من سبائك الذهب؟ ووجدت أن أبرز الصعوبات في تنفيذ عملية سرقة كهذه تكمن في الطبيعة الثقيلة للشيء المسروق، والسبيل إلى التغلُّب على هذه الصعوبة هو الهروب بالغنيمة على مَهلٍ قبل اكتشاف

السرقة، وكلما طال الوقت المُنقضي قبل اكتشافها كان ذلك أفضل للسارق. ومن الواضح أيضًا أنك إذا استطعت أن تُضلِّل شخصًا ما وتجعله يسرق نسخةً مزيَّفة من غنيمتك، فستكون قد طمستَ آثارك تمامًا؛ لأنه إذا قُبِض على هذا الشخص فستكون المشكلات متشابكة وغامضة للغاية، وإذا لم يُقبَض عليه فستقود كلُّ الآثار والخيوط إلى أبعد ما يكون عنك. ولا شك بأنه سيكتشف هذا التزييف حين يُحاول التصرُّف في الغنيمة، لكنه لن يستطيع التفوُّه بكلمةٍ عن ذلك؛ لأنه هو نفسه قد ارتكب جريمة. وبهذا توصَّلت إلى أن هذه هي الخطة الاستراتيجية الصحيحة، ومع أنها كانت مُستبعَدة للغاية، ولم يكن يوجد ما يُشير إلى أن اللصوص قد اتبعوها، كان ما يزال عليَّ أن أضع في الحسبان أن هذه السرقة البدائية ربما تَستُر وراءها سرقةً أشدَّ دهاءً. كان من الضروري أن أتيقَّن تمامًا من أن سبائك الذهب كانت في الصندوق حقًّا حين غادَر «بيلهافن»، وقد كنتُ شِبه مُتيقنٍ من ذلك. لقد كانت زيارتنا إلى قسم الجمارك أكبر بقليل من مجرَّد إجراء شكلي؛ إذ كان الهدف الوحيد منها هو أن تمنحنا معلومةً لا ريب فيها لنستهلَّ بها تحقيقنا. فكان علينا أن نجد شخصًا قد شاهَد الصندوق مفتوحًا وتحقَّق من محتوياته بالفعل، وحين وجدنا ذلك الرجل — السيد بيرن — اتَّضح على الفور أن ذلك الاحتمال المستبعد للغاية قد تحقَّق؛ فسبائك الذهب كانت قد اختفت بالفعل قبل أن يرى بيرن الصندوق؛ ذلك أنني حسبت الحجم التقريبي للسبائك الحقيقية، ووجدت أنه كان من المفترَض أن يبلغ اثنتين وأربعين بوصةً مكعبة، وأن أبعادها كانت ستبلغ سبع بوصات في ثلاث بوصات في بوصتين؛ أي إن الأبعاد التي ذكرها بيرن — والتي بدت صحيحةً كما اتَّضح من أبعاد الصندوق الذي كان يُلائم السبائك بالكاد — كانت مُستحيلة؛ فلو كانت تلك السبائك من الذهب لَبلَغ وزنها مائتَي رطل، وليس مائة وثلاثة عشر رطلًا كما ورد في تقريره. الشيء المُذهِل أن بيرن لم يُلاحظ هذا التناقض؛ فما كان الكثيرون من ضباط الجمارك ليغفلوا عن ذلك.»

سألته: «أليس غريبًا أن اللصوص راهَنوا على صُدفةٍ مستبعَدة كهذه؟»

أجاب قائلًا: «من المؤكَّد أنهم لم يكونوا على دراية بالمخاطَرة التي كانوا يخوضونها؛ فالأرجح أنهم قد افترضوا ما كان معظم الناس سيفترضونه، وهو أن صندوق السبائك سيُفحَص ويُمرَّر فحسب؛ فقليلٌ من الناس مَن يعرف الإجراءات الصارمة التي يتبعها ضباط الجمارك، لكني سأستكمل الآن: كان من الواضح أن سبائك «الذهب» التي فحصها بيرن كانت مزيَّفة، وهنا ظهر السؤال الآتي: أين كانت السبائك الحقيقة إذن؟ هل هرب

اللصوص بها أم أنها كانت ما تزال على متن السفينة؟ ولحسم إجابة هذا السؤال، قرَّرت الاطِّلاع على بيان الحمولة الجمركي كله، لا سيَّما عمود بيانات الأوزان الصافية، وسرعان ما وجدت فيه صندوقًا لا يختلف وزنه الصافي عن وزن السبائك المسروقة إلا بفارق أوقيتين فقط، وكان هذا الصندوق طردًا من المسامير اللولبية المصنوعة من النحاس الأصفر، على متن سفينة متجهة إلى أرض الوطن! ولكن مَن في الدنيا قد يُرسل مسامير من النحاس الأصفر من أفريقيا إلى لندن؟ كان هذا الأمر الشاذ لافتًا جدًّا، لدرجة أنني تفحَّصت البيانات بتدقيقٍ أشد، وحينها توصَّلت من خلال قسمة الوزن الصافي على عدد المسامير إلى أن كلًّا من هذه المسامير الصغيرة يَزِن أكثر من نصف رطل، غير أنه إذا صحَّ ذلك كان من المستحيل أن تكون هذه المسامير مصنوعةً من معدنٍ آخر سوى الذهب أو البلاتين، وكان من شِبه المؤكَّد أنها من الذهب، ثم إن وزنها الإجمالي كان مُساويًا لوزن السبائك المسروقة بالضبط عدا أوقيتَين من المرجَّح أنهما فُقِدتا في الصَّهر.»

قلت له: «وأنياب الأفيال الصغيرة وصمغ الكوبال وجوز شجرة الكولا، ما صلتها بالتحقيق؟ لا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أجد أيَّ علاقة.»

رمقني ثورندايك بنظرةٍ خاطفة مشدوهة، ثم ردَّ بضحكةٍ مكتومة هادئة: «لم تكن توجد أيُّ علاقة، بل كانت هذه الملاحظات من أجل وكيل شركة الشحن. لقد كان ينظر من فوق كتفي إلى ما كنت أكتبه؛ لذا كان عليَّ أن أُعطيه شيئًا يقرؤه ويشغل تفكيره به؛ فلو أنني اكتفيت بكتابة ملاحظات عن مسامير النحاس الأصفر فقط، لكنت قد أخبرته بذلك بطبيعة شكوكي.»

«إذن فقد حللتَ لغز القضية بالفعل بحلول الوقت الذي غادَرنا فيه «بيلهافن»؟»

«نظريًّا، نعم، غير أنه كان علينا استعادة الصندوق المسروق؛ فبِدُون تلك السبائك الرصاصية كنا سنَعجِز عن إثبات أن المسامير الذهبية ممتلكاتٌ مسروقة، كما يعجز المرء عن إثبات وقوع جريمة قتل بلا دليل على وفاة الضحية.»

«وكيف نُفِّذت السرقة في رأيك؟ كيف أُخرجَ الذهب من مخزن السفينة المُحصَّن؟»

«أعتقد أنه لم يُوضَع هناك قط؛ فأنا أشكُّ في أن اللصوص هم وكيل ربَّان السفينة وكبير المهندسين، وربما المسئول عن الحسابات والشئون المالية على السفينة؛ ذلك أن وكيل الربَّان يتحكَّم في تخزين الحمولة، ويتحكَّم كبير المهندسين في ورشة الإصلاح، وهو يَملك المهارات والدراية اللازمة للتعامل مع المعادن. وأظنُّ أنهم حين تلقَّوا إخطارًا بشحنة السبائك، أعدُّوا الصندوق المزيَّف بما يتماشى مع وصف الصندوق الحقيقي.

وحين وصلت السبائك خبَّئوا الصندوق المزيَّف على متن السفينة، وبدَّلوا الصندوقين حالما وُضِعت السبائك على متن السفينة، ثم أُرسلَ الصندوق المزيَّف إلى المخزن الحصين، ونُقِل الصندوق الحقيقي إلى مخبأ مُجهَّز سَلفًا. وبعد ذلك قطَّع المهندس السبائك، وصهَرها قطعةً قطعة، وصاغها في شكل مسامير لولبية بسكبها في قالبِ صياغةٍ عادي، واستخدم مسمارًا حديديًّا ليكون نموذجًا له، ثم أضاف السنون اللَّولبية باستخدام لُقمة تسنين. وكان وكيل الربَّان قادرًا على إدراج صندوق المسامير في بيان الحمولة الجمركي وقتما يشاء، وإرسال سند الشحن بالبريد إلى المُرسَل إليه الصوري. هكذا نُفِّذت السرقة على حدِّ ظنِّي.»

تبيَّن أن الحل الذي توصَّل إليه ثورندايك صحيحٌ حرفيًّا؛ إذ قُبِض على المُرسَل إليه، والذي طارَده المفتِّش بادجر على رصيف الميناء، عند بوابات الميناء، وتطوَّع فورًا بأن يشهد على شركائه في الجريمة. وبعد ذلك سرعان ما قُبِض على وكيل الربَّان وكبير المهندسين والمسئول عن الحسابات المالية في باخرة «لابادي»، ومثَلوا للمحاكَمة التي قدَّموا فيها، كلٌّ على حدة، إقرارًا بالذنب، ووصفوا طريقة السرقة كما صاغها لي ثورندايك بالضبط تقريبًا.

الفصل السابع

محرقة الجثث الجنائزية

نادرًا ما كان ثورندايك ينغمس في قراءة الصُّحف المسائية، بل إنه كان يستاء بعض الشيء من هذه العادة الحديثة؛ ولهذا فحين دخلتُ مكتبنا قُبيل موعد العشاء مُمسكًا بنُسخةٍ من صحيفة «إيفيننج جازيت» المسائية، حدَّق إلى الصحيفة المطوية في يدي بنظرةٍ استفسارية تحمل شيئًا قليلًا من الاستنكار.

أعلنت مُقتبسًا عبارة بائع الصُّحف الصغير السن: «اكتشافٌ مُروِّع بالقرب من «دارتفورد».»

فتلاشى الاستنكار من على وجهه، لكن النظرة الاستفسارية ظلَّت كما هي.

سألني: «ما الأمر؟»

فأجبته قائلًا: «لا أعرف، لكنه يبدو شيئًا ضِمن نطاق اختصاصنا.»

ردَّ مُحدِّقًا إلى الصحيفة: «صديقي العلَّامة يظلمنا، لكن إذا كنتَ ستجعل جسدي ينتفض ذُعرًا، فسأُحاول تحمُّل تفاصيل الخبر.»

وبناءً على هذه الدعوة، فتحتُ الصحيفة وقرأتُ ما يأتي:

«اكتشافُ مأساةٍ مروِّعة في مَرج على بُعدِ ميلٍ واحد من دارتفورد. في حوالَي الساعة الثانية من صباح اليوم، لاحَظ شرطيٌّ ريفيٌّ كومةً مُشتعِلة من التبن عند المستنقَعات بالقرب من الجدول المائي. وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى الكومة، كان النصف العُلوي منها يحترق بشدة في الرياح العاتية. ولأنه لم يستطع فِعل أي شيء بمفرده، ذهب إلى البيت الريفي المُجاور ذي المزرعة وأطلق صافرة الإنذار، فرافَقه المُزارع واثنان من أبنائه إلى مكان الحريق، غير أن الكومة كانت قد أصبحت آنذاك كتلةً هائلةً مُشتعلة، تُصدِر أجيجًا يدوِّي في الرياح، وتنبعث منها حرارةٌ مُستعرة. ولمَّا كان إنقاذ أي شيء أمرًا

مُستحيلًا، فقد قرَّر المُزارع تركها لمصيرها المحتوم والعودة إلى بيته، لا سيَّما أنه لم تكن هناك أكوامٌ أخرى بالقرب منها.

وفي الساعة الثامنة صباحًا عاد إلى المكان نفسه، ووجد أن الكومة لا تزال تحترق، وإن كانت قد تحوَّلت إلى ركامٍ من الرماد ونُفايات الحريق المتوهِّجة. وحين اقترب منها انتابه الذُّعر؛ إذ رأى جمجمةً بشرية بدا أنها تبتسم ابتسامةً عريضةً وسط مخلَّفات الحريق. ومع تدقيق النظر، رأى عظامًا أخرى — كلُّها بيضاء مُتكلِّسة وطباشيرية — ووجد بالقرب من الجمجمة غليونًا فخاريًّا قصيرًا سميكًا. ويبدو تفسير هذا الحادث المروِّع بسيطًا للغاية؛ إذ لم يكن عُمال المزرعة قد أتمُّوا إنشاء هذه الكومة، وحين توقَّفوا عن العمل تركوا السُّلَّم في مكانه، ويبدو أن أحد المتشرِّدين كان يبحث عن مكانٍ يأويه في الليل، فلاحَظ هذا وجود السُّلَّم وتسلَّقه، واستراح وسط التبن المُهلهل في أعلى الكومة، حيث نام واضعًا غليونه المُشتعِل في فمه؛ فاشتعل التبن. ولا بد أن الرجل اختنق بالدخان دون أن يستيقظ من سُباته.»

علَّق ثورندايك قائلًا: «تفسيرٌ منطقي، ومُحتمَل جدًّا، لكنه محض افتراض بالطبع، والواقع أن الموت في هذه الحالة يُمكن أن يُعزى إلى أيٍّ من الأسباب الثلاثة للموت بحادثةٍ عنيفة: حادث أو انتحار أو قتل.»

فقلت له: «كنت أظن أننا نستطيع استبعاد الانتحار بثقةٍ شِبه تامة؛ فمن الصعب تخيُّل أن يختار رجُلٌ شَيَّ نفسِه حتى الموت.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «لا أستطيع الاتفاق مع رأي صديقي العلَّامة هنا؛ إذ يُمكنني تخيُّل حالة تكون شديدة التعلُّق باختصاص الطب الشرعي، وتتماشى تمامًا مع الملابَسات الحالية؛ فلنفترض أن رجلًا مُعسِرًا يائسًا مُشمئزًّا من الحياة إلى حدٍّ ميئوسٍ منه قد قرَّر توفير احتياجات أسرته باستثمار الجنيهات القليلة التي كانت متبقيةً لديه في التأمين على حياته بمبلغٍ طائل والانتحار من بعد ذلك. كيف سيتصرَّف؟ إذا انتحر بأيٍّ من الأساليب التقليدية، فسيُبطِل بوليصة التأمين بالطبع، لكن لنفترض الآن أنه كان يعرف باحتمالية وجود كومة من التبن، وأنه أخذ معه سُمًّا سريع المفعول، مثل سيانيد البوتاسيوم، بل كان بإمكانه أيضًا أن يستخدم سيانيد الهيدروجين إذا حمَله في قنينةٍ مصنوعة من المطاط أو السيلولويد ستَلتهمها النيران، وأنه تسلَّق إلى أعلى الكومة وأضرَم النيران فيها، وحالَما اشتعلت تمامًا تجرَّع السُّمَّ وخَرَّ صريعًا بين التبن. مَن قد يطعن في استحقاق أسرته لقيمة التأمين؟ فالنار ستكون قد دمَّرت كلَّ آثار السم، حتى وإن جرى البحث عنها،

غير أنه من شِبه المؤكَّد أن هذه المسألة لن تُطرَح أبدًا، وستَدفع الشركة قيمة التأمين بلا اعتراض أو تردُّد.»

لم أستطع كبحَ ابتسامتي أمام هذا العرض الهادئ لجريمةٍ قابلة للتنفيذ، وقلت: «من الرحمة يا ثورندايك أنك رجلٌ مُستقيم؛ فلو أنك لم تكن كذلك ...»

ردَّ على الفور بدُعابة قائلًا: «أعتقد أنه يجدر بي أن أجد وسيلةً أفضل من الانتحار لكسب الرزق، لكن بخصوص هذه القضية فستكون جديرةً بالمتابعة. صحيحٌ أن فرضية الرجل المتشرِّد هي الأرجح بالتأكيد، لكن رجحانها نفسه يجعل أيَّ فرضيةٍ بديلة مُمكنةً على الأقل؛ فلا أحد قد يشكُّ في أنها حادثة انتحار احتيالي، لكن هذه الحصانة من الشك عاملٌ يُعزِّز رجحان الانتحار الاحتيالي بالفعل. والأمر نفسه ينطبق بدرجةٍ أقل على احتمالية القتل. يجب أن نُتابع القضية وننتظر ظهور أي مستجدات أخرى.»

لم يتأخر ظهور المستجدات الأخرى كثيرًا؛ فالخبر الوارد في الصحيفة الصباحية قد قضى تمامًا على فرضية الرجل المُتشرد دون أن يُقدِّم أيَّ فرضيَّاتٍ أخرى.

فقد جاء فيه ما يأتي: «مأساة كومة التبن المحترقة تأخذ منعطفًا غامضًا. لقد اتضح أن الرجل المجهول، والذي افتُرض أنه أحد المتشرِّدين، كان شخصًا ذا مكانةٍ اجتماعية بالتأكيد؛ إذ كشف الفحص الدقيق الذي أجرَتْه الشرطة للرماد عن عدة أغراض لا يُمكن أن يحملها سوى رجلٍ ذي مقدرةٍ مالية كبيرة؛ فقد اتَّضح أن الغليون الفخاري كان أحد غليونَين — استُعيد ثانيهما — من المرجَّح أنهما كانا مُطعَّمين بالفضة، ومحمولين في عُلبةٍ عُثِر على إطارها الفولاذي. وكلا الغليونين من طراز «بيرنز كاتي»، تحمل فوَّهةُ كلٍّ منهما نقشًا أنيقًا للحرفين الأوليين: «آر. آر.». وقد عُثِر أيضًا على الأغراض الآتية: «بقايا ساعة، من المرجَّح أنها ذهبية، وسلسلة ساعة فريدة بعض الشيء ذات حلقات تتنوَّع بين الذهب والبلاتين. وقد اختفى جزءٌ من الحلقات الذهبية، لكن عُثِر على عدة خرزات ذهبية يبدو أنها انفصلت عن الساعة والسلسلة. أما الحلقات البلاتينية، فهي سليمة ومصنوعة من سلكٍ مُلتوٍ مُربَّع. عُثِر أيضًا على حزمة من المفاتيح قد انصهرت جزئيًّا، وختم بلَّوري صخري، يبدو أنه جزء من خاتم، وتميمة خزفية صغيرة ذات حلقة لتُعلَّق منها — ربما بسلسلة الساعة — وعدد من الأسنان الصناعية. وقد أضفت هذه الأخيرة على القضية جانبًا مُحيرًا ومُنذرًا بالشر؛ إذ عُثِر على طقم أسنان عُلوي بجوار قناة تبعد عن الكومة المُحترِقة مسافة مائتَي ياردة. يحتوي الطقم على فجوتين قد وجد جرَّاح الشرطة حين قارَنهما بجمجمة الرجل المجهول أنهما تتوافقان مع مجموعتين من الأسنان الطبيعية

المُتبقية. وعلاوةً على ذلك، يبدو أن الأسنان الصناعية التي وُجِدت في الرماد تنتمي كلُّها إلى طقمٍ سُفلي. ومن الصعب للغاية تفسير وجود هذا الطقم على هذه المسافة البعيدة من مسرح وفاة الرجل.»

وحين أنهى ثورندايك قراءة الفقرة، نظر إليَّ كأنه يدعوني إلى إبداء أي تعليق.

فقلت: «هذا أمرٌ لافتٌ وغامض جدًّا، وهو يُذكِّرني بالطبع بالحالة الافتراضية التي اقترحتَها بالأمس. إذا كانت هذه الحالة مُمكنة آنذاك، فقد صارت الآن مُرجَّحة. إنها تتلاءم تمامًا مع هذه الحقائق الجديدة، ولا أعني هنا وجود الكثير من الوسائل لتحديد هويته فقط، بل حتى طقم الأسنان ذلك؛ فربما تجرَّع السُّمَّ بينما كان يدنو من الكومة، وكان السم لاذعًا أو مُهيِّجًا؛ مما جعله يسعل أو يتقيَّأ. وأنا لا أستطيع تصوُّر أي تفسير منطقي آخر.»

فقال ثورندايك: «توجد احتمالاتٌ أخرى، لكن الانتحار الاحتيالي هو الفرضية الأرجح بالتأكيد بناءً على الحقائق المعروفة، غير أننا سنرى بأنفسنا؛ فسوف تتضح هُوية صاحب الجثة قريبًا مِثلما تقول.»

والواقع أنها قد اتَّضحت في غضون ذلك اليوم نفسه. ظللت أنا وثورندايك مُنهمكين حتى المساء في إنجاز أشغالنا في المحاكم وأماكن أخرى، ولم يكُن لدينا وقتٌ للتفكير إطلاقًا في تلك القضية الغريبة، غير أننا في طريق عودتنا إلى المكتب صادَفنا السيد ستوكر الذي يعمل في شركة «جريفين لايف» للتأمين، وهو يمشي جيئةً وذهابًا في شارع «كينجز بنش ووك» بالقرب من مدخل مكتبنا.

صاح وهو يمشي بخُطًى واسعة نحونا ليُقابلنا بالقرب من بوَّابة مبنى «ميتر كورت»: «ها! قد جئتما! أنتما مَن كنت أرغب في لقائه بالتحديد. لديَّ مسألةٌ بسيطة أودُّ استشارتكما بشأنها. لن آخذَ من وقتكما كثيرًا.»

فقال له ثورندايك: «لا بأس إن أخذت؛ فقد أنهينا أشغال اليوم المُعتادة، وصار وقتُنا مِلكنا الآن.» ثم سار بنا إلى مكتبنا، حيث أشعل نيران المدفأة، وقرَّب إليها ثلاثة كراسي ذات أذرُع.

وتحدَّث قائلًا: «والآن يا سيد ستوكر، فلتستدفئ وتُخبرنا بمشكلاتك.»

مدَّ السيد ستوكر يديه ناحية نيران المدفأة، واستهلَّ كلامه بنبرةٍ تأمُّلية، فقال:

«أظنُّ أنني إذا أخبرتكما بالحقائق فسيكون ذلك كافيًا، وربما تعرفان معظمها بالفعل. أسمعتما عن الرجل الذي عُثِر على رُفاته في رماد كومة محترقة من التبن؟ حسنًا،

لقد اتَّضح أنه كان رجلًا يُدعى السيد ريجينالد ريد، وهو سمسار أوراق مالية خارج البورصة، كما أفهم، لكن الأهمَّ لنا أنه كان عميلًا لدينا. لقد أصدرنا بوليصة تأمين على حياته بمبلغٍ قدرُه ثلاثة آلاف جنيه. ظننت أنني تذكَّرت الاسم حين رأيته في الصحيفة عصر اليوم؛ لذا بحثت عنه في ملفَّاتنا، وتيقَّنت من أنه هو.»

فسأله ثورندايك: «متى أُصدرَت البوليصة؟»

صاح ستوكر قائلًا: «آه! هذا هو مثار سخطنا في القضية. لقد أُصدرَت البوليصة قبل أقل من عام، وهو لم يدفع لنا سوى قسطٍ واحد؛ لذا فسوف نخسر الآلاف الثلاثة بأكملها تقريبًا على الأرجح. صحيحٌ أن المرء عليه أن يأكل الشحم مع اللحم، لكننا لا نرغب في أن نتناول كُتلًا هائلة منه كهذه.»

اتفق معه ثورندايك قائلًا: «هذا مؤكَّد بالطبع، لكنك جئت الآن لتستشيرني؛ فما موضوع الاستشارة؟»

أجاب ستوكر قائلًا: «حسنًا، سأُخبرك بالمسألة: ألا يوجد شيءٌ مُريب على نحوٍ واضح في هذه القضية؟ أهذه الملابَسات طبيعية؟ فعلى سبيل المثال، كيف يُمكن بحق الجحيم أن يذهب رجلٌ محترم من سكان المدينة ليُدخِّن غليونه في مرجٍ مهجور في الساعة الثانية صباحًا تقريبًا؟»

فقال ثورندايك: «أُوافق على أن الملابَسات غير طبيعية تمامًا، غير أنه ما من شكٍّ في أن الرجل قد مات، بل شَبِع موتًا، إن جاز لي استخدام هذا التعبير. فما النقطة التي تودُّ طرحها؟»

أجاب ستوكر: «أنا لا أطرح أيَّ نقاط، بل نُريدك أن تحضر التحقيق وتُتابع القضية من أجلنا؛ فالانتحار مُستبعَد بوضوح في بوليصاتنا بالطبع، كما تعلم، وإذا اتَّضح أن هذه حالة انتحار ...»

سأله ثورندايك: «وما الذي يُوحي بأنها حالة انتحار؟»

أجاب ستوكر على السؤال بمثله: «وما الذي يُوحي بأنها ليست كذلك؟»

ردَّ ثورندايك: «لا شيء، لكن الدفع السَّلبي لن يُفيدكم؛ فسوف يتوجَّب عليكم تقديم دليل إيجابي قاطع على الانتحار، وإلا فستدفعون قيمة التأمين.»

قال ستوكر: «نعم، أعرف ذلك، ولا أقصد ... غير أنه ما من جدوى في مناقشة الأمر الآن ونحن لا نعرف سوى القليل جدًّا من المعلومات. سأترك القضية بين يديك؛ فهل تستطيع حضور التحقيق؟»

أجاب ثورندايك: «سأتكفَّل بذلك.»

قال ستوكر وهو ينهض ويرتدي قفَّازَيه: «حسنًا، سنترك الأمر على هذه الحال إذن، وما كان لنا أن نتركه على حالٍ أفضل من هذه.»

وحين رحل ضيفنا، قلت لثورندايك: «يبدو أن ستوكر يتصوَّر الفكرة نفسها التي خطرت ببال زميلي الأكبر العلَّامة: الانتحار الاحتيالي.»

ردَّ قائلًا: «لا عَجَب في ذلك؛ فستوكر رجلٌ محنَّك، ويُدرك أنه حين يقع حادثٌ غير طبيعي ينبغي أن نبحث عن تفسيرٍ غير طبيعي. كان الانتحار الاحتيالي احتمالًا تخمينيًّا بالأمس. أما اليوم، فقد أصبح هو النظرية الأرجح في ضوء الحقائق الجديدة، لكن الاحتمالات المُرجَّحة وحدها لن تنفع ستوكر. وإذا لم يُقدَّم دليلٌ مباشر على الانتحار — ومن المستبعَد أن يُقدَّم أيُّ دليل — فسيصدر الحكم بالقتل غير المتعمَّد، وستضطرُّ شركة «جريفين» إلى دفع قيمة التأمين.»

«أظنُّ أنك لن تفعل أيَّ شيء حتى تسمع ما سيحدث في التحقيق، أليس كذلك؟»

أجاب قائلًا: «بلى؛ أرى أننا ينبغي أن نذهب ونتفحَّص المنطقة فقط؛ ففي الوقت الحالي نعرف الحقائق من طرَفٍ ثالث، ولا نعلم ما الذي يمكن أن يكون قد تجاهله. ولأن يومَ غد شِبه خالٍ من المشاغل، فأقترح أن نبدأ مبكرًا ونرى مسرح الحادث بأنفسنا.»

«هل لديك نقطةٌ معيَّنة تريد توضيحها؟»

«كلا، لا يخطر ببالي شيءٌ محدَّد؛ فالملابَسات تتماشى إما مع حادث أو انتحار أو قتل، وإن كانت تميل ميلًا لا ريب فيه إلى الانتحار، غير أن ذهني الآن منفتح تمامًا على كل الاحتمالات. والحق أنني ذاهب إلى دارتفورد على أمل الإمساك بطرف خيط يقود إلى اتجاهٍ محدَّد.»

وحين ترجَّلنا من القطار في محطة «دارتفورد» في صباح اليوم التالي، نظر ثورندايك في اتجاهَي الرصيف نظراتٍ استطلاعيةً حتى لمح مُفتِّشًا، ثم اقترب من ذلك المسئول، وسأله أن يصف له طريقًا إلى مكان الكومة المحترقة.

ألقى المسئول نظرةً خاطفة على حقيبة استقصاءات ثورندايك المغطَّاة بقماش القنب، وعلى منظاري والكاميرا الخاصة بي، وأجاب بابتسامة: «لستَ أوَّل من يسأل هذا السؤال، بل سبقك الكثيرون؛ إذ جاء موكبٌ نظامي من الصحفيِّين صباح اليوم وسألوا هذا السؤال أيضًا. يبعد المكان عن هنا مسافة ميل تقريبًا. ستسلك الممشى إلى شارع «جويس جرين»، وتنعطف ناحية الجدول المائي المُقابل لمزرعة «تيمبل».» وأضاف حين أخرج ثورندايك

خريطته الطبوغرافية الرسمية التفصيلية التي يبلغ مقياسها بوصةً واحدة لكل ميل وقلمًا رصاصيًّا: «هذا هو المكان الذي توجد فيه الكومة تقريبًا، على بُعدِ بضع ياردات من ذلك المصرف المائي.»

انطلقنا من المحطة بهذا الوصف والخريطة المفتوحة، وسرعان ما صارت البلدة خلفَنا بعد أن مضينا في طريقنا على الممشى المهجور. وحين عبرنا المَرقى الثاني في السياج الخشبي للممشى، حيث يلتقي الممشى بالطريق مرةً أخرى، توقَّف ثورندايك بُرهةً ليستطلع الأفُق.

علَّق قائلًا: «كان سؤال ستوكر منطقيًّا؛ فهذا الطريق لا يؤدي إلى أي مكان سوى النهر، وهنا يتساءل المرء حقًّا عمَّا كان من الممكن لرجلٍ من المدينة أن يفعله عند هذه المستنقعات في الساعات الأولى من الصباح. أظنُّ أن ذلك سيكون مكاننا المنشود، حيث ترى أولئك الرجال يعملون عند كوخ الراعي، أو أيًّا كان هذا الشيء.»

انطلقنا عبر المُروج المستوية التي ظهرت من خلالها أشرعةٌ حمراء لصندلين أحمرين يزحفان في الجدول المائي غير المرئي، وبينما كنا نقترب من المكان المستهدَف بدأ يتَّضح تدريجيًّا أن ما كنا نعتقد أنه كوخُ راعٍ هو شاحنة تضمُّ مكتبَ متعهِّد، ورأينا الرجال يعملون بمجارف وغرابيل على رماد الكومة. كان المُشرف على العمل مُفتِّشًا شرطيًّا، وحين اقتربنا منه بادَرَنا بسؤالٍ مهذَّب عن سبب مجيئنا.

فقدَّم ثورندايك بطاقته، وأوضح أنه يُتابع القضية من أجل شركة «جريفين» للتأمين، ثم أضاف: «أفترضُ أنِّي سأحصل على التسهيلات اللازمة، أليس كذلك؟»

أجاب الضابط مُلقيًا نظرةً خاطفة على زميلي بمزيجٍ غريب من الاحترام والشك: «بالتأكيد، وإذا كنت تستطيع اكتشاف أي شيء قد أغفلناه، فيا ألف مَرحب بك. كل ذلك من أجل المصلحة العامة. هل تودُّ رؤية شيء مُعيَّن؟»

«أودُّ رؤية كل ما انتُشل حتى الآن. أظنُّ أن رفات الجثة قد نُقِل، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي. لقد نُقِل إلى المشرحة، لكن الأغراض كلها موجودة هنا.»

سار بنا إلى مكتبه — الذي كان كوخًا خشبيًّا على عَجلاتٍ مُنخفضة — وبعدما فتح الباب الموصَد دعانا إلى الدخول، ثم قال وهو يشير إلى منضدةٍ مغطَّاة بورقةٍ بيضاء كانت الأغراض المختلفة مرصوصةً عليها بنظام: «ها هي الأشياء التي انتشلناها، وأظنُّ أنها كل ما كان موجودًا في الرماد؛ لأننا لم نستخرج أيَّ شيء جديد طوال الساعة الماضية تقريبًا.»

تفحَّص ثورندايك مجموعة الأغراض بعناية؛ إذ أمسك كلًّا منها وفحصها بالترتيب. بدأ بالغليونين الفخاريين، واللذين تحمل فوَّهةُ كلٍّ منهما الحرفين الأوليين: «آر آر» وقد نُقِشا عليها بأناقة، ثم فحص التميمة الصغيرة المُضحِكة، التي بدت مُتنافرةً تمامًا مع مُحيطها القاتم والظروف المأساوية، ثم فحص المفاتيح المشوَّهة، ثم حلقات السلسلة البلاتينية التي كان العديد منها يحمل لطخاتٍ ذهبيةً عديمة الشكل مُلتصقةً بها، ثم الختم البلَّوري. وأخيرًا جاء دور الأسنان الصناعية وقد جمعها ورتَّبها وفق ما بدا له أنه ترتيبها الصحيح، وقارَنها بطقم الأسنان.

قال وهو يُمسِك بالطقم بين أصابعه: «نظرًا إلى أن الجثة ليست هنا، فأظنُّ أنني أودُّ تدبير وسيلة لمقارنة هذه الأسنان بالجمجمة، وأفترض أنك لن تعترض على هذا، أليس كذلك؟»

فسأله المفتش: «ما الذي تريد فعله؟»

«أودُّ أن أصوغ نسخةً مُقَولَبة من طقم الأسنان، وآخذَ بصمةً شمعية للأسنان المخلوعة، وذلك دون أن تتضرَّر الأسنان الأصلية بالطبع.»

تردَّد المفتش، وبدا أن ميله الطبيعي ونزعته الرسمية إلى رفض الإذن يتصارعان مع رغبة لديه في أن يرى بأمِّ عينَيه الكيفية التي يُطبِّق بها هذا الخبير الشهير أساليبه الغامضة في البحث. وقد انتصرت الرغبة في النهاية، ومُنِح الإذن الرسمي بشرطٍ واحد؛ إذ قال: «أظنُّك لن تُمانع أن أُشاهدك وأنت تفعل ذلك؟»

أجاب ثورندايك: «بالطبع لا، ولماذا قد أمانع؟»

«ظننت أن أساليبك أشبه بأسرار المهنة.»

ضحك ثورندايك بهدوء وهو يفتح حقيبة أدوات الاستقصاء، وقال: «يا عزيزي المفتش، إن مَن لديهم أسرار مهنة هم أولئك الذين يجعلون من عملياتٍ بسيطة يستطيع تلاميذ المدارس أداءها بعد عرضها أمامهم لمرةٍ واحدة لُغزًا شديد الغموض. هذا هو الداعي إلى السِّرية.»

وبينما كان يتكلم ملأ قِدرًا صغيرًا من الألومنيوم بالماء حتى نِصفه تقريبًا، وبعدما رمى فيه قالبين من التركيبة التي يستخدمها أطباء الأسنان في صياغة الأسنان، وضعه فوقَ موقدٍ كحوليٍّ لتسخينه. وفي أثناء تسخين القِدر شحَّم طقم الأسنان والأسنان المخلوعة، وأعدَّ الحوض المطاطي الصغير والأدوات الأخرى لخلط الجص.

أبدى المفتش اهتمامًا بالغًا؛ إذ راح يُتابع هذه الإجراءات بانتباهٍ نَهِم، وشاهَد ثورندايك بتلهُّف وهو يلفُّ التركيبة التي صارت لينة القوام على شكل نقانق صغيرة، ويضغطها بقوة على أسنان الطقم. راح يحدِّق إلى وعاء الجص، وحين خُلِط الجصُّ السائل ووُضِع أولًا على السطح العلوي للطقم ثم على سطحه السُّفلي، لم يكتفِ بمتابعة هذه العملية من كثب فحسب، بل طرح عدة أسئلة وثيقة الصلة بما يجري.

وبينما كان الجصُّ والتركيبة يجفَّان، أعاد ثورندايك فحص المُخلَّفات المُنتشَلة من الرماد؛ فالتقط من بينها عدة واقيات حديدية لمقدمات الأحذية من الأسفل، ووضعها وحدها في كومةٍ صغيرة.

شرع بعد ذلك في بسطِ شريحتين مُسطَّحتين من التركيبة الليِّنة القوام، وضغط على إحداهما الأسنان المخلوعة وفق ما بدا أنه ترتيبها الصحيح، وضغط على الأخرى واقيات مقدِّمات الأحذية من الأسفل، والتي كانت تبلغ من العدد ثمانية، وقد فعل ذلك كله بعد أن غبَّر السطح أولًا بطباشيرٍ فرنسي مسحوق. وبحلول هذا الوقت، كان الجصُّ قد جفَّ إلى الدرجة التي تكفي لفتح القالب وإخراج طقم الأسنان؛ ففعل ذلك ثم طلى أسطح قِطَع الجص بمادةٍ مانعة للتسرُّب، وركَّب أجزاء القالب معًا مرةً أخرى، وربطها بإحكام بواسطة حبل، ثم خلط كميةً جديدة من الجص ملء الوعاء وسكبها في القالب.

وبينما كانت تجفُّ، أعدَّ ثورندايك بمساعدتي قائمةً تفصيليةً دقيقة بالأغراض المُنتشَلة من الرماد، وطرح بضعة أسئلة حصيفة على المفتش، غير أن ذلك الأخير لم يكن يعرف عن القضية سوى أقل القليل؛ إذ كانت مهمَّته تقتصر على فحص الكومة المُحترِقة وإعداد تقرير عنها ليطَّلع عليه قاضي التحقيق في أسباب الوفاة. ومن الواضح أن التحقيق في القضية كان يُدار من المقرِّ الرئيس. ولأن الضابط لم يكن لديه أيُّ معلومات نَجْنيها منه، فقد خرجنا وتفحَّصنا موقع الكومة، غير أننا لم نجد هناك من شيء قد نَجنيه أيضًا؛ إذ كانت الكومة قد نُبِشت آنذاك حتى صار سطح الأرض مكشوفًا من تحتها، ولم يذكُر الرجال الذين كانوا يُغربِلون الرماد أنهم وجدوا أيَّ شيءٍ جديد؛ ومن ثَم فقد عُدنا إلى الكوخ، وكان الجصُّ قد جفَّ آنذاك، فبدأ ثورندايك يفتح القالب بحرصٍ هائل. كانت عملية القولبة ناجحة تمامًا. وإذ استخرج زميلي السبيكة المُقَولبة، والتي كانت نسخةً جصِّية طِبق الأصل من طقم الأسنان، أبدى المفتش إعجابًا بالغًا؛ فصاح قائلًا: «عَجبًا، لولا اللون لما استطاع المرء التمييز بين الاثنين، لكنني لا أزال لا أفهم السبب الذي تريد تلك النسخة من أجله.»

أجاب ثورندايك: «أريد مقارَنتها بالجمجمة إذا وجدتُ متَّسعًا من الوقت لزيارة المشرحة. ولأنني لا أستطيع أخذ الطقم الأصلي معي، فسأحتاج إلى هذه النسخة لإجراء المقارَنة؛ فمن المهم بالطبع أن نتيقَّن من أن هذا هو طقم ريد وليس طقمَ شخصٍ آخر. بالمناسبة، هل يُمكنك أن تُرينا الموضع الذي انتُشل منه هذا الطقم؟»

أجاب المفتش: «نعم، يُمكنكما أن تَريا الموضع من هنا. لقد كان بجوار تلك البوَّابة عند معبر المصرف بالضبط.»

فقال ثورندايك: «شكرًا لك أيها المفتِّش. أظن أننا سنَسير إلى هناك ونُلقي نظرةً على المكان.» ثم لفَّ السبيكة الجصية الجديدة بقُماشةٍ ناعمة، وبعدما أعاد حَزْم حقيبة استقصاءاته، صافَح الضابط واستعدَّ للمغادَرة.

قال لي بينما كنا نسير نحو البوَّابة: «لعلَّك تُلاحِظ يا جِرفيس أن طقم الأسنان هذا قد انتُشل من موضعٍ بعيد عن الكومة؛ أعني أنه كان بعيدًا عن البلدة؛ ومن ثَم فإذا كان هو طقم ريد، فلا شكَّ بأنه قد أسقَطه بينما كان يقترب من الكومة من اتجاه النهر. سيكون من المُفيد أن نُحاول معرفة الوجهة التي أتى منها.»

اتفقت معه قائلًا: «نعم، لكن سقوط الطقم يكتنفه بعض الغموض؛ فمن المؤكَّد أنه سقط حين تجرَّع صاحبه السم، هذا إذا افترضنا أنه سمَّم نفسه بالفعل، لكن المرء كان ليَتوقَّع أنه سينتظر حتى يصل إلى الكومة ليتجرَّع السُّم.»

فقال ثورندايك: «من الأفضل ألا نفترض افتراضاتٍ أكثر من اللازم ونحن لا نعرف سوى أقل القليل من الحقائق، ثم وضع حقيبته بجوار البوَّابة التي كانت تحرس جسرًا يمرُّ عبرَ قناةٍ واسعة، أو مصرف، وفتح خريطته.

وقال: «السؤال هو: هل أتى عبر هذه البوَّابة من الضفَّة الأخرى، أم مرَّ منها من هذه الضفة فحسب؟ فهذا المصرف، كما ترى، ينفتح على الجدول على بُعدِ حواليَ ثلاثة أرباع ميل في ذلك الاتجاه المتجه إلى الأسفل؛ لذا فمن المُرجَّح أنه سار على هذه الضفة من المصرف ومرَّ مِن البوَّابة، إذا كان قد أتى إلى هنا من النهر عبر المُستنقَعات، غير أن الأفضل أن نبحث في كلتا الضفتَين. هيَّا نترك أغراضنا عند البوَّابة ونتفحَّص الأرض على طول بضع مئات من الياردات، على أن يتكفَّل كلٌّ منا بإحدى الضفَّتين. فأيَّ الضفتين ستختار؟»

اخترتُ الضفة القريبة من الجدول، وبعدما وضعت الكاميرا على الأرض بجوار حقيبة أدوات الاستقصاءات، تسلَّقت البوَّابة التي كانت موصَدةً بقفل، وبدأت أسير ببطء على

طول ضفة المصرف، متفحِّصًا الأرض بحثًا عن آثار أقدام تُظهِر بصمة نعل حذاء ذي صفائح واقية. في البداية، لم يكن السطح مُبشِّرًا بإيجاد بصمات/مُواتيًا لحفظِ بصماتٍ من أي نوع؛ إذ كان مُغطًّى بعشبٍ كثيف، مِثله مثل الأرضية المُحيطة بالبوَّابة مباشرةً، غير أنه على بُعدِ حواليَ مائة وخمسين ياردة في الاتجاه المائل إلى الأسفل، وجدت كومةً من الركام الذي تُخلِّفه ديدان الأرض تحمل طبعةَ كعبٍ تظهر بها بصمة صفيحة واقية على شكل كُلية كالتي رأيتُها في الكوخ، وكانت تلك الطبعة مرئيةً بوضوح. فناديتُ ثورندايك، وبعد أن غرزتُ عصاي في الأرض بجوار بصمة الكعب، عُدتُ لأُقابلَه عند البوَّابة.

قال لي حين وصفت له ما وجدته: «هذا مُثير للاهتمام يا جِرفيس. يبدو أنه قد جاء من الجدول إذن، إلا أن تكون هناك بوابةٌ أخرى أبعد في الاتجاه المتجه إلى الأسفل. من الأفضل أن نجعل البصمات التي طبعناها على التركيبة في متناولنا لنُقارنها بها.» فتح حقيبته، وبعدما أخذ منها شريحة التركيبة — التي صارت صلبةً كالعَظم بحلول ذلك الوقت — والتي كان قد طبع عليها بصمات صفائح الحذاء الواقية، وضعها في جيبه الخارجي، ثم أخذنا الحقيبة والكاميرا من الأرض واتجهنا إلى الموضع الذي حدَّدته بعصاي.

قال ثورندايك حين رأى البصمة على الأرض: «حسنًا، إنها ليست حاسمة جدًّا؛ لأن الكثيرين يستخدمون الصفائح الواقية في أحذيتهم، لكنها بصمة قَدَم ريد على الأرجح. لنأمل أن نجد شيئًا أكثر تحديدًا إذا واصلنا السير والبحث.

استكملنا مشينا على بُعدِ بضعِ ياردات بعضنا عن بعض، ورحنا نتفحص الأرض من كثب في أثناء السير. سِرنا رُبع ميل بأكمله دون أن نكتشف أي أثر لبصمة قدم على العشب الكثيف، وفجأةً لاحظنا أمامنا شريطًا ممتدًّا من الطين الأصفر يشغل تجويفًا ضحلًا كان من الواضح أن مياه الجدول قد فاضت وغمرته في أثناء المدِّ الأعلى الأخير. وحين وصلنا إليه وجدنا أن الطين شِبه جاف، لكنه كان ما يزال على قدرٍ كافٍ من الرَّخاوة لتَنطبِع فيه بصمة، وكان السطح مُغطًّى بمتاهةٍ من آثار الأقدام.

توقَّفنا عند حافة تلك الرقعة، وتفحَّصنا ذلك النمط المعقَّد من بصمات الأقدام، وتبيَّن لنا بعد ذلك أن البصمات كلها قد نجمت عن زوجين من الأقدام، إضافةً إلى صفٍّ من آثار سير بعض الأغنام.

فعلَّقت قائلًا: «يبدو أن ذلك يُثير مسألةً جديدة تمامًا.»

اتَّفق معي ثورندايك قائلًا: «هذا صحيح. أظنُّ أننا قد بدأنا الآن نرى نورًا واضحًا يهدينا في هذه القضية. بالرغم من ذلك، فعلينا أن نتبعَه بحذر. ها هنا مجموعتان من بصمات الأقدام؛ إحداهما بصمات أقدام ريد؛ إذ تظهر فيها الصفائح الواقية أسفل النَّعل، أما الأخرى فهي بصمات أقدام رجل سنُسمِّيه «إكس» على سبيل المثال، كان ينتعل حذاءً برقبة أو حذاءً عاديًّا ذا نعلَين وكعبَين مطاطين. من الأفضل أن نبدأ بالتحقُّق من بصمات أقدام ريد.» وهنا أخرج شريحة التركيبة من جيبه، وبعدما انحنى مُحدِّقًا إلى أحد أزواج آثار الأقدام، أضاف قائلًا: «أظنُّ أننا نستطيع افتراض أن هذه هي آثار قدمَي ريد؛ إذ تُوجَد على شريحة التركيبة بصمات لثماني صفائح واقية قد انتُشلت من الكومة، وها نحن نرى على كل بصمة من بصمات هاتَين القدمين أثر أربع صفائح واقية. وفضلًا عن ذلك، فكلُّ بصمةٍ من بصمات الصفائح الواقية على شريحة التركيبة تتطابق مع نظيرتها على آثار القدمين. إذن، فنحن نرى على التركيبة زوجَين من صفائح واقية نصفية، وصفيحتَين واقيتَين طرفيتَين يوضعان عند الحواف، وصفيحتَين واقيتين أشبه بكُليتين، ونرى على كل بصمة قدم زوجًا من صفائح واقية نِصفية على الجزء الخارجي من النعل، وواحدةً على الجزء الداخلي من النعل، وواحدةً أشبه بكُليةٍ على الكعب. وعلاوةً على ذلك، تبدو الصفائح في كلتا الحالتين شِبه جديدة، ولا تظهر عليها أيُّ علامات ملحوظة على تآكلها؛ أي إن التوافق تام.»

فقلت له: «ألا تظنُّ أننا يجب أن نَنسخ نماذج جصِّيةً منها؟»

أجاب قائلًا: «بلى؛ فأيُّ مطرٍ غزير أو مدٍّ عالٍ سيطمسها؟ إذا كنتَ ستُعدُّ النماذج، فسأتكفَّل أنا في غضون ذلك برسمِ مجموعة الآثار كلها بدقة لتوضيح الترتيب الذي طُبعت به على الأرض.»

بدأنا على الفور في أداء مهمتَينا، وبحلول الوقت الذي ملأت فيه أربعةً من أوضح آثار الأقدام بالجص، كان ثورندايك قد أتمَّ الرسم باستخدام مجموعة من أقلام الرصاص الملوَّنة التي أخذها من حقيبة أدوات الاستقصاء. تركنا الجص ليجفَّ، وفي أثناء ذلك، عرض ثورندايك الرسم وشرحه.

«ترى هنا يا جِرفيس أربعة مسارات من آثار الأقدام ومجموعةً من آثار سير الأغنام؛ أولها وَفق الترتيب الزمني هو تلك البصمات التي طبعتها قدما «إكس» مرسومةً باللون الأزرق، وتليها آثار أقدام الأغنام التي داست آثار أقدام «إكس»، ثم أعقبتها بعد ذلك آثار أقدام ريد التي طُبعت وحدها وبعد فترة من الوقت؛ لأنه داس آثار سير الأغنام وآثار

أقدام «إكس». كان كلا الرجلين مُتجهًا إلى النهر، ولدينا هنا آثار أقدام الرجلين في طريق عودتهما. ويبدو أنهما كانا معًا هذه المرة؛ لأن مسارَي أقدامهما مُتوازيان، ولأن بصمات قدمَي كلٍّ منهما لم تطأ بصمات قدمَي الآخر. ومن الواضح أن كلا المسارَين مُتعرجٌ كما لو أن الرجلَين كانا يمشيان مترنحَين، وقد داس كلاهما آثار سير الأغنام والمسارَين السابقين. وبعد ذلك، تظهر هنا آثار أقدام «إكس» متجهًا وحده صوب النهر، وقد وطئ كلَّ آثار المسارات الأخرى، عدا آثار المسار رقم أربعة، والذي يُمثِّل آثار قدمَي «إكس» قادمًا من النهر ومُنعطفًا نحو البوَّابة التي تنفتح على الطريق؛ ومن ثَم فتسلسلُ الأحداث واضحٌ للغاية.

في البداية، أتى «إكس» إلى هنا وحده مُتجهًا صوب وجهة لم نكتشفها حتى الآن. وبعد ذلك بفترةٍ زمنية لا نستطيع تحديد مقدارها بالضبط، جاء ريد وحده، ويبدو أن الرجلَين التقيا وعادا معًا لاحقًا وهما ثِملان على ما يبدو، وقد كان ذلك آخر ما نراه من آثار أقدام ريد. بعد ذلك سار «إكس» عائدًا نحو النهر بخُطًى متزنة تمامًا كما تُلاحظ. وقد عاد لاحقًا، لكنه في هذه المرة، ولسببٍ ما — ربما ليتجنَّب الوجود في محيط الكومة — عبر المصرف من عند هذه البوَّابة ليصل إلى الطريق حسب ما يبدو، مع أن الطريق هو المسار الأطول بكثير إلى البلدة كما ترى في الخريطة. والآن من الأفضل أن نُواصِل البحث ونُحاول اكتشاف المُلتقى الذي ذهب إليه هذان الرجلان وجاءا منه.»

ولأن الجصَّ كان قد جفَّ تمامًا آنذاك، التقطت النماذج المُقَولَبة، وحين وضعتها بعناية في الحقيبة استكملنا سيرنا نحو النهر. كنت قد لاحظتُ أمامنا صاريًا ما بدا أشبه بيختٍ شِراعي سريع صغير يقف على المستنقَعات بالقرب منَّا، وحينها لفتُّ انتباه ثورندايك إليه، لكنه كان قد لاحَظه بالفعل واستنتج، مِثلي، أنه هو نقطة اللقاء بين الرجلَين على الأرجح. وفي غضون بضع لحظات، صار الاحتمال المُرجَّح حقيقةً لا ريب فيها؛ ذلك أن أحد المُنعطَفات في مسار الجدول قد أظهر لنا أن الزورق الصغير، والذي كان مكتوبًا على مقدمته اسم «مونبيم» بطلاءٍ حديث، مُثبَّت بإحكام بجوارِ رصيفٍ خشبي صغير، وحين وصلنا إليه رأينا الأرض الجرداء المقابلة للمَعبر المؤدي من الرصيف إلى الزورق مُغطاةً بآثار أقدام كلا الرجلَين.

فقلت: «أتساءل مَن منهم كان صاحب اليخت يا تُرى.»

فقال ثورندايك: «أعتقد أنه من الواضح جدًّا أن «إكس» هو صاحب اليخت، لو سلَّمنا بأنه مِلكُ أيٍّ منهما. لقد جاء إلى اليخت وحده، وكان ينتعل حذاءً ذا نعلٍ مطاطي كالذي

يُفضِّله أصحاب اليخوت، أما ريد فقد جاء إلى اليخت عندما كان الرجل الآخر موجودًا فيه بالفعل، وكان ينتعل حذاءً ذا صفائح حديدية واقية أسفل نعله، وهذا ما لن يفعله أيُّ صاحبِ يختٍ إذا كان يحمل أقل قدر من المُراعاة لألواح سطح اليخت الخشبية، لكن ربما كانت بينهما مصلحةٌ مشتركة؛ إذ تُشير الشواهد الظاهرية إلى أنهما كانا يَطليان الأجزاء الخشبية حين كانا هنا معًا؛ فبعض الطلاء حديثٌ، والبعض الآخر قديم ورثٌّ.» حدَّق إلى اليخت بعض الوقت بنظراتٍ تأمُّلية، وقال: «سيكون مِن الشائق — وربما مِن المُفيد أيضًا — أن نُلقي نظرةً عليه من الداخل.»

فقلت له: «بل سيكون تعدِّيًا صارخًا على أقل تقدير.»

ردَّ قائلًا: «بل سيكون أسوأ من مجرَّد تعدٍّ إذا كان هذا القفل موصدًا، لكننا في غِنًى عن النظر إلى الموقف القانوني من منظورٍ ضيق؛ فصديقي العلَّامة لديه مِنظارٌ صالحٌ للاستخدام، ويملك بين يديه زمام رؤية بلا عوائق على مدى ميل تقريبًا، وإذا ظلَّ يُراقب المكان من حولنا بيقظةٍ ريثما أتفحَّص اليخت، فلن يكون لمخالَفةٍ تافهة للقانون أي عواقب على الإطلاق.» وبينما كان يتكلَّم تحسَّس جيبه من الداخل، وأخرج الأداة التي صنعها مُساعدُنا المختبري، بولتون، من بضع قِطع من سلكٍ فولاذي صلب، والتي كانت تُعرَف على سبيل التلطيف باسم رفيق المُدخِّن. نزل بعد ذلك على سطح اليخت وهو يُمسك بهذه الأداة في يده، وبعدما ألقى حوله نظرةً سريعة، حاول فتح القفل بيده، وحين وجده موصدًا حاوَل فتحه برفيق المُدخِّن، ففُتِح في غضون بضع ثوانٍ، وحينئذٍ دفع باب حجيرة اليخت المُنزلق إلى الوراء، ونزل إليها.

لم تستغرق مهمَّته الاستكشافية وقتًا طويلًا؛ فقد ظهر مجددًا في غضون بضع دقائق، وصعد السُّلم القصير المؤدِّي إلى الرصيف الخشبي. قال يحكي ما رآه: «لا يوجد الكثير من الأشياء، لكنَّ ما هنالك يُوحي إيحاءً شديدًا باستنتاجٍ معيَّن. وإذا نزلتَ وألقيت نظرةً بنفسك، فأظنُّك لن تجد صعوبةً في تكوين تصوُّر منطقي عن الأحداث الأخيرة وإعادة بنائها في مُخيِّلتك. من الأفضل أن تأخذ الكاميرا معك؛ إذ يوجد ضوءٌ كافٍ لتعريض الفيلم الفوتوغرافي له والتقاط بعض الصور.»

أعطيته المنظار، وهبطت على سطح اليخت، ونزلت عبر الباب المفتوح إلى الحجيرة التي بدت أشبه بكهفٍ صغيرٍ شديد الغرابة. لم يكن ارتفاعها من الأرضية إلى السقف ليزيد عن أربع أقدام، وكانت مفتوحةً على حجيرة الزورق السفلية الأمامية، ومُضاءةً بكوَّةٍ ضيقة ونافذتين دائريتين صغيرتين. أما المَضجعان، فكان من الواضح أن أحدهما

يُستخدَم مقعدًا، بينما بدا أن الآخر يُستخدَم للنوم، مثلما بدا من الوسادة المُنبعجة وأغطية الفِراش المُتدلية إلى الأرض، والتي تُركت على حالها تمامًا كما كانت حين نهض النائم من أسفلها مُتثاقلًا. أما الجزء الداخلي من الزورق، فقد كان غارقًا بأكمله في حالةٍ من الفوضى القذرة؛ إذ كانت دلاء الطلاء والفُرَش غير المغسولة مُلقاةً على الأرض، إلى جانب زجاجتين من الويسكي — إحداهما فارغة والأخرى نِصف مُمتلئة — وقدحَين، وزجاجتَين فارغتَين من زجاجات حفظ الصودا، ومجموعةٍ من أوراق اللعب المبعثَرة في كل الجهات كان من الواضح أنها مأخوذةٌ من حزمتَين. ومِثلما قال ثورندايك، كان من السَّهل تخيُّل تفاصيل مشهد الانغماس الدنيء في الملذَّات، والذي لا بد أنه قد عُرِض في تلك الليلة المُروِّعة التي كشف رماد الكومة سِرَّها الفظيع على ضوء الشمعتَين الغارزتين في بِركتين من شحومهما المتجمِّدة، غير أنني لم أرَ شيئًا يُمكنني من معرفة اسم الرفيق الغامض الذي كان مع الرجل الميت.

وحين أتممت الفحص والتقطت صورةً للجزء الداخلي، انضممت مجدَّدًا إلى ثورندايك الذي نزل على متن اليخت بعد ذلك وأعاد وضع القفل على الباب المُغلَق، ثم أوصده مرةً أخرى برفيق المُدخِّن الذي لا يُقدَّر بثمن.

قال ثورندايك حين ولَّينا وجهينا شَطْر البلدة: «حسنًا، يبدو يا جِرفيس أننا قد أنجزنا مهمتنا فيما يتعلق بستوكر. صحيحٌ أنه ما يزال الاحتمال قائمًا بأن تكون الحادثة حالة انتحار، لكنَّ ذلك الاحتمال لم يعُد مُرجَّحًا؛ إذ تُشير جميع الشواهد الظاهرية إلى أنها جريمة قتل، وأظنُّ أن صديقي العلَّامة يتَّفق معي في ذلك.»

رددت قائلًا: «بكلِّ تأكيد، وأنا أعتقد أيضًا بوجود دلالة قوية على سبقِ الإصرار والترصُّد؛ فأنا أظنُّ أن «إكس»، صاحب اليخت، قد استدرج ريد إلى هنا بحجة الإعداد لرحلةٍ بحرية على سبيل المثال؛ إذ عمل الرجلان في إعادة الطلاء طوال النهار، ثم قضيا المساء في شرب الويسكي ولعب القمار. ومن الواضح أنهما قد قامَرا على رهاناتٍ طائلة، مِثلما يبدو من حقيقة استخدامهما عدة رُزَم من أوراق اللعب. وأظنُّ أن ريد صار ثمِلًا بعد ذلك، فعرض عليه «إكس» أن يُوصله بالسلامة إلى المستنقَعات. ومن الواضح أن «إكس» لم يكن ثملًا؛ فبالرغم من أن آثار أقدام الرجلين تُوحي بمشيةٍ مترنِّحة حين كانا يسيران معًا، نجد أن آثار قدمَي «إكس» في طريق العودة إلى اليخت مُتزنة للغاية، وتتَّجه صوب وجهتها مباشرةً، وأعتقد أن القتل الفِعلي قد وقع بعدما عبَرا البوَّابة مباشرةً، وأن طقم أسنان ريد الصناعية قد سقط حين كانت جثته تُجَرُّ إلى الكومة، وأن «إكس» لم

يُلاحظ ذلك بسبب الظلام. بعد ذلك، جرَّ «إكس» الجثَّة إلى أعلى السُّلَّم، ووضعها في وسط الكومة من الأعلى، وأضرَم النيران في الكومة — من الجانب المحجوب عن الرياح على الأرجح — وعاد إلى اليخت في الحال؛ حيث قضى الليلة هناك، ورجع إلى البلدة في الصباح من ذلك الطريق؛ ليتجنَّب الوجود في محيط الكومة. هذا تفسيري للقرائن التي رأيناها.»

قال ثورندايك: «نعم، يبدو أن هذا هو التفسير الصحيح للحقائق، وكلُّ ما يتبقَّى الآن أن نعرف اسم «إكس» الغامض، وأظنُّ أن ذلك لن يُشكِّل أي صعوبات.»

فسألته: «هل تقترح فحص الرفات الموجود في المشرحة؟»

فأجاب قائلًا: «لا. صحيحٌ أن ذلك سيكون مُثيرًا للاهتمام، لكنه ليس ضروريًّا؛ إذ تتوافر لدينا كلُّ البيانات المُتاحة لتحديد هوية ذلك الرجل، ولم يَعُد ريد هو شُغلنا الشاغل الآن، بل «إكس». من الأفضل أن نعود إلى لندن.»

وعند وصولنا إلى المحطة، وجدنا أمين كُشك الكتب يلصق لافتةً مُقتبَسة من الصحيفة المسائية تحمل ذلك العنوان: «مأساة الكومة، تطورٌ مُثير.»

حصل كلٌّ منَّا على نسخةٍ فورًا، ثم جلسنا على أحد المقاعد وبدأنا نقرأ الخبر الذي كان يتضمَّن مسافاتٍ رأسيةً طويلة بين الأسطر.

وقد جاء في الخبر: «أفضت بعض التحرِّيات الجديدة التي أجرتها الشرطة إلى اكتشاف جانب جديد صاعق في مأساة الكومة؛ إذ يبدو أن الرجل الميت، ريد، كان شريكًا في شركة «ريد وجارمان»، المتخصِّصة في السمسرة الخارجية، وتبيَّن الآن أن شريكه، وولتر جارمان، مفقودٌ أيضًا. لم يذهب أيُّ شخصٍ إلى مكتب الشركة في الأسبوع الجاري، لكن أمين المكتب قد ذكر أنه رأى السيد جارمان يدخل المكتب بمفتاحه الخاص في حوالَي الساعة الثامنة من مساء يوم الإثنين (يُذكَر أن الكومة قد شُوهدت وهي تحترق لأول مرة في الساعة الثانية من صباح يوم الإثنين). ويبدو أن ثلاثة شيكات، مستحَقَّة الدفع للشركة ومُصدَّق عليها بتوقيع جارمان، أُودِعت في بنك «باتمور» عبر البريد ضِمن الدفعة الأولى من المُرسَلات البريدية في صباح الثلاثاء، وأن جارمان قد اشترى، في صباح الثلاثاء أيضًا، صُرةً من الألماس تتجاوز قيمتها ألف جنيه بقليل. وكان قد ابتاعها من تاجر ألماس في شارع «هاتون جاردن» وافَق على أخذ شيك بثمن الألماس بعدما اتصل هاتفيًّا بالبنك. ويبدو أيضًا أن ريد وجارمان قد زارا البنك معًا في صباح يوم السبت السابق، وسحَبا رصيدهما كله تقريبًا بالنقد، ولم يتركا فيه سوى اثنين وثلاثين جنيهًا فقط. وسُدِّدت

قيمة شيك تاجر الألماس من الشيكات التي كانت قد أُودِعت في البنك للتَّو. من السابق للأوان الإدلاء بأي تعليقات الآن، لكننا نتوقَّع أن يُكشَف عن بعض المعلومات الغريبة في التحقيق المقرَّر عقدُه في «دارتفورد» بعد غد.»

قلت لثورندايك: «أظنُّ أن هوية «إكس» لم تعُد لغزًا؛ إذ يبدو أن هذين الرجلين اتَّفقا على تحويل أصولهما إلى نقود والهرب بها، ثم أمضَيا تلك الليلة في لعب القمار على غنيمتها، ومن الغريب أن ريد كان هو الفائز على ما يبدو، وإلا لما احتاج الآخر إلى قتله.»

اتَّفق معي ثورندايك قائلًا: «يبدو ذلك صحيحًا، بافتراض أن «إكس» هو جارمان، وهذا احتمال مُرجَّح لكنه ليس بالأكيد. ومع ذلك، يجب ألا نتخطَّى الحقائق المتوفِّرة لدينا، وألا نبني نظرياتٍ بناءً على أخبار الصُّحف. أعتقد أنه من الأفضل أن نُجري زيارةً سريعة إلى «سكوتلانديارد» في طريقنا إلى مكتبنا، ونتيقَّن من صحَّة هذه التفاصيل.»

ظللنا مُنشغلين بالخبر وتعليقاتنا الشخصية عليه طوال رحلتنا إلى لندن، غير أن نقاشنا لم يُسفِر عن مزيدٍ من الاستنتاجات. وحالَما وصلنا إلى محطة «تشارينج كروس»، قفز ثورندايك من القطار، وبعدما خرج من المحطة سار مُسرعًا صوب شارع «وايتهول».

ومن حُسنِ حظِّنا أن زيارتنا قد جاءت في التوقيت المُناسب؛ فبينما كنا نقترب من مدخل المقرِّ الرئيسي، خرج منه صديقنا القديم، المُشرِف ميلر، ثم ابتسم حين رآنا، وتوقَّف قائلًا في استفسارٍ مُقتضَب:

«قضية الكومة؟»

فأجاب ثورندايك: «نعم. جئنا للتيقُّن من صحة التفاصيل الواردة في الصحيفة المسائية. هل اطَّلعت على الخبر؟»

«نعم، وبإمكانك أن تعتبره صحيحًا. أتريد شيئًا آخر؟»

«كنت أودُّ تفحُّص سلسلة من الشيكات التي كتبتها الشركة لبعض الأفراد. أظنُّ أن الشيكَين الأخيرين غير مُتاحَين للاطِّلاع عليهما، أليسا كذلك؟»

«بلى. إنهما في البنك، ولا يحقُّ لنا تفحُّصهما دون إذن من المحكمة. أما بخصوص الشيكات الأخرى، فأظنُّ أنك تستطيع تفحُّصها إذا كانت في مكتب الشركة. سآتي معك الآن إذا أردتَ، وأُلقي نظرةً بنفسي؛ فالمكتب الآن في حوزة رجالنا.»

وافَقنا على عرض المُشرف فورًا، ومضينا معه عبر قطار الأنفاق إلى محطة «مانشون هاوس»، ثم انطلقنا من هناك إلى شارع «كوين فكتوريا»؛ حيث يقع مكتبا ريد وجارمان.

كان المسئول عن المكتب آنذاك ضابطًا برتبة رقيب، وقد خصَّه المفتش بالكلام دون بقية الشرطيين قائلًا:

«هل وجدتم أيَّ شيكاتٍ مرتجعة؟»

فأجاب الرقيب قائلًا: «نعم يا سيدي، وجدنا العديد منها، وقد تفحَّصناها كلها.»

وبينما كان يتكلَّم أخرج من جيبه عدة رُزَم من الشيكات، ووضعها على مكتبٍ كانت أدراجه كلها مفتوحة.

قال ميلر: «حسنًا، ها هي أيها الطبيب. لا أعلم ما الذي تُريد اكتشافه، لكني أظنُّ أنك تعلم.» وضع كرسيًّا بجوار المكتب، وبينما قعد ثورندايك وبدأ في تقليب الشيكات، ظلَّ يُشاهده بفضولٍ قد كبته الأدب.

قال ثورندايك: «يبدو أن هذين الرجلين قد خلطا بين شئونهما الخاصة والحساب البنكي للعمل؛ فهنا، على سبيل المثال، شيكٌ كتبه ريد لشركة «بيكاردي واين» للنَّبيذ، لكن تلك الشركة لا يُمكن أن تكون من عملاء شركته. ولا شكَّ أن هذا الشِّيك الذي كتبه جارمان لسكرتير «دار سانت جون للتمريض» شيكٌ خاص، وأرى أن ذلك ينطبق أيضًا على هذين الشيكَين المكتوبَين للسيد إف. والر، الحاصل على زمالة كلية الجرَّاحين المَلَكية، والسيد أندرو دارتون، الحاصل على درجة الليسانس في جراحة الأسنان؛ فهُما مكتوبان لرجُلين احترافيَّين، وكلاهما — مثل شيك دار التمريض — يحمل مبلغًا صحيحًا من الجنيهات بلا كسور، في حين أن الشيكات المتعلِّقة بالعمل تحمل مبالغ تتضمَّن كسورًا من الجنيهات والشلنات والبنسات.»

قال ميلر: «أعتقد أنك مُحقٌّ يا سيدي. يبدو أن العمل هنا كان يَجري بعشوائيةٍ شديدة. فلتنظر فقط إلى هذه التوقيعات! لا يتشابه أيٌّ منها مع الآخر أبدًا. والبنوك تكره ذلك بالطبع؛ فحين يُوقِّع العميل في دفتر التوقيع، فإنه بذلك يُعطي البنك عيِّنةً مرجعية لتوقيعه، وعليه أن يلتزم بها التزامًا تامًّا؛ ومن ثَم فأيُّ رجلٍ يُغيِّر توقيعه سيُسبِّب مشكلاتٍ على الأرجح.»

اتَّفق ثورندايك مع ذلك بينما كان ينسخ بعض تفاصيل الشيكات في دفتر ملاحظاته بسرعة، قائلًا: «إنه كذلك بالفعل، لا سيَّما في حالة وجود شركة لديها فريقٌ من الموظَّفين المتخصِّصين في السجلات والحسابات والأعمال الكتابية.»

وقف ووضع دفتر ملاحظاته في جيبه، ثم مد يدَه قائلًا:

«أنا في غاية الامتنان لك أيها المشرف.»

فسأله ميلر: «هل رأيتَ كلَّ ما أردتَ رؤيته؟»

فأجاب ثورندايك: «أجل، شكرًا لك.»

فقال له ميلر: «أشعر برغبةٍ شديدة في معرفة ما رأيتَه.» وهنا ردَّ زميلي عليه بإشارة من يده نحو الشيكات بينما كان يستدير ليرحل.

قلت لزميلي لاحقًا بينما كنا نسير عائدين إلى مكتبنا في شارع «تشيبسايد»: «إنني لا أرى العلاقة بين تلك الشيكات وتحقيقنا.»

فأجاب ثورندايك قائلًا: «إنها علاقةٌ غير مباشرة، لكن الشيكات تُساعدنا في فهم طِباع هذين الرجلين وطبيعة العلاقة بين أحدهما الآخر، وهو ما قد يكون ضروريًّا جدًّا عندما يحين وقت التحقيق.»

وفي اليوم التالي، لم أرَ ثورندايك إلا لوقتٍ قصير للغاية؛ ذلك أن رحلتَنا القصيرة إلى «دارتفورد» قد أخَّرتنا عن أداء بعض مهامِّ العمل، وكان علينا أيضًا إخلاء يوم غد من المَشاغل لحضور التحقيق. صحيحٌ أننا التقَينا على العشاء بعد إنجاز عمل اليوم، لكننا لم نتطرَّق إلى أي شيء مُهم بخصوص «قضية الكومة»، باستثناء تحديد برنامج يوم غد.

لم تكن المراحل الأولى من التحقيق تَعنينا كثيرًا، وإن كانت قد خلَبت اهتمام العديد من المشاهدين والصحفيين وأثارتهم بشدَّة؛ فالأقوال التي أدلى بها الشُّرطي الريفي والمُزارع ومفتش الشرطة — الذي أجرى معه ثورندايك محادَثةً سِرية قصيرة بدا أنه قد فاجأته بعض الشيء — لم تكن سوى إسهابٍ في وصف ما كنا نعرفه بالفعل. أما ما كان مُهمًّا لنا فهو شهادة طبيب أسنان محلِّي قد شَهِد بأنه فحص طقم الأسنان الصناعي وقارَنه بجمجمة المتوفَّى؛ فقال: «طقم الأسنان وفك المتوفَّى مُتوافقان تمامًا؛ إذ يحوي الفك خمس أسنان طبيعية متراصَّة في مجموعتين، ويحوي الفك فراغَين متوافقين تمامًا مع مجموعتَي الأسنان. لقد جرَّبت تركيب الطقم على الفك، ولا شكَّ لديَّ في أنه يخصُّ المتوفَّى.»

قال لي ثورندايك بينما أنهى الشاهد شهادته وعاد إلى مقعده: «هذه حقيقةٌ مهمة جدًّا. إنها الحلقة التي لا غِنى عنها في السلسلة.»

قلت له: «لكنها كانت واضحةً بالتأكيد، أليست كذلك؟»

فأجاب قائلًا: «بلا شك، لكنها أصبحت الآن مُثبَتة ومُدرَجة ضِمن الأدلة.»

حيَّرني تعليق ثورندايك بعض الشيء، لكن ظهورَ شاهدٍ جديد منعني من مناقشته في ذلك. كان الشاهد، المدعو بالسيد آرثر جيرارد، رجلًا طويل القامة تُوحي ملامحه بسرعة البديهة، ذا حاجبين كثيفين مُوحِيين بالشر، وشاربٍ صغير داكن، وكان يرتدي نظَّارةً ذات

عدستين ثنائيتَي البؤرة، بينما كان وجهه يحمل شامةً عند رُكنِ فمه قد تركت انطباعًا بوجود ابتسامة دائمة بأحد جانبَي فمه.

قال قاضي التحقيق في أسباب الوفاة مُخاطبًا الشاهد: «لقد حُدِّدت هوية المتوفَّى بناءً على معلوماتك.»

أجاب الشاهد مُتحدِّثًا بلكنةٍ أيرلندية خفيفة لكنها ملحوظة: «نعم. لقد رأيت في الصُّحف وصفَ الأشياء التي عُثِر عليها في الكومة، فعرفت فورًا أنها أشياء ريد. لقد كنت أعرف المتوفَّى معرفةً شخصية عن قُرب، وكثيرًا ما لاحظت سلسلة ساعته المُميَّزة والتميمة الخزفية الصغيرة، ورأيتُه يُدخِّن الغليون الفخَّاري الذي يحمل نقشًا بالحرفين الأوليين من اسمه، وكنت أعرف أنه يُركِّب في فمه طقم أسنان صناعية.»

«هل كنتَ تلتقي به كثيرًا؟»

«آه، نعم. لقد كان شريكي في العمل طوال أكثر من عام، وقد ظللنا صديقين بعدما فضضتُ الشراكة.»

«ولماذا فضضتَ الشراكة؟»

«لقد اضطررتُ إلى ذلك؛ إذ كان ريد شخصًا لا يُطاق في العمل. كان يُجازف بالأموال باستمرار في شراء الأسهم، وكنت أضطرُّ إلى دفع ثمن خسائره. لقد أقرضته من أجل ذلك أكثر من ألف جنيه على مرَّاتٍ مُتفرقة، وقد أعطاني كمبيالاتٍ مقابل هذه القروض، لكنه لم يستطع تسديدها قط، وفي نهاية المطاف، حين فضضنا الشراكة، جعلته يؤمِّن على حياته بثلاثة آلاف جنيه، ويكتب وثيقةً تجعل دَينه الذي يَدين لي به رهنًا من المرتبة الأولى على تركته عند وفاته.»

«هل خطر ببالك أيُّ سببٍ يجعلك تظن أنه كان يُفكِّر في الانتحار؟»

«لا إطلاقًا؛ فبعدما تركني دخل شراكةً مع السيد والتر جارمان، وكان يبدو لي سعيدًا وراضيًا جدًّا متى التقيته، مع أنني استنتجت أنه كان ما يزال يُقامر كثيرًا. رأيته قبل أسبوع من اليوم، وأخبرني آنذاك بأنه يعتزم قضاءَ إجازةٍ قصيرة على متن أحد اليخوت مع شريكه الذي يملك يختًا شراعيًّا صغيرًا، وقد كانت هذه آخر مرة رأيته فيها حيًّا.»

وبينما كان الشاهد على وشك إنهاء الشهادة والعودة إلى مقعده، نهض ثورندايك وسأله بعدما حصل على إذنٍ من قاضي التحقيق باستجوابه: «لقد ذكرتَ يختًا في كلامك، فهل تعرف اسمه ومرساه مؤخرًا؟»

«اسمه «مونبيم»، وأظنُّ أن جارمان يُبقيه راسيًا عند مكانٍ ما في نهر التايمز، لكنني لا أعرف المكان على وجه التحديد.»

«وماذا عن جارمان نفسه؟ ماذا تعرف عنه؛ عن طباعه على سبيل المثال؟»

«لا أعرف عنه سوى القليل جدًّا. لقد بدا لي رجلًا مُنغمسًا في الملذَّات. أظنُّه يُسرِف في شرب الخمر، وأعتقد أنه يُقامر بعض الشيء أيضًا.»

«أتعرف عنه أنه كان مدخنًا شرهًا؟»

«لم يكن يُدخِّن إطلاقًا، لكنه كان يُدمِن النشوق.»

وهنا تدخَّل رئيس هيئة المحلِّفين مُعترضًا؛ فقال بصوتٍ مسموع إنه «لا يرى لذلك صلة بالتحقيق». ونظر قاضي التحقيق إلى ثورندايك بارتياب، غير أن زميلي كان قد قعد آنذاك، فلم يُستكمل الاعتراض.

كان الشاهد التالي هو أمين المبنى الذي يقع فيه مكتب ريد وجارمان، وكان مُفاد شهادته أنه رأى السيد جارمان يدخل المكتب بمفتاحه في حوالَي الساعة الثامنة من مساء يوم الإثنين السابق، وأضاف ردًّا على سؤال قاضي التحقيق: «لا أعرف مقدار الوقت الذي لبثَه هناك؛ إذ كنت قد أنهيت عملي، وكنت صاعدًا إلى غرفتي في أعلى المبنى، ولم أرَه مرةً أخرى.»

فنهض ثورندايك لاستجوابه قائلًا: «هل لاحظتَ أيَّ شيءٍ غير عادي في مظهره؟ هل اعتلى وجهَه أيُّ احمرار على سبيل المثال؟»

«لا أستطيع الجزم بذلك؛ إذ كنت أصعد الدَّرج، ونظرتُ إلى الخلف من فوق كتفي حين سمعتُه. كان وجهه مُعرِضًا عنِّي.»

«لكنك مع ذلك لم تجد صعوبةً في معرفة هويته؟»

«لا، كنت لأعرفه ولو كان على بُعدِ ميل؛ إذ كان يرتدي معطفه، وهو معطفٌ مميَّز جدًّا؛ فهو بُنِّي فاتح مزخرف بنمط من المربعات المخضرَّة. من المُستحيل أن يُخطئَه المرء.»

«كم يبلغ طول السيد جارمان في رأيك؟»

«أظنُّ أنه حوالَي خمس أقدام وتسع بوصات أو عشرًا.»

وهنا تدخَّل رئيس هيئة المحلِّفين معترضًا مرةً أخرى، وسأل بنفاد صبر: «ألا نُضيع الوقت يا سيدي؟ ربما تكون هذه التفاصيل المتعلِّقة بجارمان مهمةً جدًّا للشرطة، لكنها لا تعنينا؛ فنحن نحقِّق في وفاة السيد ريجينالد ريد.»

فنظر قاضي التحقيق باستهجان إلى ثورندايك وقال: «رئيس هيئة المُحلِّفين مُحقٌّ بعض الشيء فيما يقوله.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «أؤكِّد يا سيدي أنه غيرُ مُحقٍّ فيما يقوله على الإطلاق؛ فنحن لا نحقِّق في وفاة ريجينالد ريد، بل في وفاةِ رجلٍ عُثِر على رفاته في كومةٍ محترقة.»

«لكن هُوية الجثة قد حُدِّدت على أنها جثة ريجينالد ريد.»

قال ثورندايك: «إذن، فقد حُدِّدت هويتها تحديدًا خاطئًا. أقترح أن الجثة هي جثَّة وولتر جارمان، وأنا مستعدٌّ لتقديم شهود سيُثْبِتون ذلك.»

فصاح قاضي التحقيق مُتعجبًا: «لكننا قد سمعنا للتَّو شهادةَ شاهدٍ يقول إنه رأى جارمان على قيد الحياة بعد احتراق الكومة بثماني عشرة ساعة.»

فقال ثورندايك: «معذرةً يا سيدي، لكننا سمعنا الشاهد يقول إنه رأى معطف جارمان، وقد ذكر صراحةً أنه لم يرَ وجه الرجل.»

فتشاوَر القاضي على عَجل مع هيئة المحلفين — التي سَخِرت علنًا من اقتراح ثورندايك — ثم قال: «أرى أن ما تقوله لا يُصدَّق إطلاقًا، وكذلك هيئة المحلفين؛ فاقتراحك هذا يتناقض تمامًا مع الحقائق. من الأفضل أن تستدعي شهودك وتدَعنا نحسم أمر هذا الاقتراح الشاذ.»

انحنى ثورندايك أمام القاضي، واستدعى السيد أندرو دارتون، وحينئذٍ تقدَّم رجلٌ في منتصف العمر تبدو في سمته الاحترافية بصورةٍ ملحوظة، وأدَّى اليمين، ثم أدلى بشهادته قائلًا: «أنا جرَّاح أسنان. ومنذ أكثر من عامين بقليل كنت أتولَّى رعاية السيد وولتر جارمان. لقد خلعت بعض الأسنان من كلا الفكَّين، وصنعتُ له طقمين صناعيين؛ واحدًا عُلويًّا وآخر سُفليًّا.»

«هل تستطيع تمييز هذين الطقمين إذا رأيتهما؟»

«نعم؛ فبحوزتي النموذج الجصِّي الذي صنعت هذين الطقمين بناءً عليه.» وهنا فتح كيسًا وأخرج منه نموذجًا جصِّيًّا لفكَّين مزوَّدين بمُفصَّلةٍ نحاسية كي يتسنَّى لهما أن يُفتحا ويُغلقا. كان الفك العلوي يتضمَّن مجموعتين من الأسنان يفصل بينهما فراغٌ من اللِّثة خالٍ من أي أسنان، بينما كان الفك السفلي يحمل مجموعةً واحدة من أربع أسنان.

أوضح الشاهد قائلًا: «هذا النموذج نسخةٌ طِبق الأصل من فكَّي المريض، وقد صغت الطقمين بناءً عليه.» أخذ طقم الأسنان من على المنضدة، ووسطَ سكوتٍ تام من الترقُّب وحبس الأنفاس، فتح نموذج الفم وركَّب الطقم على الفك العُلوي؛ فاتَّضح على الفور أنه يُلائمه تمامًا؛ فقد استقرَّت مجموعتا الأسنان الجصية تمامًا في فراغات الطقم، مُكوِّنةً صفًّا كاملًا من الأسنان، ثم غطَّى الشاهد مواضع الأسنان في اللثة السفلية بشرائط من الشمع البلاستيكي، وبعدما أخذ الأسنان المخلوعة من على المنضدة، لصَقها بتلك الشرائط،

ومرةً أخرى كان التوافق واضحًا؛ وبهذا فقد ملأت الأسنان التي رُكِّبت في نموذج الفم الفراغات تمامًا.

فسأله ثورندايك: «هل تستطيع الآن تمييز هوية ذلك الطقم؟»

أجاب الشاهد قائلًا: «نعم. أنا متيقِّن تمامًا من أن هذا هو الطقم الذي صنعته للسيد جارمان، وأن تلك الأسنان المخلوعة قد خُلِعت من طقمه السفلي.»

نظر ثورندايك إلى قاضي التحقيق، الذي أومأ برأسه إيماءةً تأكيدية، واعترف القاضي قائلًا: «يبدو هذا الدليل قاطعًا تمامًا.» والتفتَ إلى هيئة المحلفين مُضيفًا: «ما قولكم أيها السادة؟»

لم يكن يوجد أيُّ شك في رأيهم؛ إذ أعلنوا جميعًا عن اقتناعهم التام في قولٍ واحد. ألم يروا الإثبات بأمِّ أعيُنهم؟

قال قاضي التحقيق: «والآن يا سيدي، فنظرًا إلى أنك أدرى بهذه القضية من أيِّ شخصٍ آخر على ما يبدو، ولأنها تستعصي على فهمي تمامًا، وربما ينطبق الحال نفسه على هيئة المحلفين أيضًا، فأقترح أن تقدِّم لنا تفسيرًا وافيًا، ومن الأفضل أن تجعله بيانًا تحت القسَم كي يتسنَّى لنا إدراجه ضِمن الشهادات المُدلى بها.»

وافَق ثورندايك قائلًا: «نعم، لا سيَّما وأنني أملك بعض الأدلة التي أودُّ تقديمها.» وبناءً على هذا؛ فقد حلف اليمين، ثم شرع في الإدلاء بالبيان الآتي:

«أول ما لفت انتباهي حين قرأت خبر هذه القضية هو ما اتَّسمت به الأشياء التي عُثِر عليها في رماد الكومة من طابعٍ مميَّز؛ ذلك أنها كانت تضمن أشياءَ مصنوعة من البلاتين ومن فخَّار الغلايين ومن الحديد ومن الخزف الصيني، وكلُّ هذه المواد لا يُمكن أن تتلف بالنار، وكانت كلُّ هذه الأشياء غير الفانية مميَّزة للغاية، ويُمكن التعرُّف عليها بسهولة، وكان شيئان منها يَحملان الحرفَين الأوليين من اسم صاحبها بالفعل؛ مما أوحى إليَّ بأن هذه الجثة قد هُيِّئت عمدًا للتعرف عليها بعد الحرق، غير أن هذا الإيحاء المجرَّد قد حلَّ محلَّه ظنٌّ مؤكَّد حين رأيت طقم الأسنان؛ إذ إنه كان يُمثِّل تناقضًا صارخًا؛ فها هو يا سيدي طقم الأسنان، والذي ترى أنه طقمٌ نظيف مصقول مصنوع من المطاط المُقسَّى دون أي أثر لبُقعةٍ أو تصبغ، لكن هذا الطقم كان مُرتبطًا بغليونين فخاريَّين، وعادةً ما يكون مدخِّن الغلايين الفخارية مُدخِّنًا شرهًا، بل يُدخِّن في معظم الأحوال تبغًا قويًّا داكنًا. وإذا كان يضع في فمه طقم أسنان، فسيكتسي ذلك الطقم بترسُّباتٍ سوداء يكون من الصعب جدًّا إزالتها. وكما ترى، لا يوجد أيُّ أثر لمثل هذه الترسُّبات أو بقع التبغ في

الفجوات الفاصلة بين الأسنان؛ لذا فقد بدا من شِبه المؤكَّد أن هذا الطقم يخصُّ شخصًا غير مُدخِّن، وفي هذه الحالة كان من المستحيل أن يكون طقم ريد، غير أن جرَّاح الشرطة قد تيقَّن من أن الطقم يُناسِب فكَّ الجمجمة، ويخصُّ الجثة المحترقة بلا شك؛ ومن ثَم فإذا لم يكن الطقم طقمَ ريد، فالجمجمة ليست جمجمة ريد، والجثة ليست جثة ريد، لكن سلسلة الساعة كانت تخصُّ ريد، وكذلك الغليونان والتميمة. وهذا يعني أن أغراض ريد المميزة للغاية والمُقاوِمة للنار قد رُبِطت بجثَّةٍ محترقة تخصُّ شخصًا آخر؛ أي إن جثةَ شخصٍ مجهول قد هُيِّئت عَمدًا لتبدو زورًا كأنها جثَّة ريد. وقد أوحى ذلك باقتراحٍ آخر وأثار سؤالًا. أما الاقتراح، فهو أن ذلك الشخص المجهول قد قُتل، ربما في مكانٍ ما بالقرب من الموضع الذي عُثِر فيه على طقم الأسنان. وأما السؤال، فهو عن الغرض في تهيئة الجثَّة لتبدو زورًا على أنها جثة ريد.

وعلِمت بعد ذلك من شركة التأمين أن ريد قد أمَّن على حياته بثلاثة آلاف جنيه؛ ومن ثَم يوجد شخصٌ ما سيربح ثلاثة آلاف جنيه بوفاته على الأرجح. وكان السؤال هنا: مَن هذا الشخص؟ شرعت في إجراءات تحرِّيات معيَّنة في مسرح الحادث.» وهنا قدَّم ثورندايك موجَزًا بما اكتشفناه عند المستنقَع وعلى اليخت، ثم أضاف: «وهكذا بدا أن رجلين كانا عند المستنقَعات في تلك الليلة متجهين نحو الكومة؛ أحدهما كان الشخص الذي وُجِدت جثَّته في الرماد، وأغلب الظن أن الآخر، الذي عاد وحده إلى اليخت، كان الشخص الذي من المرجَّح أن يربح ثلاثة آلاف جنيه بموت ريد.»

فسأله القاضي: «هل كوَّنتَ أيَّ رأيٍ بشأن هوية ذلك الشخص؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «نعم. يُراودني شكٌّ ضعيف جدًّا في أنه ريجينالد ريد.»

فصاح القاضي مُتعجبًا: «لكننا سمعنا في الشهادة أن السيد آرثر جيرارد هو مَن سيَجني الآلاف الثلاثة على الأرجح!»

قال ثورندايك: «بالضبط.» وظلَّ هو والقاضي هنيهةً يتبادل كلٌّ منهما النظر إلى الآخر بلا كلام.

وفجأةً ألقى الأخير نظرةً تفقُّدية في أرجاء المحكمة، وسأل: «أين السيد جيرارد؟»

قال ثورندايك: «لقد غادَر المحكمة منذ حوالَي عشر دقائق، وغادَر أحد مُفتشي الشرطة في عقبه فورًا. لقد أوصيته بألا يدع السيد جيرارد يغيب عن ناظرَيه.»

«إذن، أفترضُ أنك تظنُّ جيرارد مُتواطئًا مع ريد؟»

«بل أظنُّ أن آرثر جيرارد وريجينالد ريد هما الشخص نفسه.»

وحين نطق ثورندايك هذه العبارة، أصدر أعضاء هيئة المحلِّفين والمشاهدين همهمات ذهول. قال القاضي بعد تفكير مُتحيِّر استمرَّ بضع لحظات: «ألا تتذكَّر أن أمين مكتب ريد كان حاضرًا حين كان جيرارد يُدلي بشهادته؟» والتفت إلى أمين المكتب وسأله: «ما قولك؟ أكان ذاك الذي أدلى بشهادته تحت اسم جيرارد هو السيد ريد؟»

لم يكن أمين المكتب، والذي بدا أنه يفكِّر باهتياجٍ شديد، واثقًا على الإطلاق؛ إذ أجاب قائلًا: «لا أظنُّ ذلك، إلا إذا كان قد استعان بالكثير من مستلزَمات التجميل. لقد كان له الطول نفسه، والبُنيان ذاته، ولون البشرة نفسه تقريبًا بالتأكيد، لكنه كان ذا شارب. أما السيد ريد فقد كان حليق الوجه، وكذلك كانت لديه شامةٌ على وجهه، بينما كان وجه السيد ريد خاليًا من أي شامات، ثم إنه كان كثيف الحاجبين، أما السيد ريد فقد كان حاجباه خفيفَي الشَّعر للغاية، وكذلك كان يرتدي نظَّارة، على عكس السيد ريد، وكان يتحدَّث بلكنة رجل أيرلندي، بينما كان السيد ريد إنجليزيًّا. ومع ذلك، فمن الممكن …»

وقبل أن يُنهي كلامه، أحدَث باب المحكمة قعقعةً بعد تعرُّضه لصدمةٍ قوية، ثم فُتِح بقوة، ودخل منه السيد جيرارد إلى القاعة مُترنِّحًا بعدما دفعه مفتش الشرطة إلى الأمام. كان مظهره قد اختلف آنذاك اختلافًا مُذهِلًا؛ إذ فقد نظَّارته واختفى أحد حاجبَيه، وكذلك اختفت الشامة وجزءٌ من الشارب المُركَّب. وثب أمين المكتب وقد أطلق صيحة تعجُّب، وفي تلك اللحظة تلوَّى جيرارد بجَهدٍ عنيف، وحرَّر نفسه من قبضة المفتش. هرع المفتش نحوه ليقبض عليه مجددًا، لكن الأوان كان قد فات؛ إذ طارت يدُ المُعتقَل عاليًا، ودوَّى صوت طلقة نارية، وسقط آرثر جيرارد — أو ريجينالد ريد — إلى الوراء مُرتميًا على إحدى الدكك، بينما كان صُدْغه يقطُر دمًا، وكانت يده ما تزال تقبض على مُسدس.

قال ستوكر حين زارنا في اليوم التالي ليعرف التفاصيل: «إذن، فقد كان انتحارًا في النهاية رغم كل شيء. وحسنُ حظٍّ بالغٌ أيضًا؛ فالبوليصة لا تتضمَّن بندًا مُتعلقًا بالموت شنقًا بحُكمٍ قضائي.»


هنداوي